

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

ظاهرة الموت في شعر سميح القاسم

إعداد
أمل عبد اللطيف داود حسن

إشراف
أ. د. إحسان الديك

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2017م

ظاهرة الموت في شعر سميح القاسم

إعداد

أمل عبد اللطيف داود حسن

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2017/04/05م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

.....

1. أ. د. إحسان الديك / مشرفاً ورئيساً

.....

2. د. ياسين كتانه / ممتحناً خارجياً

.....

3. د. نادر قاسم / ممتحناً داخلياً

الإهداء

إليك يا مه وهبتني مه ذوب حبك جناحيه ونافذه

إليك يا صنو الروح، وسر الفوح

زوجي الحبيب

الشكر والتقدير

بعد شكر الله العلي القدير الذي من علي بهذه المكرمة، أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى قدوتي ومثلي الأعلى في الإخلاص في العمل، والسعي الجاد الدؤوب وراء العلم والبحث البناء، الأستاذ الدكتور إحسان الديك علي ما قدمه لي من نصائح وإرشاد وتوجيه بكل رقي وصدر رحب.

كما أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير لك لم يضف علينا بعلمه وخبرته، الدكتور الفاضل نادر القاسم، و للممتحن الخارجي الذي حباتي من وقته وجهده الثمينين.

وأقدم بجزيل الشكر لك ذللا الصعوبات بدعائهما ورضاهما: والدي ووالدي، ولفلذات كبدي أبنائي الأربعة الذين احتووني بسعة صدرهم ودعمهم على الرغم من صغر سنهم، ولكل من قدم لي الدعم والمساندة من الأهل والأصدقاء والزملاء.

والشكر الأكبر لك لم تكن البداية إلا منه، ولم تكن النهاية إلا به، ملهمي ورفيقي دربي زوجي الحبيب.

الإقرار

أنا الموقعة أدناه، مقدمة الرسالة التي تحمل العنوان:

ظاهرة الموت في شعر سميح القاسم

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيث لم يقدم أي جزء منها من قبل، لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحث لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:

اسم الطالبة:

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ:

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	فهرس المحتويات
ح	الملخص
1	المقدمة
6	تمهيد
27	الفصل الأول: فلسفة الموت
28	المبحث الأول: الموت يثمر
60	المبحث الثاني: السخرية في وجه الموت
69	المبحث الثالث: الموت والحب
76	المبحث الرابع: الموت والأسطورة
95	المبحث الخامس: الموت والناص
115	المبحث السادس: الموت والنقص
121	الفصل الثاني: موت النحن
123	المبحث الأول: الموقف العربي والموت
145	المبحث الثاني: الأطفال والموت
161	المبحث الثالث: المرأة والموت
167	المبحث الرابع: الغربية والموت
172	الفصل الثالث: موت الأنا
173	المبحث الأول: الحوادث والموت
191	المبحث الثاني: المرض والموت
211	الفصل الرابع: موت الآخر
212	المبحث الأول: موت الآخر الصديق
242	المبحث الثاني: موت الآخر العدو
248	الخاتمة

الصفحة	الموضوع
250	قائمة المصادر والمراجع
b	Abstract

ظاهرة الموت في شعر سميح القاسم

إعداد

أمل عبد اللطيف داود حسن

إشراف

أ. د. إحسان الديك

الملخص

جاءت هذه الدراسة لتبحث في ظاهرة الموت وتجلياته في شعر سميح القاسم، وقد قسمت إلى أربعة فصول صدرت بتمهيد، سلطت الباحثة في الفصل الأول منها الضوء على فلسفة الشاعر في الموت، وعلى ركائز صورته الممتدة في شعره: (الأسطورة والتناص والتقمص).

وفي الفصل الثاني وقفت على الموت البيولوجي والمعنوي لفئات الشعب الفلسطيني بالقتل والغربة والهزائم العربية.

أما في الفصل الثالث فقد رصدت تجربة الشاعر الذاتية مع الموت وقد كانت نقطة التحول في رؤيته له، فبعد أن كان في المراحل الأولى جماعيا رمزيا، أصبح في المراحل المتأخرة فرديا بيولوجيا.

وقد عرضت في الفصل الرابع والأخير لموت الآخر الصديق ووقعه في نفسه، والآخر العدو وأثر المحرقة النازية في تشكيل شخصيته كقاتل وجلاد.

واشتملت الخاتمة على أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة من خلال البحث، وكان من أبرزها: أن دلالة الموت تأثرت بالمراحل التي عاشها الشاعر وما يتخللها من أحداث كما اكتسب الموت خصوصيته من تجربة سميح الخاصة، إضافة إلى ثقافته وقراءاته الواسعة في التاريخ والفكر والفلسفة والأساطير القديمة التي ألهمت الشاعر الرفض والتحدي والمقاومة لسلطة الموت بالكلمة الحرة والقصيدة الخالدة.

المقدمة

الموت فعل كوني يشغل تفكير الإنسان منذ نشوء الخليقة وامتدادها، على اختلاف جنسياتها وعقائدها ولغاتها وفلسفاتها ورؤاها، وهو يشكل التهديد المستمر لوجوده، يظل يؤرقه ويثير في نفسه دواعي القلق والمعاناة.

وقد "انتبهت الأمم البدائية بوعي أو بلا وعي إلى مصيرها المحتوم بفناء الجسد فأوجدت الميثولوجيا وأحاطتها بطقوسها الإحتفالية، وكرستها ضمن عاداتها اليومية لتحقيق توازن وانسجام خلال صراعها مع الزمن، فكانت أن نفت مفهوم الموت السلبي، وأكدت على الانبعاث، وجعلته حقيقة قائمة في الواقع، وحشدت له الأفاصيص الخارقة والأبطال الأسطوريين"¹

وكما شغل الموت تفكير الإنسان البدائي فأوجد الأسطورة، حير الفلاسفة والمفكرين ودفعهم للاجتهاد في تعريفه وتفسيره، وأصبح فيما بعد "فضاء الشعراء الرحب ليلتقي فيه الفعل الشعري والفلسفي والأسطوري التقاء حميما ومثمرا من خلال تفاعله مع الذات الشاعرة، وإنجازته الرؤية الشعرية القائمة على أيولوجية التغيير تمردا وتضحية وثورة"²

وسميح القاسم بوصفه شاعرا أيديولوجيا ملتزما ومسكونا بمصير وطنه وأمتة، فقد شكل الموت بنية أساسية في شعره عبر مسيرته الطويلة.

حيث كان له حضور قوي في حياته من ألفها إلى يائها، بدءا بمسيرة الشعب النضالية التي كانت تسير جنبا إلى جنب مع الموت، وحينها كان الشاعر يؤمن بأن "في غياهب الموت تكمن خميرة الحياة، ويدرك أن زمن الحياة لن يأتي إلا بنفي زمن الموت"³

وبما أن الموت في نظر القاسم يعني "الثورة والتجدد والقدرة على الانبعاث والنصر، ونقطة انطلاق نحو اختراق المحال، وتحقيق الانتصارات حتى في لحظات اليأس والحزن

¹ المساوي، عبد السلام: الموت بين الأسطورة والفلسفة. http://www.aljabriabed.net/n61_02musawi.htm

² محمود، عبد الرحمن عبد السلام: فلسفة الموت والميلاد دراسة في شعر السياب. أبو ظبي: المجمع الثقافي. 2003. ص 125

³ الديك، إحسان: القناع والرمز في سرية القاسم كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه: تلك جمجمة الشنفري قيمة الجمال وجمال القيمة في شعر سميح القاسم. إبراهيم طه: دار الهدى. ط1. 2001، ص 72

والهزيمة¹ فقد تعامل معه بشكل فلسفي مستندا إلى الديانات السماوية والأساطير بما يخدم موقفه الواضح من الموت ودلالته الثورية.

ثم عايش الشاعر في مرحلة متأخرة من حياته نقطة تحول في تعامله مع الموت، تلاشت فيها كل الدلالات والرموز التي أحاطت به، وتجسد في صورته الكريهة في حوادث كثيرة، بدءا بفقد العديد من الأجزاء كأبي عمار، ومحمود درويش، وانتهاء بمواجهة شخصية مع الموت مرتين، الأولى عند وقوعه في غيبوبة تسع ساعات إثر تعرضه لحادث سير، رأى من خلاله ظلال الموت الثقيل عند استيقاظه في عيون أهله ومحبيه، والثانية كانت بصراعه الميرير مع الموت الذي تجلى له بصورة مرض السرطان، وقد واجهه بكل شجاعة وإيمان.

وفي ضوء هذا ولعدم وجود دراسة متكاملة ومتخصصة في موضوع الموت في شعر سميح القاسم، علما بأنه يعدّ أحد البنى الأساسية في شعره، إضافة إلى موقع سميح المتقدم في الحركة الأدبية العربية بعامة والفلسطينية بخاصة، وتجربته الشخصية الفريدة مع الموت، كانت من أبرز أسباب اختيار الباحثة لموضوع الدراسة التي اعتمدت فيها على المنهج الوصفي التحليلي، مفيدة من معطيات المنهج الأسطوري.

تحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما مفهوم الموت في فلسفة سميح القاسم؟
- كيف تجلى الموت في شعر سميح القاسم؟
- كيف انعكست الأسطورة والتناص على الموت في شعر سميح القاسم؟

وقد أفادت الباحثة بشكل أساسي من مقالة "مركزية الموت وأنسنته في كولاج سميح القاسم"، لنبيه القاسم، ألقى فيها الكاتب الضوء على حضور الموت في ديوان الشاعر "كولاج 1" ونظرة الشاعر إليه. وهي المقالة الوحيدة التي تناولت موضوع الدراسة، ولكن بشكل جزئي لا يشمل جميع أعماله، كما أفادت من مراجع ودراسات عدة تطرقت إلى أدب الكاتب بشكل عام

¹ القاسم، نبيه: مركزية الموت وأنسنته في كولاج سميح القاسم: سميح القاسم مبدع لا يستأن أحدًا. ط1. دار الهدى للطباعة والنشر كريم. 2013. ص 245

منها كتاب " تلك جمجمة الشنفرى، قيمة الجمال وجمال القيمة في شعر سميح القاسم " وهو مجموعة من المقالات التي تناولت أدب سميح القاسم بالبحث والاستقصاء لكتاب مختلفين، وكتاب " لغة الشعر عند سميح القاسم " لجمال يونس وهو يدرس شعر سميح القاسم من جوانبه المختلفة منها الجانب الفكري، والجوانب الشعبية، والأساطير والرموز، وغيرها. وتبقى مجموعات الشاعر هي مجال البحث والدرس أولاً وأخيراً.

فيما يخص هيكلية الدراسة فقد تشكلت من تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، وقد خصصت الباحثة التمهيد لإعطاء فكرة عامة عن الموت في الحضارات القديمة، التي شكلت منها ثقافياً خصباً للشاعر سميح القاسم.

أما الفصل الأول الموسوم بـ(فلسفة الموت) فقد اشتمل على خمسة مباحث جاء الأول تحت عنوان (الموت يثمر) وضحت فيه الباحثة فلسفة سميح القاسم في الموت وتتلخص في كونه ولادة ضرورية لحياة جديدة أكثر عدلاً وسعادة، يموت فيها الفرد في سبيل الجماعة تاركاً وراءه فكره الحي وهدفه السامي، كما بينت فيه أن هذه النظرة الإيجابية نتيجة انتماء الشاعر إلى الحزب الشيوعي واعتناقه المنهج الواقعي في رؤيته للعالم.

وفي المبحث الثاني وعنوانه (الموت مهنة) وقفت على صور الموت المنتشرة في شعر القاسم، وقد اتسمت هذه الصور بالسخرية والاستخفاف بالموت نتيجة تفشيهِ وانتشاره بين فئات الشعب الفلسطيني، وكانت صورة الموت المهنة من أشهر وأهم هذه الصور.

أما في المبحث الثالث المعنون بـ(الموت والأسطورة) تبرز الباحثة الأساطير القديمة التي وظفها الشاعر في مجال الموت توظيفاً ينم عن دراية وخبرة بمضامينها العميقة التي تصلح لأن تكون معادلات موضوعية تكشف عن جوانب التجربة العامة والخاصة للشاعر.

وفي المبحث الرابع (الموت والتناص) بينت الباحثة مواطن التناص المتعلقة بالموت، وطبيعة العلاقة القائمة بينهما، وهي علاقة قائمة على إعادة الماضي بشخصه ونصوصه وحوادثه بتأويل جديد أو بدلالة جديدة، كاشفاً من خلاله هموم الفلسطيني وطموحاته.

وقف المبحث الخامس الموسوم ب(الموت والتقصص) على توظيف الشاعر لمذهب التقمص، وهو مذهب في خلود النفس في عقيدة الدروز، باعتبار أن النفس لديهم لا تموت بل يموت قميصها (الجسم)، فتنتقل إلى قميص آخر، وقد عمد الشاعر إلى توظيفها من باب الإيمان بجمال فكرتها من الناحية الفنية لتأكيد البقاء الفلسطيني و استمراريته.

أما الفصل الثاني (موت النحن) فقد جاء للحديث عن موت (الشعب) في أربعة مباحث وضحت الكاتبة في المبحث الأول (العرب والموت) تأثير الهزائم والانكسارات العربية في نفس الفلسطيني، حيث كان هذا التأثير مساويا لفعل القتل وقد ترك يواجه مصيره الدموي وحيدا.

وقد خصصت المبحث الثاني للحديث عن (الأطفال والموت) في شعر سميح، حيث شكلوا الفئة الأضعف والأكثر تضررا في المجازر، فقد سلبهم الاحتلال جميع حقوقهم دون أي ذنب حقهم في الحياة والتعلم واللعب وباتوا قرابين الخلاص.

أما (المرأة والموت) فكان عنوان وموضوع المبحث الثالث حيث سلطت الباحثة على صور المرأة الشهيدة في شعر القاسم، فهي الأم صانعة الرجال والزوجة المقاومة والحبشية الضحية.

وقد جاء المبحث الرابع تحت عنوان (الغربة والموت) ليبين فعل الغربة في نفس الفلسطيني، وهو فعل يعادل الموت الذي يمتص روح الإنسان شيئا فشيئا بعيدا عن وطنه، وهو أمر يرفضه الشاعر بشدة، ويحرص على عودة المهاجر إلى بلده ولو في التابوت.

وقد عرضت الباحثة في الفصل الثالث الموسوم ب(موت الأنا) تجربة الشاعر الذاتية مع الموت التي كانت نقطة تحول واضحة في رؤية الشاعر للموت، فبعد أن كان جماعيا رمزيا يراد به البعث، أصبح موتا فرديا بيولوجيا لا مرد له.

أما الفصل الرابع (موت الآخر) فقد خصص لموت الآخر الصديق الذي نفاه القاسم بصور عدة منها التخفي واللعب والتماوت وتركه يعاني أحزان الفقد و ألامه. وموت الآخر العدو الذي ركز في شعره على إبرازه كضحية للمحرقة النازية التي حولته جلادا مارس على الشعب الفلسطيني الممارسات الدموية التي تعرض لها.

واشتملت الخاتمة على مجموعة من النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وختاما لا يفوت الباحثة أن تشكر أستاذها المشرف إحسان الديك على نصائحه وتوجيهاته الهادفة، وعلى ملاحظاته النقدية القيمة التي أسهمت في إخراج هذه الدراسة في صورتها الحالية، وأعتذر عن أي تقصير أصاب هذه الدراسة نتيجة أسباب ذاتية أو موضوعية فرضت نفسها في فترة العمل في هذه الدراسة

والله من وراء القصد

تمهيد

لجأ الإنسان إلى الدين عندما أفزعه الموت وعجز عن أن يجد تفسيراً له أو مهرباً منه وهو الظاهرة الحتمية لكل المخلوقات الحية، فحاول أن يجد الطمأنينة لنفسه القلقة في العقائد وخاصة تلك التي تؤمن بوجود الحياة الآخرة التي يبعث فيها الإنسان للحياة من جديد، فلا يكون فيها الموت نهاية الحياة وفناء الوجود.

وفيما يأتي استعراض لحقيقة الموت والحداد واليوم الآخر في أهم الديانات الشرقية القديمة:

أولاً: الموت في بلاد ما بين النهرين

أُقلقت ظاهرة الموت الإنسان الرافدي وبقيت هاجسه وشغله الشاغل في كل حين، وقد آمن بحتمية الموت والفناء إذ لا مفر منه، وأين المفر من قضاء لا بد منه، ومن شبح يقض مضجع الإنسان في كل لحظة، يقول جلجامش الإنسان الرافدي الذي جسد البحث عن سر الخلود:

"وها أن المفرق " قد تمكن من جوارحي

أجل في مضجعي يقيم الموت

وحيثما وقفت قدمي يربض الموت"¹

فتح جلجامش إثر مقتل صديقه (أنكيو) عينيه على حقيقة غيبته عنه قوته ألا وهي حقيقة الموت، وراعه الأمر فبكى صديقه ليلاً ونهاراً ستة أيام وسبع ليالٍ، لعل كثرة البكاء والنواح تبعثه حياً من جديد كما يبعث تموز:

"فبكيته أثناء الليل والنهار

ندبته ستة أيام وسبع ليالٍ

معللاً نفسي بأن يقوم من كثرة بكائي ونواحي"²

¹ باقر، طه: ملحمة جلجامش أوديسة العراق الخالدة. بغداد: دار الشؤون الثقافية. 1975. ص 101

² المرجع نفسه ص 78

ولأن الوعي بضرورة الموت لا يستيقظ إلا من خلال المشاركة ومن خلال الحب الشخصي والذي تصطبغ به هذه التجربة تماما، فإن جلجامش عندما ينعى أخاه وخله أنكيكو، فإنه ينعى ذاته التي سيطالها الموت أيضا والتي لم تتفع بها الشفاعة. بالرغم من أن تثنيه من مادة الآلهة وتثنه من مادة البشر، إلا أن تثنه البشري لعنة تصيبه في مقتله¹

"فأجابت صاحبة الحانة جلجامش قائلة له:

إلى أين تسعى يا جلجامش

إن الحياة التي تبغي لن تجد

إذ لما خلقت الآلهة البشر قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة"²

لقد ميزت الآلهة نفسها عن البشر بصفة فارقة وهي الخلود، فهي لا تموت بعكس الإنسان الذي قرن به الموت منذ أن خلقته، وإذا كان بعض الآلهة يموت فإنما ذلك لأمد محدود، وإن رجوع الإله الذي يموت وقيامه من عالم الأحياء أمر ممكن، كما هو الحال في الآلهة عشتار (أنانا) التي تقع ضحية الموت الأبدي، فبعد ثلاثة أيام تنهض بمعونة آلهة العالم الأعلى والتي تعيد لها الحياة، ولأن قوانين العالم السفلي صيغت بعناية واكتمال فهي تشترط البديل، والبديل هنا هو دموزي عشيق الإلهة وزوجها³

رفض جلجامش "نصيب البشر" من اللذة واللهم والابتهاج كما أوصته صاحبة الحانة (ديموري)، ورفض معه تثنه البشري، ومضى يجتاز المشاق والصعاب لكي يصل إلى سر الخلود، وقد عبر مع (اور - شنابي) - تابع أوتونبشتم - (مياه الموت)، حتى وصلا للخالد (أوتو - نبشتم) بعد عناء:

ولم يكن دوام وخلود منذ القدم

ويا ما أعظم الشبه بين النائم والميت !

¹ انظر الربيعو، تركي علي: الإسلام وملحمة الخلق. ط1. بيروت: المركز الثقافي العربي 1992. ص49

² باقر، طه: ملحمة جلجامش. ص 79

³ الربيعو، تركي علي: الإسلام وملحمة الخلق، ص46

ألا تبدو عليهما هنية الموت؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يميز بين العبد والسيد إذا جاء أجلهما ¹

علم أتو - نبشتم أن الموت أمر محتّم على جميع المخلوقات، السيد والعبد والصغير والكبير، أصغر المخلوقات وأعظمها في هذا الكون، لا راد لقضائه ولا مفر منه، وتحت إصرار جلجامش وإشفاق زوجة (أتو - نبشتم) يبوح له بسر من أسرار الآلهة:

يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه

إنه كالورد يخز يدك كما يفعل الورد

فإذا ما حصلت يدك على هذا النبات وجدت الحياة الجديدة ²

وغاص جلجامش من جديد إلى أعماق البحر، ووجد ذلك النبات العجيب وقفل عائداً إلى مدينته فرحاً بإكسير الشباب، وبينما كان يستحم في بركة ماء بارد عرضت له، شمت الحية ذلك النبات العجيب فأكلته وما زالت إلى الآن تجدد جلدها وشبابها. أما جلجامش فعاد خائباً إلى مدينته مؤمناً بتعذر الحصول على الحياة الخالدة، وأنها مقصورة على الآلهة فقط³، فطفق يبحث عن نوع آخر من الخلود يكمن في سعيه وراء المجد بإبداعه صرحاً كبيراً أزلياً وهو سور المدينة الذي بناه ليبقى شامخاً صامداً في وجه الزمن.

وهكذا استسلم الفكر الرافدي أمام الموت وأعلن عجزه عن التغلب عليه وامتلاك سر الخلود، ولكنه لم يتصور أن الموت غاية تنتهي عندها الحياة، أي أنه لم يعتقد بالفناء المطلق.

آمن سكان بلاد الرافدين بوجود حياة أخرى في عالم آخر أو العالم السفلي تذهب إليه أرواح الموتى، جميع الموتى دون تمييز، ونظروا إليه باعتباره "عالماً سفلياً يقوم تحت عالمنا القائم لمسافة ليست بالبعيدة ويشكل طبقة وسطى بين سطح الأرض ومياه الغمر الأولى"⁴، وقد وصفوه بأنه عالم مخيف بهيئة مدينة مسورة بسبعة أسوار يحرسها مردة الشياطين وسموه

¹ باقر طه: ملحمة جلجامش. ص 87

² المرجع نفسه. ص 102 ص 103

³ انظر باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات. ج 1. ط 2. الكرخ: دار العلمين العالية. 1955. ص 47

⁴ السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى. دمشق: دار علاء الدين. 1996. ص 220

بأسماء مختلفة منها "كيجال" والأرض التي لا رجعة منها (أرضة لاتاري) وبالسومرية (كورنجي)¹

ويجري الدخول إلى عالم اللاعودة من فتحات في الأرض كتلك التي تشرق منها الشمس والفتحة التي تغرب منها، والفتحة التي أسقط منها جلجامش آلتيه الموسيقيتين²

"أول ما يهبط الزائر الجديد يصادفه نهر"هابور"³ أو "خبرة"⁴ وهو نهر العالم الأسفل ويحييه "هاموطابال" ذو الأربعة رؤوس كرأس الطير، وينقله في قاربه إلى الطرف الآخر حيث بوابات مدينة الموتى⁵

"لقد تخيل سكان وادي الرافدين العالم السفلي مدينة تحيط بها سبعة أسوار حصينة وثمة سبعة أبواب تقود بالتتابع إلى داخل المدينة، وكان الحارس (نيدو) يبقى الأبواب السبعة مغلقة بالمزلاج، ولذلك لم يكن بمقدور أي كان أن يخرج من العالم السفلي"⁶، وعند كل بوابة يتخلى الميت عن شيء من متاعه وملبسه وزينته وفق القوانين الموضوععة لذلك العالم إلى أن يمثل عاريا أمام أريشكيغال زوجة إله العالم السفلي نرجال وبطانتها السبع، وهم كبار آلهة العالم الأسفل لتقرير مصيره ومكانه ووضعته العام في عالم الأموات.⁷

وفي ملحمة "نزول عشتار إلى الحضيض" خير مثال لما يتخلى عنه الميت من مظاهر الحضارة عند كل باب من أبواب العالم الأسفل السبع، وذلك تبعا لقوانين ذلك العالم:

لا تعارضي طقوس العالم السفلي

ولدى اجتيازها البوابة السابعة

¹ باقر طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، القسم الأول. ص 233

² المرجع نفسه ص 221

³ المرجع نفسه ص 221

⁴ بارندر جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. ط2. مكتبة مدبولي. 1996. ص 48

⁵ السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى. ص 221

⁶ أ. س. ميغوليفسكي: أسرار الآلهة والديانات. ترجمة حسان ميخائيل اسحق. ط2. سورية: دار علاء الدين. 2006.

ص 33

⁷ انظر، السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى. ص 221

يرفع عن جسدها {البالا} الرداء الملكي

ما معنى ذلك؟ (قالت)

- اسكتي يا إنانا! (قيل لها)

سلطات العالم السفلي، لا مأخذ عليها

لا تعارض طقوس العالم السفلي

وهكذا وجسدها خاضع ومجرد

من ألبسته، أتى بها أمام إيريشكيغال

أخذت عند ذلك إيريشكيغال المقدسة مكانها على عرشها

والأنونا القضاة السبعة

تلفظوا أمامها بقرارهم¹

كان أموات سكان العالم السفلي يخضعون لمعاملات مختلفة ومتفاوتة وفقا لقواعد تمثل النظام الداخلي لهذا العالم، فمعاملة الأموات ممن أنجبوا أبناء في حياتهم كانت تتحسن كلما زاد عدد الأبناء، وهذا ما أوضحه شبح أنيكيديو لجلجامش عندما سأله:

"هل رأيت الذي خلف وراءه ابنا واحدا؟

أجل لقد رأيته وهو ممدد أسفل الجدار ويبكي بكاء مرا

والذي خلف ابنين هل رأيته؟

أجل لقد رأيته أنه يضجع في بناء من الآجر ويأكل الخبز

هل أبصرت الذي خلف ثلاثة أبناء؟

أجل رأيته. إنه يسقي الماء من زقاق ماء العمق"²

¹ نقله إلى العربية الشواف، قاسم: ديوان الأساطير. الكتاب الرابع الموت والبعث والحياة الأبدية. ط1. لبنان-بيروت: دار الساقى. 2001. ص 66.

² باقر طه: ملحمة جلجامش. ص 108

يستعرض النص مصير من كان له ابن واحد أو ابنان أو ثلاثة حتى السبعة أبناء، فيشهد عند ذلك تدرجا يتراوح بين البكاء المرير مروراً بالسماح بشرب الماء ثم سعادة الفلاح إلى الاستماع إلى الموسيقى في حضرة الآلهة¹

إن هؤلاء النزلاء من لهم أبناء يطعمون ويسقون مياهها باردة من رقاق الماء، وتلك مسؤولية الابن الأكبر الذي عليه أن يقوم في فترات دورية بسكب السكائب تكريماً للآلهة، وتقديم ولاءم جنازية ليقيم أود الأسلاف²، وعندئذ من المحتمل أن تكون روح الإنسان الذي دفن دفناً لائقاً ونال قرايين دفن مناسبة مستعدة لإبداء المساعدة ولكونها على اتصال بسلطات العالم الأسفل فإنها يمكن أن تتأشد بعمل الخير إلى أقربائه الذين ما يزالون أحياء³، وهكذا فإن لأشباح العائلة وأشباح الأسلاف أهميتهم ودورهم في السهر على وحدة العائلة من الأحياء وحمائيتهم ومساعدتهم، شرط تلقي الطقوس والتقدمات المرتبطة بمدافنهم وتمائيلهم⁴.

ولكن أسوأ الحالات حين لا يبقى لشبح الميت أحد يهتم به فهو " يأكل الفضلات التي ترمى في المزابل"⁵ وكذلك حال من تركت جثته في الصحراء دونما دفن فإن روحه لا قرار لها في العالم الأسفل⁶، ولن تعرف طعم الراحة وستبقى هائمة إلى أبد الآبدين يطوف بالأحياء فتزعجهم وتتغص عليهم عيشهم وتسبب الأمراض والكوابيس والاضطراب العقلي بالطريقة نفسها التي تقوم بها العفاريت⁷

وقد كانت تترك جثة العدو لكي تلتهمها وحوش البرية أو طيور السماء أو الكلاب، وقد كان يتم نبش القبور وعرض عظام آباء الملوك والحكام المغلوبين، والتوصل إلى حد طحن هذه العظام وتحويلها إلى "العدم"⁸

¹ انظر، ديوان الأساطير. ص 174 - 175

² انظر، باردنر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ص 49

³ ساكز، هاري و. ف: الحياة اليومية في العراق والقديم (بلاد بابل وأشور) ترجمة كاظم سعد الدين. ط1. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ودار المأمون للترجمة والنشر. 2000. ص 220

⁴ الشواف، قاسم: ديوان الأساطير ص 452

⁵ باقر، طه: ملحمة جلجامش. ص 108

⁶ انظر. المرجع نفسه. ص 108

⁷ انظر، باردنر جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص49، وساكز، هاري و. ف. الحياة اليومية في العراق القديم.

ترجمة كاظم سعد الدين. ص219

⁸ انظر الشواف، قاسم: ديوان الأساطير. ص 450

"كان لزاما على أهل الميت دفنه وفق الطقوس المتبعة، وتزويده بما يلزم ريثما يصل للعالم الأسفل، ومن ثم الاستمرار في تقديم الطعام والشراب والكساء له بعد دفنه عن طريق التقدّمات المختلفة، وتقديم القرابين لآلهة العالم الأسفل لتكون رفيقة به وهذه الطقوس الجنائزية والأضاحي هي التي تعين الميت أكثر من شيء آخر"¹

لقد تلخّصت معايير السلوك في العالم السفلي في الآتي " التزام الهدوء، وعدم الإتيان بما يلفت الانتباه بالملابس أو الطيوب، والقدرة على كبت المشاعر، والحقيقة أن الحياة كانت تتواصل ولكن بطريقة أخرى يواصل الإنسان في المملكة السفلية الأعمال التي كان يمارسها في حياته الدنيوية عينها، وكانت تقام هناك أيضا شتى الطقوس والمراسم يقيمها الكهنة أنفسهم كما في الحياة الدنيا"²

ويمكن لظل الميت أن يصعد إلى الأرض لحين، لكن هذا لا يحدث مع الموتى من الفئات الاجتماعية الدنيا إلا قليلا - فمعاملة الأموات في العالم السفلي كانت تختلف وفقا لما كانت عليه حياتهم الأرضية -³ وغالبا جدا ما استغل الملوك هذا الاختيار (الصعود إلى الأرض لحين) فقد صعد ظل أنكيديو من المملكة السفلية ليلا في صديقه جلجامش وتحدث إليه، كما كان الخروج من المملكة السفلية لبعض الوقت أمرا ممكنا إذا ترك المعني رهينة تتوب عنه هناك.⁴

كانت الآلهة وحدها تعيش في نعيم دائم في العالم الأسفل، أما الناس فيهبطون إلى (أرالو) التي كانت دار للعقاب في معظم الأحوال، ولم تكن قط دار نعيم، تقيد فيها أيدي الموتى وأرجلهم أبد الدهر، وترتجف فيها أجسامهم من البرد يجوعون فيها ويظمؤون إلا إذا وضع أنباؤهم الطعام في قبورهم في أوقات معينة⁵ كما مر سابقا، وهذا ما جعلهم يضعون في قبر الميت سبع جرار من الجعة وأربعمائة وعشرين رغيفا من الخبز، وزنتان من الحنطة

¹ السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى. ص 234

² أ. س. ميغوليفسكي: أسرار الآلهة والديانات ص 33

³ انظر، الشواف، قاسم: ديوان الأساطير ص 186

⁴ انظر، أ. س. ميغوليفسكي: أسرار الآلهة والديانات ص 34

⁵ انظر، ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. مج 1. الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية . ص

وعبادة ووسادة، كما وجد أيضا الملابس والحلي وعدة الحرب، وتتضاعف مكانة الميت الاجتماعية.¹

إذا كان سكان بلاد الرافدين قد اعتقدوا بداية ببعث الإله والملك ومن يدفن معه، فإنهم فيما بعد آمنوا بحتمية الموت، فحاولوا البحث عن سراب الخلود، خوفا من عالم سفلي أجادت ملامحهم وأساطيرهم وصف برودته وظلامه وحياة الأرواح في داخله، وعندما عجز جلامش عن إيجاد هذا الخلود بحث عن البديل، الذي كان في الإبداع والإنجاب لأنهما أساس استمرار الحياة وتجدها.

ثانيا: الموت في الديانة المصرية القديمة

لما كان الإنسان الرافدي قد سعى جادا لمعرفة ماهية الموت والبحث عن الخلود، فإن الإنسان المصري القديم قد شغل هو أيضا بالآخرة والاستعداد التام لها. ففكرنا البحث والخلود أساس مركزي في ديانات مصر القديمة الفرعونية، ومعظم جوانب حياة المصري القديم كانت تدور حول فكرة الموت، وما يرتبط به من بعث وخلود وحياة أخرى وحساب وعقاب والاستعداد المادي والمعنوي لكل ذلك، بل إن علوما وفنونا عدة نشأت لخدمة هذا الجانب مثل التحنيط والنحت والعمارة². حتى أن حياتهم كانت تبدو وكأنها مقدمات للحياة الأخرى، بل كانت وكأنها ممرا إلى ذلك الخلود.

وقد عرف المصريون نوعين من البعث أو مذهبين لتفسير مسألة البعث، فقد رأى المصري في مسار الشمس اليومي واختفائها ليلا اختفاء مؤقتا ثم عودتها للظهور مرة أخرى لتواصل مسيرتها رمزا للخلود والبعث المتجدد. هذا البعث الذي آمن به أتباع العقيدة الشمسية كهنة الإله رع، إله الأحياء الذي يمكن أن يقتنر به ويتخلد معه بعض الأشخاص من ذوي الامتياز كالفرعنة مثلا من بعد مماتهم³، وهذا هو المذهب الأول. كان الموت لديهم لحظة فاصلة أو حلقة تصل بين حياتين وطبقا لهذه النظرية فإن الميت كان ينهض ليلحق بمسيرة الشمس أو ليصير جزءا منها.

¹ انظر، السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى ص 233

² انظر، عبد الخالق، أحمد محمد: قلق الموت. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. ص 144

³ انظر، باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات، ص 93

وكما أن الشمس في شروقها وغروبها ترمز للخلود والبعث في السماء، فإن فيضان النيل وهو يغمر الأرض الميتة -إذا بالحياة تدب فيها وتخرج من بين ثناياها خضراء مزدهرة - يرمز للبعث أيضا، وهكذا يبدو واضحا أن فكرة البعث هذه متسقة تماما مع طبيعة البلاد المصرية الزراعية، وقد ارتبطت فكرة البعث بالإله أوزيريس¹ إله الأموات المباركين وإله عالم الأموات وإله عالم الخضر، وهذا هو المذهب الثاني الشائع بين سواد المصريين، وليست حكرا على الفرعون وحاشية بلاطه ممن يدفع عنهم ثمن الخلود وهو ثمن باهظ كما في مذهب الإله رع. وقد كانت ديانة أوزيريس العزاء الوحيد للجماهير والأمل لهم فيما بعد الموت.²

"ولكن مع اختلاف هذين الإلهين فإنهما يشتركان بميزة مهمة هي مسألة القيامة والعودة إلى الحياة من بعد الموت، "رع" يموت موتا مؤقتا في أثناء مغيب الشمس ويعود إلى الحياة عند شروقها، وكذلك عاد أوزيريس إلى الحياة من بعد مقتله، ويعود دوما إلى الحياة أيضا بصفته إله الخضر"³

لقد تصور المصريون القدماء الموت على أنه انتقال من حالة حياة إلى حالة حياة أخرى، وإنه انفصال العنصر الجسمي عن العناصر الروحية⁴ فالإنسان يتكون حسب رأي المصريين القدماء من الجسد الفيزيولوجي، والصنو "الكا"، والنفس "البا".

أما "الكا" فهي رفيق غير مرئي، يولد مع الشخص ويبقى نقيا طاهرا على امتداد حياة الشخص المعني كلها، إنه ملاكه الحارس. وأما النفس "با" فهي العنصر الطليق الذي يتحرك بحرية في الكائن الحي، إذ بينما يبقى الجسد رهين الأرض، تنطلق البا إلى السماء⁵ وتمثل في الرسوم المصرية القديمة بصقر له رأس بشري.⁶

اعتقد المصريون أيضا أن حفظ الجسد سالما في القبر وتجهيزه بما يحتاج إليه، يضمن بقاء الروح حية بعد موت الجسم الطبيعي، وبعث الجسد والروح والصنو إلى الحياة من جديد،

¹ انظر، أبو رحمة، محمد: الإسلام والديانة المصرية القديمة. ط1. القاهرة: مكتبة مدبولي. 2005. ص 153

² انظر، باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات، ص 93

³ المرجع نفسه. ص 93

⁴ انظر: عبد الخالق، أحمد محمد: قلق الموت. ص148

⁵ انظر، نونج، أريك هور: وادي الملوك. ترجمة محمد العزب موسى. ط1. القاهرة: مكتبة مدبولي. 1996. ص 179

⁶ انظر، راك، ي، ف: أساطير مصر القديمة. ترجمة محمد العلامي. ط1. عمان: دار الفكر. 2010. ص 169

لذا بذلوا أقصى الجهد في المحافظة عليه وجعله صالحا لحلول النفس فيه بعد الموت، وبذلك اهتدوا إلى عملية تحنيط الموتى وبقاء المومياة على هيئة من التماسك وعدم التحلل، لكي تعود النفس إلى غلافها.

"دأب المصريون على الاهتمام الشديد بالاحتفال بدفن الموتى، إذ اعتقدوا أن سعادة الشخص الميت في المستقبل تتوقف على هذا الاحتفال وعلى المعتقدات المرتبطة بالطقوس، كان الميت يدفن دائما ولا تحرق جثته أبدا"¹

كانت المدة الفاصلة بين موت الشخص ودفنه تختلف في طولها، فقد تستغرق في بعض الحالات مئة وواحدا وعشرين يوما وفي حالات أخرى قد تستغرق ستة وتسعين يوما تختلف باختلاف مدة التحنيط وتعصيب الجسم ودفنه.²

من طقوس الجناز الأوزيري السحرية المهمة التي تقام باب المقبرة التي تجري على جثمان المتوفى أو على تمثاله، طقس فتح الفم الذي يتم بوساطة العديد من الآلات ذوات القوى السحرية فيضمن له فتح فمه ليستطيع الحديث لإلقاء التعويذات وكذلك للأكل والشرب، إن هذه الشعيرة تعيد كل الحواس إلى الجسد الميت مرة أخرى فتدب الحياة فيه.³

وفي نفس وقت طقس فتح الفم، تقوم النسوة النادبات باللطم والعويل، بعد أن حللن شعورهن وشققن ثيابهن، كما يقمن بحث التراب على رؤوسهن وضرب نهودهن، ومن جهة أخرى يضرب الرجال صدورهم وينطقون بصوت مرتفع.⁴

كان من المعتقد عند المصريين الفراعنة " أن الميت أو روحه في العالم الآخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء في الدنيا من طعام وشراب، وأن ما يقدم من ذلك في الدنيا قربانا على أرواح الأموات يفيدهم في الآخرة، ولذلك تكون روح الميت في أشد الألم إذا لم تقدم القرابين من

¹ بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. ص 74

² انظر باقر، طه: مقدمة تأريخ الحضارات. الجزء الثاني. ص 13

³ انظر، السيد، محسن لطفي: كتاب الموتى للمصريين القدماء. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر. 2009. ص 81-82

⁴ انظر قلق الموت ص 145 و السيد، محسن لطفي: كتاب الموتى. ص 64

طعام وشراب وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء في الدنيا"¹ كما أن عليهم أيضا أن يتابعوا باهتمام جميع طقوس التحنيط وإذا لم يتم ذلك فإن (كا) الميت ستهان، ويتحول إلى عفريت شرير وسيلاحق أقرباءه إلى الأبد وسيجلب المصائب على رؤوس خلفهم.²

لذا يعد الميت الأحياء أن يتشفع لهم أمام القوى الإلهية في حالة أن تكون علاقة الأحياء مع الميت علاقة عطف، وسيهددهم بمقاضاتهم أمام الآلهة العظام أو حتى سيقب رقبته أحدهم، وأيضا سيهدده بأن يوجه له المصائب على الأرض إن كانت العلاقة بينهما سيئة. فلم يكن الميت مخلوقا محايدا سلبيا، وإنما كان قادرا على أن يلحق الأذى بالأحياء وإن كان ميتا³

اعتقد قدماء المصريين أنه لابد من حياة أخرى فيها النعيم المقيم للأخيار والعذاب الأليم للأشرار ثم إنه قبل أن يصل الميت إلى الثواب أو العقاب لا بد من الحساب. فكل متوفى لا بد أن يحاكم على أعماله وأفعاله في الدنيا، وكل ذنب يحصى ويسجل ويستخدم دليلا ضده في أثناء المحاكمة التي يترأسها أوزيريس، وسوف يطلب من قلبه أن يقف شاهدا عليه ويدلي باعتراف كامل.⁴

لقد عاش المصريون حياتهم المزدهرة سعداء وكانوا ينتظرون حياة أكثر سعادة واطمئنانا وكمالا بعد رحيلهم إلى العالم الآخر، فتوجهوا بكل نشاطاتهم اليومية للتحضير لهذه الحياة، حتى غدت المقابر أهم الأبنية وأكثرها تكلفة، وأصبح الكهنة أهم الطبقات وأكثرها غنى وثروة ونفوذاً وسطوة، وغدا فن التحنيط الأكثر ازدهارا، كيف لا وقد كانت تسيرهم فكرة واحدة الموت بداية الحياة الخالدة.

الموت عند الإغريق

لم يعتن الإغريق بالحياة الأخرى كعناية المصريين القدماء بها، ولم ينشغلوا مثلهم عن دنياهم بالتحضير لآخرتهم، ولكن ذلك لا ينفي حقيقة أيمانهم بعالم آخر وبحياة أخرى يجازي فيها

¹ الخطيب، محمد، أحمد: مقارنة الأديان. ص 16

² راك، ي، ف: أساطير مصر القديمة. ص 192

³ انظر، المرجع نفسه. ص 202

⁴ انظر، السيد، محسن لطفي: كتاب الموتى. ص 37

المسيء والصالح، وبوجود هذه الحياة في مملكة الموتى يحاكمها هاديس وملكته برسيفوني وغالبا ما تتخذ هذه المملكة اسمه هاديس (هديد)، مملكة الأموات هذه منطقة محايدة مخصصة لأرواح الأشخاص العاديين الذين لا تنتظرهم عقوبة، أو ثواب عند موتهم تعيش فيه كالأطياف أو الأشباح حياة مملّة موحشه لا طعم فيها ولا رغبات.¹

لم تتفق الآراء حول مكان وجود مكان هذه المملكة، فكما تقول الإلياذة إنها تهجع تحت الأماكن المقدسة للأرض وقد جاء في الأوديسة أن الطريق إليها يمر في تخم العالم عبر المحيط² وقال اليونان بأن لها مدخلا قرب (تانيرم) في لاكونيا، بينما رأي الإغريق أن الدخول إليها ممكن من افرتوس فقط، وهي بحيرة بركانية قريبة من كوما جنوب إيطاليا³، وقد اتفقوا جميعا على أن الخروج من هيديز مستحيل على من يخاطر بالدخول إليها ف(سيربيروس) - كلب بثلاثة رؤوس وذيل تتين - يسمح بدخول كل الأرواح ولكن لا يسمح بالعودة أبدا.⁴

ثم يمثل الموتى أمام ثلاثة قضاة هم مينوس، رادامنتوس وايكس، ليقرروا المصير المحتوم، فيرسلون الأبرار إلى الإيلزون (الفردوس) ويحتوي على الحقول الزاهية وهي التي تسمى (الإيليزية) مواطن السعادة الأبدية⁵، ويكلون أرواح الأشرار إلى الايرينايت (ربات الانتقام) لمعاقبتهم فتجر أرواحهم الشريرة وتضربها بسيطا لاذعة، حتى تصل أبواب تارتاروس وهي هوة سحيقة هائلة الظلام تقع في قلع الجحيم وفيها يعذب المجرم عذابا أبديا.⁶

إن شارون (كارون) نوتي عجوز يجتاز بأرواح الموتى بقاربه الأسطوري نهر ستيكس وهو أحد الأنهار الخمسة في هذه المدينة الحزينة إلى مقرهم الأخير، وكان على كل روح أن تدفع لقاء حملها قطعة نقدية تسمى (أوبولوس)، كانت توضع على لسان الميت عند وفاته، ومن لا يحمل تلك الأجرة فإن شارون يترك روحه على حافة النهر مئة عام.⁷

¹ انظر الماجدي، خزعل: المعتقدات الإغريقية. ص 158

² انظر هاملتون، أديث: الميثولوجيا. ترجمة حنا عبود. دمشق: دار الكتاب العرب. 1990. ص 52

³ انظر، غويربر، ه. أ.: أساطير الإغريق والرومان. ترجمة حسني فريز. عمان: دائرة الثقافة والفنون. 1976. ص 102

⁴ هاملتون، أديث: الميثولوجيا. ترجمة حنا عبود. ص 52

⁵ انظر، الماجدي، خزعل: المعتقدات الإغريقية. ص 63

⁶ انظر المرجع نفسه، ص 160

⁷ انظر، غويربر، ه. أ.: أساطير الإغريق والرومان. ص 103، وقصة الحضارة مج 2. ص 129

كان عند الإغريق قناعة تقول إن مصير الأرواح مرتبط بقيام الأحياء بأداء واجبات الطقوس المفروضة فوق جثة الميت فكانوا إذا حانت منية المتقدم بالسن " حرص الأحياء أشد الحرص على أن يجنبوا روحه كل ما يستطيعون أن يجنبوها من الآلام، فالجسم يجب أن يدفن أو يحرق وإلا فإن الروح تهيم قلقاً مضطربة حول العالم و تتأثر لنفسها من أبناء الشيخ المهملين، فقد تظهر مثلاً في صورة طيف، وتصيب النبات والإنسان بالأمراض والكوارث ¹ لذا كانوا يسترضونها بطقوس ومراسم يقصد بها إبعادها واثقاء شرها.

كان إحراق الموتى أكثر انتشاراً في عصر الأبطال من أمثال (أخيل) الذي جمع كوما عظيماً من الحطب ووضع فوق جثمان صديقه (باتروكلس) فحرقه مع أربعة من الخيل وكلبين واثني عشر طروادياً كان أخيل قد أسره ². كانوا يعتقدون بأن الدخان يحمل أرواح الموتى الخفيفة إلى الأعالي وينقلها إلى السماء ³. أما الدفن فقد كان أكثر انتشاراً في العصر الذهبي ⁴.

كانت جثة الميت تغسل بالماء، وتدهن بالعطور وتكلى بالأزهار وتلبس أحسن ما تستطيع الأسرة أن تبتاعه لها من الثياب، ثم توضع القطعة النقدية (أبولوس) بين أسنانه ليؤديها أجراً لخارون ثم توضع الجثة في تابوت من الفخار أو الخشب ⁵.

وكان أبناء الميت يزورون قبور أسلافهم في مواسم معينة ويقدمون لهم الطعام والشراب ⁶، فالأسر اليونانية البدائية كانت تعظم موتها تعظيماً يفوق تعظيمها أي إله من الآلهة.

أما عبادة الأبطال فكانت امتداداً لعبادة الموتى، ففي وسع الآلهة أن تهيب العظيم أو الشريف أو الرجل الجميل أو المرأة الجميلة الحياة الخالدة، فتجعله، أو تجعلها من بين الآلهة الصغرى ⁷.

¹ ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران، مج2. ص 129

² انظر غويرير، ه. أ.: أساطير الإغريق والرومان. ص 266

³ انظر الماجدي، خزعل: المعتقدات الإغريقية. عمان: دار الشروق. 2004، ص 348

⁴ ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران، مج2. ص 129

⁵ انظر المرجع نفسه ص 326، ص 327

⁶ انظر المرجع نفسه ص 130

⁷ انظر المرجع نفسه ص 326 وص 327

ومن معتقدات الإغريق أيضا أن " لكل روح كائنا خاصا مرافقا لها يسمونه (Genius ومعناه روح طيبة أو خبيثة تسيطر على الإنسان وتملي عليه كل أعماله منذ ولادته حتى يأتيه الأجل، وهذا الجينيس (الملاك أو الشيطان الحارس) طائر صغير يرف حول جسد الشخص في حياته وحول روحه " ¹

رابعاً: الموت عند الكنعانيين

كان الموت عند الكنعانيين استراحة للإنسان بعد حياة مليئة بالآلام، وهو في حالة الحياة الأئمة عقاباً، وكان الموت عندهم النهاية الأبدية للحياة ولا مجال لحياة في العالم الأسفل إلا ما تبقى عليه الروح من حال يرثى لها وهو ما يشابه العقائد العراقية. ²

وكان الفينيقيون يعتقدون في بقاء الروح، بعد موت الإنسان، في حياة ضيقة النطاق، لا حركة فيها ولا منعة، وإن ظلت الروح على اتصال وثيق بالجسم الذي فارقت، ومصيرها متوقف على مصيره ومن ثم فقد اهتم القوم كثيراً بالحفاظ على الجسد ³، و كانوا " يعتقدون أن الجسد لا تسكنه روح فحسب، وإنما يرون أن هناك "نفس" أي نفساً (مادية أو نباتية) وهناك "روح" وأن المتوفى لا يفقد لدى موته سوى الروح ويحتفظ في قبره بالقرب من جسده بنفسه (المادية أو النباتية) التي تحتاج لأن تأكل وتشرب وحتى لأن تنتزه أو تتأمل الطبيعة ⁴

وليس في الروايتين تضارب بل اختلاف في اشتغال الجسد على الروح فقط أو الروح والنفس وهما يتفقان في أن أحدهما تبقى إلى جانب الجسد في قبره، وربما جاء هذا المعتقد بتأثير من الحضارة الفرعونية المجاورة والتي تؤمن بنفس المعتقد كما مر سابقاً.

خامساً: الموت في الديانة اليهودية

اهتمت الديانة اليهودية في الحياة الدنيا اهتماماً تاماً، لأن الموت بالنسبة إليهم نهاية المطاف وهو عدم وفناء، وهو مصير الناس جميعاً فقيرهم وغنيهم، صغيرهم وكبيرهم، القديسين

¹ انظر الماجدي، خزعل: المعتقدات الإغريقية. ص 167

² الماجدي، خزعل: المعتقدات الكنعانية. ط 1. الأردن، عمان: دار الشروق. 2001. ص 263

³ الخطيب، محمد: الحضارة الفينيقية. ط 1. دمشق: دار علاء الدين. 2006 ص 136

⁴ انظر مازيل، جان: تاريخ الحضارة الفينيقية. ترجمة ربا الخشن. ط 1. سورية-اللاذقية: دار الحوار. 1998. ص 37

والعامّة البسطاء، حتى أن مصيرهم هذا يماثل مصير الحيوان (وحادثة واحدة لهم موت هذا كموت ذاك وقسمة واحدة للكل، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل يذهب كلاهما إلى مكان واحد، كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما)¹

بعد الموت تأتي الظلمة والنسيان، لا البعث والحساب والحياة الخالدة، فلم يكن في التوراة وجود لفكرة البعث والنشور في حياة أخرى أو لدار العقاب ودار الثواب، فقد كان اليهود يعتقدون أن الثواب والعقاب مقصوران على الحياة الدنيا فحسب، فيكون جزاء الأشرار المرض والتشرد وقصر العمر وفقد المال والموت العاجل وتسلب الأعداء²، وإن لم يكن العقاب عليهم أنفسهم فعلى أعقابهم وأخلافهم. وأما الأخيار والصالحون فجزاؤهم ثراء ومال وغنى وجاء وصحة، وهكذا ينعمون بنعم الحياة الدنيا.

ووفق عقيدتهم تطيل الأعمال الصالحة عمر الإنسان، بينما تقصر الأعمال الطالحة عمره³، فقد ورد في التوراة (مخافة الرب تزيد الأيام وسنو المنافقين تقصر)⁴، (أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك)⁵.

إن نظرة التوراة للموت والعالم الآخر انعكاس لنظرة أهل الرافدين، فعالم الموتى هو عالم سفلي تلقى فيه أرواح الموتى جميعهم الطيب منهم والخبيث ولا يستثنى منهم إلا المقربون إلى الله كموسى وإيليا⁶.

يسود شينئول أو الهاوية جو ثقيل راكد لا فرح فيه ولا نشوة، ولها أبواب تشبه بوابات العالم الأسفل في بابل⁷، (قلت أني في منتصف أيامي ذاهب إلى أبواب الهاوية، وقد حرمت بقية سني)⁸

¹ العهد القديم: سفر الجامعة، الاصحاح 16: 3 - 22

² انظر، سوسة، أحمد: مفصل العرب واليهود في التاريخ. ط5. العراق: منشورات وزارة الثقافة والإعلام. 1981. ص 423

³ انظر السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى. ص 298

⁴ العهد القديم: سفر الأمثال الاصحاح 10: 27

⁵ العهد القديم سفر الأمثال، الاصحاح 20 - 12

⁶ ديورانت، ول: قصة الحضارة. ج 2. ص 345

⁷ انظر، السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى. ص 300

⁸ العهد القديم: أشعيا، الاصحاح 138: 10

لقد مرت فكرة الموت والعالم الآخر في التوراة بثلاث مراحل، تميزت المرحلة الأولى بالسكوت المطبق عن عالم ما بعد الموت، وبالتلميح البعيد عن أسفل لا تعرف ماهيته ولا أحوال العيش فيه وقد انطلق هذا السكوت من مبدأ محاربة الديانة الآتونية التي تلعب فيه الحياة الآخرة دورا كبيرا.

أما في المرحلة الثانية فبدأت فكرة العالم الأسفل بالوضوح أكثر فأكثر لتأخذ شكلا قريبا من معتقدات السوريين والبابليين التي تسربت لدينهم، فقد كانت الديانة الموسوية التوحيدية الأولى تنسى مع زوال الجيل الأول، و في المرحلة الأخيرة أخذت فكرة الثواب والعقاب بالظهور بشكل غامض نتيجة لتأثر المسيبيين على يد نبوخذ نصر بالديانة الزرادشتية التي تؤكد على الحياة الآخرة تأكيدا مطلقا¹.

إن فكرة البعث لم تدر في خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض، ولعلمهم أخذوا شيئا منها عن المصريين² أيضا.

كان اليهود يعتقدون أن موطن الروح في الرأس وتبعاً فإن مخرجها عند الموت هو الأنف أو الفم في أثناء التنفس³، كما كانوا يعتقدون أن الروح بعد مفارقتها للجسد تحوم حوله وقتاً، لذلك كان أهل الميت يلبسون الثياب السوداء، ويعفرون وجوههم ويحلقون شعورهم ويطينون رؤوسهم بالرمال لينبهم الأمر على روح الميت المتحررة من جثمانه ويصرخون ليخيفوها فترحل. وما زال اليهود يغيرون أسماء مرضاهم إذا ما بلغت بهم العلة ليبعثوا الحيرة في الروح الشريرة⁴.

"ويمكن النظر للحداد في اليهودية على أنه تحرك تدريجي من العزلة والانفصال إلى العودة لإيقاع الحياة العادية، ويعتبر عدم الحداد في اليهودية دالا على الغلظة وقسوة الطباع وفي نفسه لا ينصح بالمبالغة بالحداد"⁵

¹ انظر، السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى. ص 303، 304

² انظر ديورانت، ول: قصة الحضارة ج 2، ص 345

³ العربي، محمد: موسوعة الأديان السماوية والوضعية (الديانة اليهودية). بيروت: دار الفكر اللبناني، ص 4

⁴ المرجع نفسه. ص 5

⁵ المرجع نفسه. ص 282

سادسا: الموت في الديانة المسيحية

العقيدة المسيحية وتعاليمها أكثر وضوحا وتحديدا فيما يتعلق بمواضيع الموت والبعث والخلود واليوم الآخر من اليهودية التي لم تؤمن بداية بفكرة العقاب والثواب، وهي بالتالي تغيير مجدد للديانة اليهودية متممة لها من الناحية العقائدية.

وللموت في المسيحية معان عدة: هناك الموت الطبيعي الذي يعني نهاية الحياة العضوية، والمسيحية بهذا المعنى تشارك الأديان السابقة لها ولا تختلف فيه عنها، أما المعنى الآخر له فهو الموت الروحي الذي يعبر عنه وضع الإنسانية خارج الإيمان المسيحي، فالنفس الضالة والخطئة هي نفس ميتة، وعندما تدخل الإيمان المسيحي فإنما تحيا من جديد، والاستسلام للخطيئة هو الموت بعينه والموت في هذه الحالة موت معنوي، وهناك الموت الصوفي انتصارا على الموت العضوي، وما البعث إلا مرحلة أخرى في هذا الموت الصوفي الذي هو في الوقت ذاته حياة خالدة.¹

وقد ارتبط البعث والقيامة بقيامة المسيح، فقيامة المسيح الصخرة التي يستند إليها المسيحي في نظرته إلى الموت، فهو سيقوم بقيامة المسيح، وهي أكبر برهان ورد على منكري بعث الموتى². وقد قال السيد المسيح: "أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا وكل من كان حيا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد"³، أي لن يسود عليه الموت الثاني الذي هو الطرح في بحيرة النار.

ويرى الفلاسفة المسيحيون المتأخرون بأن الموت لا يؤدي إلى العدم بل إلى الوجود الحق، وبالتالي فالبعث حياة جديدة لا تقوم من العدم، وقالوا أن المقصود بالبعث هو قيام الحياة الثانية الخالدة، أي بدء يوم الدينونة⁴.

¹ انظر، شورون، جاك: الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1978. ص 101

² انظر، المرجع نفسه، ص 101

³ انجيل يوحنا 11: 25-26

⁴ انظر، العودات، حسين: الموت في الديانات الشرقية. دمشق: الأهالي. 1995، ص 112، 111

تتقدم يوم الدينونة والمجيء الثاني للمسيح علامات في الشمس والقمر وسائر الخليقة، حتى إن العالم جميعه يتغير إلى سماء جيدة وأرض جديدة "ولوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لايعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء، وقوات السماء تتزعزع وحينئذ تظهر علاقة ابن الإنسان في السماء، وحينئذ بقوة ومجد كثير فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت، فيجتمعون مختاريه من الأربع الرياح، من أقصاء السماوات إلى أقصائها"¹، وفي هذا الخصوص تتفق الديانة المسيحية مع الدين الإسلامي فقد قال تعالى: "يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ^ط وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ"²

يبحث الموتى في يوم الدينونة، فتفتح القبور ويقف القديس والخاطيء أمام الرب ويحاكم³. فيجلس المسيح بعد أن ارتفع إلى السماء إلى يمين الأب استعدادا لاستقبال الناس يوم الحشر ليدينهم على ما فعلوه في حياتهم الدنيا⁴، تجري المحاكمة بالاشتراك مع الملائكة، فيميز الأشرار من الأخيار فيجعل الديان الأخيار عن يمينه" تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم "ويجعل الأشرار عن يساره "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته"⁵، ثم تنتشر الصحف أو سجلات الأعمال، ويحاسب كل شخص وفقها على كل صغيرة وكبيرة.

وفي مجد فردوس النعيم وغبطة الصديقين ينعتق الجسد من التعب والهموم الشاقة ومن الأوجاع والفساد، وترتاح النفس مع مداومة عمليتها الروحية المناسبة لجوهره، ولا يكون الجسد محلا ضيقا بمثابة حبس للنفس، كما هو في الدنيا بل يكون مستقرا جميلا طاهرا للروح.

"إن الموت للمسيحي هو آخر القتال وأول السلم، نهاية التعب وبدء المكافأة لذلك لا محل للأحزان المفرطة لدى موت الأقرباء والأصحاب فالبكاء المتزايد غير ممدوح والحزن الفائق على كل تعزية ممنوع. لأن المسيحي الذي يصدق الكتاب المقدس لا يجوز له أن يبكي على

¹ متى 24/29-31

² سورة إبراهيم آية 48

³ انظر، شورون، جاك: الموت في الفكر الغربي. ص 27

⁴ انظر الخطيب، أحمد محمد: مقارنة الأديان. ص 329

⁵ انجيل متى 25: 31-46

الرافد بالرب لأن من مات بالتوبة وتناول الأسرار الإلهية بإيمان خلص من مرارة هذه الحياة منتقلا إلى حياة أفضل وسيحظى بالسعادة التامة بعد القيامة العامة¹

إن العقيدة المسيحية تلتقي مع الدين الإسلامي في عدة أمور في موضوع الموت، وهذا دليل على أن الدين الإسلامي جاء ناسخا للديانات السماوية لا ناسفا لها.

سابعا: الموت في الإسلام

إن حياة الإنسان في الإسلام مدة امتحان على هذه الأرض محددة بأجل ينقضي بالموت لكل إنسان حال انتهاء أجله، قال تعالى: " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ² " وقال: " الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ³ "

فالله سبحانه لم يخلق الإنسان للفناء بل خلقه للديمومة الأبدية، وليس الموت فناء طالما أن النفس والروح باقيتان تعودان لخالقهما قال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي⁴ "، وليست العودة إلى الله سبحانه فناء بل هي انتقال مرحلي من حياة إلى حياة أخرى، وهذا الفاصل بين الحياتين أخفي عن الإنسان وبقي علمه موقوفا على الله سبحانه.

والموت يجري على الخلق مرة واحدة كقوله تعالى: "لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ⁵ " لأنه بعد البعث فلا موت وإنما حياة أبدية، لا موت إلا موتة الدنيا وهي الموتة الأولى والأخيرة.

وهو أمر محتتم على كل إنسان كقوله تعالى: " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ⁶ "، ولكنه يكون بأجل كقوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا⁷ ".

¹ اللوحي، نيقولا حنا واللوحي، جانيت اندريه: السلم إلى السماء، ص 81

² سورة المؤمنون آية 115

³ سورة الملك آية 2

⁴ سورة الفجر 27-30

⁵ سورة الدخان آية 56

⁶ سورة آل عمران آية 185

⁷ سورة آل عمران آية 145

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن تختلف الأسباب التي يموت بها الإنسان وهي أسباب لا حصر لها، واختلاف طرق الموت هي في المؤمن كما هي في الكافر، وكما هي في الطائع هي في العاصي¹.

بين الموت الذي تنتهي به الحياة الأولى، وبين البعث الذي تبتدئ فيه الحياة الثانية فترة جاءت تسميتها في القرآن الكريم ب(البرزخ) أي الفترة بين الحياة المادية الأولى والحياة المادية الثانية قال تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ" كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ"².

والميت إذا وضع في قبره ردت إليه روحه، ثم يرسل الله عليه ملكين أسودين أزرقين مفزعين، يقال لأحدهما منكر ويقال للآخر نكير، فيسألانه الأسئلة الآتية: من ربك؟ ما دينك؟ ما هذا الرجل الذي بعث فيكم (أي سيدنا محمد)³؟، أما المؤمن فيعرض عليه مقعده من الجنة وذلك تطميناً لقلبه ونعيمه له، ويفسح له مد نظره، وأما الكافر فيضرب بمطارق من حديد يصيح منها صيحة يسمعه من يليه غير الثقلين، ويعرض عليه مقعده من النار⁴.

إذن لا بد للإنسان أن يجتاز مرحلة البرزخ للوصول إلى يوم الحساب قال تعالى: "يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"⁵.

يوم الحساب أو يوم القيامة في تسمية أخرى من التسميات الكثيرة له، هو الزمن المحدد في علم الله لإنهاء نظامه، وهو اليوم يقوم فيه الناس من القبور الحساب على أعمالهم. قال تعالى: "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ"⁶.

¹ انظر، الصوفي، ماهر، أحمد: موسوعة الآخرة الموت وعالم البرزخ. ط10. بيروت-صيدا: المكتبة العصرية. 2004. ص 35

² سورة المؤمنين الآيات 99-100

³ انظر الخطيب، محمد أحمد: أصول العقيدة الإسلامية ومذاهبها. ط1. عمان: دار المسيرة. 2011. ص 353، 354

⁴ انظر المرجع نفسه. ص 353، 354

⁵ سورة الزلزلة آية 6-8

⁶ سورة طه آية 15

وقد أخفى الله تعالى زمن الساعة ووقتها عن الناس كلهم، بما فيهم الرسل والأنبياء،
فليس لأحد من سبيل إلى معرفة ما بقي من عمر الدنيا.

في ذلك اليوم تبيض وجوه وتسود وجوه عند استلامها كتبها بيمينها أو بشمالها. كل فعل
يقوم به الإنسان خيرا أم شرا سيسأل عنه ويجازى عليه، قال تعالى: " فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " ¹.

يؤتى بجهنم من المحل الذي خلقها الله فيه فتدار بأرض المحشر حتى لا يبقى للجنة
طريق إلا الطريق المستقيم، فينطلق الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين إلى الجنة فيتبعون فيمر بهم
على الصراط.

وقد وصف الصراط المضروب فوق جهنم بأنه أدق من الشعر وأحد من السيف، وذلك
راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله لخفاقتها
وغموضها. ²

وفي القرآن الكريم الجنة جنات بحسب الأعمال ومراتب المؤمنين والمؤمنات، وهم فيها
خالدون لا يذوقون الموت ووقاهم عذاب الجحيم. وهي سبع في الإسلام: جنة عدن، جنة المأوى،
وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، وجنة الوراثة، وجنة المتقين. ³

اتفقت الديانات السماوية والوضعية في الخطوط العريضة لفكرة الموت، ولكنها اختلفت
في بعض التفاصيل الدقيقة والمهمة، ويلمح القارئ من خلالها اهتمام الفكر الإنساني به على مر
العصور وانشغاله إما في تفسيره وإما في الاستعداد.

وقد اطلع سميح القاسم على ثقافة العديد من الحضارات والأمم وتأثر ببعضها حتى
هضمها وأخرجها بصورة مختلفة خاصة به في متن نصوصه الشعرية.

¹ الزلزلة أية 7، 8

² انظر الخطيب، محمد أحمد: أصول العقيدة الإسلامية ومذاهبها، ص 289

³ انظر، الحفني، عبد المنعم: موسوعة القرآن العظيم. ص 1652، ص 1660

الفصل الأول

فلسفة الموت

المبحث الأول

الموت يثمر

في ظل التجربة التي عاشها سميح القاسم - تجربة الهزائم و الإخفاقات المتوالية في الوطن العربي، شكل الموت الثيمة الرئيسية في شعره عبر مسيرته الشعرية الطويلة، وهو عنده لا يعني الاستسلام والانهزام، بل تحمل المسؤولية، إنه الموت حين يتجدد ويبعث على الحياة. وقد قال في ذلك " تحويل الموت إلى حياة، تحويل النار إلى سنابل، تحويل صرخة المعركة إلى صرخة ولادة: هذه هي مهمتنا وهذا هو أسلوب حياتنا " ¹ وقد كان موت الإنسان الفلسطيني هو شغله الشاغل والمستحوز على تفكيره دون أي موت سواه، فقال: " أود أن أفق قليلا مع الموت. كان بودي أن أتعامل مع الموت الشامل، الموت العام والعالمي، لكن يا للحسرة، فهذا هو ينتصب كالمراد ويلقي ظله على كل موت سواه.. إنه الموت الفلسطيني " ²، وفي محاولة فاشلة منه لتعريف هذا الموت وتوضيح ماهيته يقول: " تكاد تقصم ظهري محاولة مثابرة، لصياغة معادلة معقولة لهذا الموت الفريد. ولا أقترّب من التبرير حتى أتبدد بين الضحك والبكاء " ³

استخدم سميح القاسم لفظة (الموت) باشتقاقاتها المختلفة، 1770 في 36 ديوانا، هذا عدا عن استخدامه للمفردات العديدة المرادفة للموت أو الموحية به مثل (قتل، صرع، ذبح، ردى، منون، هلاك، شهيد، جثة، صلب، احتراق، قصف، أنشودة)، وكانت النسبة الأعلى لحضور هذه اللفظة (الموت) في الدواوين الأولى المجموعة في (الأعمال الكاملة) والتي صدرت ما بين عام 1958 وعام 1988، وقد رافقت هذه الدواوين أحداثا سياسية كثيرة ومهمة كان لها أثر بين نفس الشاعر وفي شعره، فمن الأوضاع المتردية التي ولدت الهموم الوجدانية التي تمحورت حول التحسر والألم لاحتلال الأرض، وما نتج عنه من تشريد وإقصاء وتغييب كلي لخصائص الهوية الفلسطينية، إلى انطلاق الإنسان العربي بعد سنوات الخمول الطويل والاتكالية ورغبته في محاربة كل الطواغيت ومطالبة الشمس وتحقيق المستحيلات، إلى انفجار الصراع في لبنان والنكسة التي أصابت كل عربي يؤمن بانتمائه القومي، وفلسطيني يتمسك بتراب وطنه، وانطلاق الثورة الفلسطينية بقيادة فتح كردة فعل لهذه النكسة، ثم أحداث أيلول الأسود في الأردن، وفي تل

¹ القاسم، سميح: رماد الورد دخان الأغنية. حيفا: مكتبة كل شيء. 1990. ص 74

² المصدر نفسه. ص 74

³ المصدر نفسه. ص 74

الزعر والشيخ، وعين الرمانة في لبنان، وفي الضفة الغربية، وقطاع غزة وفي الجليل والمثلث في يوم الأرض، كل هذه الأحداث كانت سببا قويا ورئيسا في كثافة لفظ (الموت) في شعر سميح القاسم بمختلف صورته ودلالاته في هذه الفترة الزمنية.

لم يغب دال (الموت) في شعره بعد ذلك لكنه فتر حتى ظهر بقوة في ديوانيه (سأخرج من صورتني ذات يوم) وسريية (عجائب قانا الجديدة)، وقد اتخذ في ديوانيه الآخرين (كولاج 2) و(كولاج 3) منحى آخر في دلالاته وهو الموت الشخصي.

كما ارتبط اسم الكثير من مجموعاته الشعرية بالموت: "إلهي، إلهي، لماذا قتلتني؟" و"قرآن الموت والياسمين" و"وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم"، و"الموت الكبير" و"أحبك كما يشتهي الموت" وهي من الدواوين الأولى للشاعر، كما ارتبط أيضا اسم ثلاثين قصيدة له بالموت منها: "إليك هناك حيث تموت"، "حتى الموت"، "الموت يشتهي فتيا"، "الموت مع سبق الإصرار"، "الخروج على صهوة الموت"، "توجوا الموت ليقتلوه في أعالي الظهيرة"، "الموت قبل موعد المباراة".

بينما يشتمل أسماء البعض الآخر على ألفاظ مرادفة للموت مثل: "قتلي محض باطل"، "رحيل الفرسان"، "مصارع الرجال"، "دم الشهيد رسالة نبوية"، وقد خلت أسماء عناوين بعض القصائد من لفظة الموت أو إحدى مرادفاته إلا أن القصيدة نفسها تشتمل على فكرة الموت بشكل أو بآخر مثل قصيدة "س. أ. 8"، وقصيدة "شخص غير مرغوب فيه" و"القصيدة المفخخة".

ولكثرة الموت في فلسطين وانتشاره في كل مكان حتى إنه قد طال شرائح مختلفة في الوطن من الجنين في رحم أمه إلى الشيخ الكبير، ومن المقاومين إلى سائقي سيارات الأجرة، ومن الفراشة إلى الحجر، عمد سميح القاسم إلى إيجاد "معجم الشهداء" وهي قصيدة وسمها بما جاء تحت العنوان (باب جديد يلحق بمعجم الأدباء)، قد يرجع ذلك لأهمية هؤلاء الشهداء المساوية لأهمية الأدباء في تصوير أجمل الصور الخالدة على مر الزمن، وفيه رسم الشاعر صورة الشهداء الذين يمثلون تشكيلة المجتمع الفلسطيني على امتداد الوطن، حيث شكل قصيدته في مجموعة من اللوحات التشكيلية التي تسلط الأضواء على لقطات تبرز مناظر الشهداء على

مختلف أشكالهم وصورهم، وتبرز من خلالها بشاعة الاحتلال الصهيوني الذي لم يترك وسيلة من وسائل الحرب والدمار إلا مارسها ضد الشعب الفلسطيني¹، وقد رتب هذه اللوحات تحت اثني عشر حرفاً، ثلاثة من هذه الحروف اشتملت على لوحتين لا واحدة، وفي هذه القصيدة يبدأ عنوان المقطع الشعري بالحرف الذي ينضوي تحته على النحو الآتي:

(ب)

بنت تكتب الشعارات

جدرانك البيضاء

طلاؤك الأسود

فرشاتك الخضراء

ودمك الأحمر

غرامك الوحيد والأوحد

وراية جديدة

على المدى يظهر²

ولده شهيدا في أحد المخيمات ثم استشهد بعده، و"بيت مهدوم بأمر عسكري" و"تلميذة في الصف السابع الابتدائي" و"حجر مرت عليه جنازير دبابة"، "سائق تكسي"، ويكون بذلك قد سلط الضوء على شرائح بسيطة وضعيفة من الشعب الفلسطيني يستهدفها الاحتلال بممارساتها التعسفية باستمرار.

وقد جاءت (مراثي سميح القاسم) كلها مستندة على "الموروث الديني الشائع في الشرق والذي يدخل ضمن التكوين النفسي والاجتماعي للمواطن، فهو يستعير لغة القرآن والتوراة (بعهديها) راثيا..نادبا..مسبغا على مراثيه مسحة إنسانية نادرة تنتهب المشاعر باتجاهين الحزن

¹ انظر، أبو ججوح، خضر محمد: التشكيل الجمالي في شعر سميح القاسم. ط1. حيفا: مكتبة كل شيء. 2012. ص

132، 133

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. مج 1. الكويت: دار سعاد الصباح. 1993. ص 515

المر، والحزن المشوب بسخرية مريرة لا تقف عند التعالي على جراح الوطن والتشتت بما يحدث..ثم يلتقي الاتجاهان ليصبا في مصب واحد: التحريض نحو الفعل..وهذا ما يحدث في النهاية ¹، وقد قام بتقسيمها إلى مقاطع يبدأ بالمقطع (ب) فالمقطع (ل)، ثم المقطع (أ) و(د)..مخالفاً بذلك التقسيم الأبجدي المعروف، رثى فيها طفولته الحزينة و سلط الضوء على أبرز ما فيها، كما رثى الطريق المتشعبة بين التفاحة (العقل)والحجر (القوة)، ورثى نفسه، والجندي المجهول بالإضافة إلى رثاء الذين لم يموتوا بعد فهم " أحق بالرثاء عنده، لكنه لا يقف عند حدود رثائهم، بل يشخص لهم الطريق ²"

في هذه " المراثي رثى سميح لا شعبه بل نكبة شعبه.ورثى كما ترثي الأمهات أبناءهن الشباب ويتحول الرثاء والنواح إلى زفة عريس " ³

انضم سميح القاسم كغيره من شعراء المقاومة (محمود درويش وتوفيق زياد) إلى الحزب الشيوعي، ليكون ملجأً وحماية له، ومتنفساً للتعبير عن نضاله تجاه التعسف والعنصرية التي تمارسها السلطات الإسرائيلية، خاصة مع كونهم أقلية عربية فلسطينية داخل إسرائيل، فوجدوا أن الحزب الشيوعي يفسح المجال لهم ليعبر عن مواقفهم النضالية سواء شعراء، أو عن طريق التظاهر والإضراب، فكانوا يكتبون نتائجهم في صحيفة "الاتحاد" ومجلة "الجديد" التابعتين لهذا الحزب، ومن خلال هذا الانتساب أبرزوا قضيتهم قضية إنسانية عالمية عندما عبروا عنها بصدق ووعي. ⁴

اعتنق الشعراء اليساريون - ومنهم سميح القاسم - الفكر الماركسي اللينيني، الذي يسعى إلى التفكير الحر والتطلع إلى الحرية، وتعزيز القيم الإنسانية من حرية ومساواة، وأخوة، وعدالة اجتماعية وسلم وسعادة واتحاد، ولما كان القاسم ماركسي المنهج، فإنه يعتمد الاشتراكية العلمية في تحليلاته وتفسيراته لمجمل القضايا والأحداث والتصورات المتصلة بالإنسان، وهو في هذا يلتزم بالمنهج الواقعي الاشتراكي في رؤيته للعالم وهذا بطبيعة الحال ينعكس جلياً في شعره، هذا

¹ الصكر، حاتم: مراثي سميح القاسم. ط1. بيروت: دار الآداب. 1978. ص I

² المصدر نفسه. ص IV

³ توما، إميل: بعد المراثي تأتي نبوءة سميح القاسم. سميح القاسم من الغضب الثوري إلى النبوءة الشعرية. تحرير أنطوان شلحت. عكا: الأسوار. ص 24

⁴ زيدان، رقية: أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني. ط1. حيفا: دار الهدى م. ض. 2009. ص 50- 63

المنهج الذي يهدف إلى تغليب عامل الخير والثقة بالإنسان وقدرته. وإن واقعته وإن كانت تتخذ مضمونها من حياة عامة الشعب ومشاكله بإشارتها إلى التناقضات الأساسية التي تحكم حياته إلا أن روحها متفائلة، تؤمن بإيجابية الإنسان وتدفعه إلى الوقوف في وجه السلبيات ومحاربتها من أجل الوصول إلى عالم أفضل مليء بالخير، وأن يضحى في سبيله بكل شيء في غير يأس ولا تشاؤم ولا مرارة مسرفة¹.

ومن هنا جاءت إيجابية القاسم في حديثه عن الموت. فالموت في فلسفته ولادة ضرورية لحياة جديدة أكثر عدلاً وسعادة، وهو نهاية طبيعية لفعل المقاومة وبداية مرجوة لبعث الشعب في وجه الطغيان كما سيأتي في الفصل الثاني.

"وبما أن الموت فعل كوني تتجاوب فيه الشعوب كلها رأسياً وأفقياً فهو محور شعري، بما بين الموت والشعر من وشائج وصلة دقيقة تجعلهما قريبين من الفطرة الإنسانية التي ترصد الحياة في أبعادها المختلفة مدركة أصالة الموت في كل جزئياتها وبخاصة الموهبة الشعرية"²

وانطلاقاً من ذلك استطاع القاسم أن يجعل من قوة التعبير الشعرية، وسيلة فاعلة في تنبيه النفوس إلى ما هي رازحة فيه، وتوعيتها بواقعها ومصيرها.

كما واجه نفسه ومجتمعه بضمير واحد، لأنه يحس أن مشكلاته لا تتفصل عن مشكلات الناس، بل ربما كانت بالنسبة إليه هي محور مشكلاته، وهذا ما يوضح لنا استخدامه لضمير المتكلم في كثير من القصائد التي تحدث فيها عن الموت تحت قبة المقاومة وبعيدا عن الموت الشخصي في بداية حياته، ومن هنا يظهر كأديب ملتزم يشارك الناس في هموم حياتها. وهو موقف يدل على وعي الشاعر بأن له رسالة في الحياة ملقاة على عاتقه يفنى في سبيل أن تحيا، وأن عمله الشعري جزء فاعل في بنية هذه الحياة، فقد أدرك أنه يملك سلاحاً من أخطر الأسلحة، وهو الكلمة الشاعرة وبالتالي تيقن من أن مسؤولية المقاومة بالكلمة جنباً إلى جنب السلاح من رسالته كشاعر، يقول:

¹ انظر، مندور، محمد: الأدب ومذاهبه. مصر: نهضة مصر. ص 105

² محمود، عبد الرحمن عبد السلام: فلسفة الموت والميلاد دراسة في شعر السياب. أبو ظبي: المجمع الثقافي. 2003.

روح الشهيد على كفيه يحملها وإنني حامل روعي، على قلبي !!¹

كما أنه سيطل أولئك الذين آثروا الصمت من الشعراء، ووقفوا يتغنون بأمجاد الماضي،
فيقول في قصيدة (العواصف):

الموت،

للصوت المكبل،

بين آلاف المعارف²

وهو يرى أن شيئاً من الموت في بلاده كاف لإشعال نار القصيدة لديه، لذلك يظل مترقباً
موته نتيجة لقصائده الثورية، والتي كانت قد تسببت في اعتقاله باستمرار، فالشعر صناعة صعبة
قد تؤدي بصاحبها إلى الموت، ولكنه لا يحفل بذلك بل يزيده إصراراً، فهو مؤمن بأن مصيره
بدء المصير للشعب، يقول:

وشيء من الموت يكفي لإشعال نار

القصيدة

وقراءة الكف تعلن أن رحيلي قريب.

وأجمع ظلي

بلا وجع. وأرتب فوضى جنوني

الأخير³

ويلخص رؤيته الشعرية ومفادها أن على عاتقه رسالة عليه أن يؤديها وإن كان موته
السبيل إلى إيصالها:

وها أنذا راحل بالرساله

¹ القاسم، سميح: بغداد وقصائد أخرى. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2008. ص 81

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 1. ص 571

³ القاسم، سميح: الكتب السبعة. ط 1. لبنان-بيروت: دار الجديد 1994. ص 114

إلى ما تشاء وما لا تشاء السلاله

أموت إذا كان لي أن أموت

لتحيا رسالة عشقي..¹

ولو كان سبيل إيصال الرسالة الموت، فهو يتمناه، فيقول:

يا ليت موتي رسولي

ويا ليت بعثي الخبر²

فالشعراء شهداء القصائد لا يخيفهم الموت، ولا يبدلون مواقفهم رهبة منه، لذلك يرى أن قدره رائع، فجنته آنذاك ستكون أجمل الأغنيات التي تحيا بين الناس فتحبيهم، يقول في (سربية الصحراء):

شهداء القصائد

لا يبرحون أقاليمهم

إذن،

جنتي أجمل الأغنيات !

وما بين موتي وموتي

بلاد بلا آخر

أبد شاسع

إذن،

رائع قدرتي رائع !³

¹ القاسم، سميح: ملك أتلانتس وسرديات أخرى. ط1. الدار العربية للعلوم. 2005. ص 122

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة: مج 4. ص 48

³ المصدر نفسه. مج4. ص 214، 215

ومهما يحاول الاحتلال تضيق الخناق على هؤلاء الشعراء ومحاربتهم في لقمة عيشهم، فسيفقون صامدين مؤمنين بعدالة قضيتهم، لأنهم ضاقوا ذرعا بممارساته التعسفية الدموية، لذلك يتحدى الشاعر المحتل الإسرائيلي بأن يزيد في تعذيبه، حتى ولو اضطر إلى قتله، وهو يعلن موقفه صريحا، أنه قربان لكلمة حق في وجه محتل جائر، فيقول في قصيدة (قربان):

يا سيدي ! فاضرب وثر واقطع علي طريق لقمة
حسبي من الزاد الصمود ومن جنى الايمان نعمه
يا سيدي !! أنا لن أجوع وبني من الاحقاد تخمه
فاشحذ مدالك على جراحي .. إنني قربان كلمه !! ¹

وقد بقي هذا نهج سميح القاسم إلى نهاية حياته، فكانت قصائده مفخخة يحرص المحتل الإسرائيلي على أن يمنعها، باغتيال الشاعر وإسكاته، يقول في (القصيدة المفخخة):

لن يسمع القناص أغنيتي..

ولن يرضى بغير فمي ملاذا للرصاصه ²

وفي قصائده الشعرية يوضح منهجه في الكتابة عن الموت، فهو إن كتب عن موت الشعب فذلك حبا للحياة لأنه يوقن أن الموت هو الطريق إلى الحياة الحرة الكريمة، كما أنه يرحب بموت الجسم ويرفض موت القيم، يقول:

أبوح بالموت. حبا بالحياة. فهل تسخو الحياة بموت الجسم، لا بموت القيم؟³
القيم؟³

وأن الموت صنو الحياة مكمل لها، يضيف عليها سحرا وقيمة مما يجعل الإنسان يتعلق بها أكثر، وهو "ليس شيئا خارجيا دخيلا على الحياة، وإنما هو معانق لها متداخل معها ممتزج بها" ⁴ يقول سميح في كولا ج 2:

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج.1. ص 90

² المصدر نفسه. ص 159

³ القاسم، سميح: بغداد وقصائد أخرى. ص 80

⁴ إبراهيم، زكريا: مشكلة الإنسان. ط1. مكتبة مصر. ص 119

حياتي صديقة موتي

وليس لموتي صديق سواها

فكيف تراني؟

وكيف أراها؟

ولا وقت فيها لوقتي

لان حياتي صديقة موتي..¹

فالإنسان الذي طالما تمرد على الموت، كثيرا ما ينسى أو يتناسى أن الموت هو الذي يعطي لحياته معنى لأنه يشعره بأن اللحظات الموجودة بين يديه محدودة وأن الزمان الذي يتمتع به موقوت، وإلا فهل كانت الحياة لتعني شيئا لو أنها مستمرة إلى مالا نهاية؟ فالموت هو الذي يضع للحياة خاتمة حتى تكتمل، إنه اللمسة الأخيرة التي يصبح بعدها العمل الفني موضوعا جماليا متحققا.²، يقول سميح مخاطبا الموت في كولاج 2:

ولأنت ذاكرة الزمان وأنت ذاكرة المكان

وجه الحياة. وبدؤها. لكن روحي ما رأتك

ولا تراك ولا تريد ولا تحاول أن تراك أن تراك

وبغير سحرك لا حياة ولا حراك³

فقد رأى الفلاسفة المسلمون أن الإنسان ما لم يدخل في هذا العالم، لا يمكن له أن يموت وبذلك تكون حياته سببا لموته، وموته سببا لحياته الباقية، فالبقاء الأبدي لا يتيسر إلا بعد حصول الموت.⁴

¹ القاسم، سميح: كولاج 2. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2009. ص 158

² انظر، إبراهيم، سميح: مشكلة الحياة. ط1. مكتبة مصر. 1971. 31

³ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 123

⁴ انظر جهامي، جبرار: موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب. ط1. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون. 1998. ص 861.

وثمة تشابه عجيب بين الحياة والموت يدركه الشاعر، وطالما حرصت الشعوب على إبرازه: وهو أن الإنسان يولد بمفرده ويموت بمفرده كما أن الإنسان لا يولد إلا مرة واحدة ولا يموت إلا مرة واحدة، بينما يمكنه أن يعيش لنفسه كما يعيش لآخرين، يتأثر بمن مضوا ويؤثر بمن يأتون، يقول سميح في قصيدة " بغض النظر":

أقول لكم نحن عشنا لنا

وعشنا لمن حولنا

ومن قبلنا

ومن بعدنا

ونجهل في أرض تموت. ولكننا وحدنا

نموت على غفلة وحدنا

ونبعث في غفلة وحدنا.

ولا بأس. لا بأس تمضي الحياة

وتمض على رسلها بعدنا.¹

الموت والولادة ظاهرتان فريدتان لا بد للإنسان أن يعيشهما لحسابه الخاص دون أن يكون في وسع أحد أن يعانيهما بدلا منه، وبين لحظة الميلاد ولحظة الوفاة تبدو الحياة أشبه ما تكون بطريق لا بد من أن يقطعه الإنسان ويشاركه في قطعه آخرون،² وهو يرى أن الحياة مستمرة بعد مماته، ولا مشكلة في ذلك بالنسبة له فهو يؤمن بحتمية الموت وغموض مكانه، يقول القاسم:

وللموت حق الحياة

فمن ورد الأرض عنها صدر

¹ القاسم، سميح: بغض النظر وقصائد أخرى. منشورات إضاءات. 2012. ص 87

² انظر، إبراهيم، زكريا: مشكلة الإنسان. ص32

ويبقى أثر¹

"النهاية إذا في حالة الموت هي كانهاء النمو والنضج بالنسبة إلى الثمار، ونحن في هذه الحالة لا نقول عن النضج إنه جاء دفعة واحدة وفي اللحظة الأخيرة التي تم فيها النضج، وكأنه شيء منفصل قد ألصق للثمرة أو كأنه خاتم ختمت، وإنما النضج فعل مستمر ابتداءً منذ ميلاد الثمرة واستمر يساير حياتها لحظة بعد لحظة حتى أتت نهايتها، وهي تمام النضج. ومثل هذا أيضا يقال عن الموت، فهو موجود متطور منذ بداية الحياة، وهو مقارن للحياة لا ينفصل عنها أنى وجدت"²، يقول القاسم في سرية (الفامبير) متشربا هذه الفلسفة:

في سر هذا الحر سر النضج. فأكهة الحياة تقول شهوتها
الجديدة

موسم يأتي ويرحل موسم. لا بأس. تلك طبيعة الأشياء
من أزل.

وتلف طبيعتي الأولى. يكون الحر فاتحة لموت ناضج ملء
الحياة.³

إن "استمرار الحياة هو في صميمه انقضاء للزمان، وانقضاء الزمان معناه السير الوئيد نحو الموت أو الانحدار السريع نحو هاوية العدم، ولعل هذا ما حدا ببعض المفكرين إلى القول إن الحياة إنما هي الموت نفسه، لأن الإنسان يشترع في الموت مجرد ما يولد وهذه الفترة المحدودة التي يحياها إنما هي الفترة التي تستغرقها عملية وفاته"⁴، وإذن كل من يعيش الحياة لابد له من رحيل، ولكن سيبقى له فيها أثر، يقول في قصيدة (بغض النظر):

كل حي يموت

تاركا للحياة بضعة. نطفة. شحنة. في بقايا الرفات

¹ القاسم، سميح: سرية عجائب قانا الجديدة. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2006. ص 60

² بدوي، عبد الرحمن: الموت والعبقريّة. القاهرة: مكتبة النهضة. 1945. ص 19

³ القاسم، سميح: بغض النظر. ص 93

⁴ إبراهيم، زكريا: مشكلة الإنسان. ص 112

كل حي يموت

وتدوم الحياة

في تفاصيل أحيائها¹

أن هذا الأثر مهما صغر أو كبر هو من سيدفع بعجلة الحياة للأمام، قد يكون نقطة تحمل اسمه وتخلده أبا عن جد، أو قد يشكل جزءاً من بقايا رفاته امتداد نبات جديد، أو عمل يحسب به عمره، فلمسيح القاسم طريقته الخاصة في حساب العمر، فهو يرفض الطريقة التقليدية، التي تقوم على حساب مجموع الأيام التي يعيشها الإنسان من لحظة ميلاده إلى لحظة موته، ويرى أن عمر الإنسان يطول ويقصر بما فيه عمل مفيد يزين هذه الحياة، فهو يقول في قصيدة (مرثاة من برج الثور) وهي المرثاة التي رثى فيها أصدقاءه من الشعراء، وفيها يؤكد على أعمارهم الطويلة وخلودهم بعد الموت بما قدموه:

واعذروا لي ازدرائي حساب الحياة

بتقويم رزنامة

خطأ. خطأ. ليس هذا حساب المصير

كل عمر يطول بما فيه من ثمر،

وبلا ثمر.. كل عمر قصير!²

تأتي لفظة (ازدرائي) وتكرار كلمة (خطأ) لتؤكد رفض الشاعر التام للحياة الفارغة، وأهمية أن تكون هذه الحياة حافلة بالإنجازات والعمل والإبداع، وهو بذلك يتفق مع "مونتاني" بأن قيمة الحياة ليست في امتدادها وإنما في استخدامها، فليس عدد السنين هو الذي يقرر ما إذا كنت قد عشت بما فيه الكفاية³، فالروح المبدعة لا تنتهي بزوال الجسد بل تبقى خالدة بعده، يقول الشاعر في نفس القصيدة:

¹ القاسم، سميح: بغض النظر. ص 58

² القاسم، سميح: غوانتاتمو وقصائد أخرى. منشورات إضاءات. 2012. ص 70

³ شورون، جاك، الموت في الفكر الغربي. ترجمة كامل يوسف حسين. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

http://www.al-mostafa.info/data/arabic/gap.php?file=aalam/Issue-076.pdf .1978

إخوتي..أيها الحالمون

حضرة الروح لا تنتهي بغياب الجسد.¹

فموت الإنسان عند القاسم لا يعني غيابه، فالجسد يموت ولكن يبقى الفكر حيا ينبض
يفتح أبوابا لم يوصدها موت الشاعر، وكم من الفنانين من اشتهر بعد مماته، وضمن هذه الفلسفة
رحب الشاعر بالموت، بقوله:

يموت حضوري..ليحيا غيابي

وأوصد بابي..لأفتح بابي

يكون إذا..ما يكون²

وفي مثل ذلك يقول:

أنا بعض أعجوبة السالامون

وضعت بيوضي، جميع بيوضي

على أول النبع، فليقبل الموت

أهلا وسهلا³

يصور الشاعر نفسه بسمك السالامون القوي العجيب الذي يعمل جاهدا للعودة من
المحيطات إلى منابع الأنهار حيث مسقط رأسه متحديا تيارات الأنهار العنيفة والشلالات معتمدا
على بوصلة طبيعية تدفعها تجاه الوطن الأم، للتكاثر بأعداد كبيرة جدا تعوض فناء الكثير منها
في رحلة العودة أو بعد التكاثر وانتهاء دورة حياتها، هذه الأعداد الكبيرة من البيض والتي
توضع في أول النبع تضمن استمرارية جنس أسماك السالامون بعد موتها⁴، هذه الاستمرارية
بعد الموت هي ما رمى إليها القاسم عند توظيفه لسمك السالامون.

¹ القاسم، سميح: غوانتاتمو وقصائد أخرى. ص 70

² القاسم، سميح: هواجس لطقوس الأحفاد. ط1. . بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2012. ص 26

³ القاسم، سميح: كولاج 3. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2012. ص 42

⁴ رحلة السالامون العجيبة 10/14، <https://www.youtube.com/watch?v=riW0PU7UL18>

وهو يدرك أن الموت لا يفرق بين غني وفقير، قوي وضعيف، صغير وكبير، الكل سواسية أمام الموت وهي حقيقة غير قابلة للتغيير، وفي هذا يقول في قصيدة (هواجس لطقوس الأحفاد):

نظل سواسية في الحياة وفي الموت.نبقى

سواسية في القدر

وما من مفر

سوى أن نعيش بأحفادنا ونموت بأحفادنا

ليعيشوا بنا ويعيشوا بنا ورثة من حجر¹

وهو بهذا متأثر بقوله تعالى: " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ "²، كما يشير الشاعر إلى أن الإنسان لا يستطيع الهرب من الموت كما قال تعالى: " أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ "³، ويؤكد من جديد أن الإنسان باستطاعته أن يعيش عمرا إضافيا بأبنائه وأحفاده فهم امتداده في حياته ومماته.

وهو يؤمن بأن البقاء والخلود لله وحده خالق هذا الوجود، فيقول في(سربية الوضوح):

في الذي خلق الكون سر البقاء

وهو باق إلى ما يشاء..ولا ما نشاء⁴

تمضي أيام العمر بسرعة وكأنها ثانية، يفاجئ الإنسان انقضاؤها، وانطفاء الحركة الدائبة التي كانت تملؤها، يقول في (نهاية الفامبير):

تتعاقب الأيام.عمر العمر ثانية تفاجئنا

وينطفئ هذا اللهب..⁵

¹ القاسم، سميح: هواجس لطقوس الأحفاد. ص 32، 33

² سورة آل عمران، آية 185

³ سورة النساء، آية 78

⁴ القاسم، سميح: بغض النظر. ص 58

⁵ القاسم، سميح: بغض النظر وقصائد أخرى. ص 96

لذلك يعتقد الشاعر أن الحياة والموت ما هما إلا شأن صغير على عظمتها، خاصة عند أصحاب المآسي:

كم أخرجوا ميعاد القبل

حين ابتكروا انشغالك الفاجع

بهذا الشأن الصغير

الحياة أو الموت!¹

تنتهي الحياة بجمالها وطولها وكأنها ما كانت كدخان السجائر سرعان ما يتلاشى، إنما الحكمة في الموت الدائم، يقول القاسم:

في فناجين قهوتنا

نكهة حاملة

تنتهي في دخان سجائرنا الواهمه

إنما،

في توايبتنا..حكمة دائمه!²

إن للموت حكمة وغاية تكتمل مع حكمة الحياة الفانية في اختبار الإنسان وامتحانه في حياة أخرى باقية³، قال تعالى: "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ" ⁴.

إن "حياتنا نفسها إن هي إلا دفن مستمر لأجزاء من ماضينا وشخصياتنا وتجاربنا وحالاتنا النفسية"⁵ ومن هذه الرؤية، يلخص سميح حكمة الموت في دورة حياة الورد الجميلة،

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 36

² القاسم، سميح: كولاج 3. ص 27

³ عبد الخالق، أحمد محمد: قلق الموت. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1987، ص 14، <http://www.al-mostafa.info/data/arabic/gap.php?file=aalam/Issue-111.pdf>

⁴ سورة الملك، آية 1-2

⁵ إبراهيم، زكريا: مشكلة الإنسان. ص 112

تعيش حياتها بكل جمالها وهي تدرك منذ البداية أن مصيرها الذبول، فكأنها عاشت ما عاشت في دائرة الموت ورحابه كوردة، يقول القاسم:

في الموت حكمة وردة

حفظت طلاسما وعاشت

في رحاب الموت، ورده ¹!

ولكن الموت في بعض الأحيان يكون خلاصا لبعض المرضى من آلامهم وعذابهم:

يا موت. أنت خلاص من هرمت رؤاهم

في الأسرة والدخان ²

ولبعض اليائسين:

وتطلبه الروح في نكسة الروح، ³

ولكن الأوضاع السلبية التي يعيش فيها القاسم جعلت من الموت الكريه أمرا إيجابيا ومرغوبا فيه، يشكر على قدومه، وهذا يدل على تردي الأوضاع التي يعيشها القاسم في بلاده المحتلة، وبالتالي يرى موته الشخصي قرص الدواء الذي سيخلصه من رؤية حثالة شعبه و بائعي القضية، وحينها سيشكره على ذلك طويلا وكثيرا، يقول:

سأشكر موتي إذا كان قرص دواء

يخلصني من زكام جراثيمكم..يا

حثالات شعبي

وأعداء حبي

وألغام دربي..

¹ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 14

² المصدر نفسه. ص 122، 123

³ القاسم، سميح: غوانتانامو وقصائد أخرى. ص 44

سأشكر موتى، طويلا

وشكرا جزىلا !¹

وفي هذه اللحظات اليايسة يرى القاسم في مثل هؤلاء أنهم أحياء أموات لسلبيتهم وعدم جدواهم، وهم السبب في جعل حياته ميتة دون حياة، هذا التناقض يصدم المتلقي فيؤثر فيه، يقول (في القصيدة المفخخة) مخاطبا هؤلاء الموتى:

يا أيها الموتى بلا موت

تعبت من الحياة بلا حياة.²

ولا يقتصر مصير الفلسطيني على القتل لمرة واحدة بل يتعدى ذلك باستغلاله وانتحال شخصيته للمتاجرة بها، في عملية تشبه القتل المتكرر للشاعر وأهله، يقول:

قتلوني مرة

وانتحلوا وجهي مرارا³

مما أدى إلى المساهمة في سوء الأوضاع وتراجعها، وشعور الشاعر بالقتل البطيء المجزأ:

أعيش بالدين

وبالتقسيت،

أموت يا مولاي

ومن ثقبوب الناي

ألفظ أنفاسي،

وللقصائد التحنيط⁴

¹ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 31

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ، ص 139

³ المصدر نفسه. مج1، ص 543

⁴ المصدر نفسه، ص 522

أثرت الأحداث السياسية التي عاصرها الشاعر في نفسيته مثلما أثرت في الإنسان الفلسطيني، وكأي شاعر وطني ملتزم منتم إلى وطنه وشعبه وعروبتة، يحس بأوجاعها ويتألم لمصائبها، تعامل معها تعاملًا واقعيًا في شعره، فنجدها حاضرة بقوة فيه، وما بين انهزام وانكسار وانتصار ضعيف ومقاومة عنيفة، عاش حالة من القلق بشأن مصير شعبه، وبات يتخبط في حوار مع الموت في مد وجزر، تارة يطلبه ويستعجله وتارة أخرى يرفضه ويقاومه وكل ذلك مرهون بالأحداث المواقبة وتأثيرها في نفس الشاعر، فهاهو يطلب موته عندما أحس بحالة من العجز والخذلان فيقول في قصيدة (أنادي موتي):

اغفري لي غلطة البركان..لو ناديت موتي

طال صلبي..

وعلى جرعة سم

ينهب الأعداء لحمي

والأحباء..تقاطعي وصوتي !!¹

ثم يستجمع قواه التي استمدتها من حركات المقاومة الفلسطينية، وبات يغني باسم كل المقاومين، يهدد ويتوعد المتطاولين على شعبه بالمقاومة والبقاء، لأن موته باطل لا صحة له، فقد جرد من نفسه إلها خارقا له وحده المشيئة والإرادة باختيار زمن الموت فلم يحن وقته بعد فهو مشغول بالمقاومة والقتال، فيقول في قصيد (قتلي محض باطل):

طمئنوا كل مطاول

أن قتلي محض باطل

فأنا باق

إلى ما شئت..

أحيا وأقاتل !²

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج.1. ص 306

² المصدر نفسه. ص 391

ويؤكد هذه المشيئة من جديد في قصيدة (رمضان كريم)، حيث يؤكد استحالة موت
الفلسطيني حتى يرى شمس الحرية من جديد، وإن طال الانتظار بسقوط ضحايا وميلاد
مقاومين، يقول سميح:

وموتي مستحيل

أنا أعلنت المشيئة

وستأتين على سرّة مولود وأهداب قتيل

وستأتين، لأنّي شئت أن تأتي

وأعلنت المشيئة

أيتها الشمس البطيئة!¹

وهو يتحدى كل من يشكك به وبقدرته بأن باستطاعته أن يقتل الموت فهو إله يتحدى كل
من يهم بقتله، يقول في قصيدة (أتحدى):

واقتلوني..أتحدى

أقتل الموت،

وأتىكم إلها يتحدى !!²

وكأله يستحق أن يسبح موته وانبعاثه، فيقول في (القصيدة المفخخة):

سبحان موتي وانبعاثي

في زغاريد الولادة

في الأناشيد المراثي³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص262

² المصدر نفسه. مج1. ص 532

³ المصدر نفسه. مج3. ص 160

يؤمن القاسم بألا خيار للفلسطيني سوى الموت طلبا للحرية، فهو يراه ويسمعه في أثناء ارتقائه سلم الحرية، فيقول في قصيدة (هبني قدرة الشهداء):

لأني موقن ألا مفر من الردى العالي

لأني ناهض من ساعة الصفر

على درج الردى العالي

سلاما يا أبي المفجوع¹

يرى الشاعر في نفسه- باعتباره فلسطينيا- القدرة والجرأة على مواجهة الموت الحتمي في أثناء المقاومة، في الوقت الذي سيحرص على امتلاكها - الجرأة- لرفض التصنع والمواقف المقنعة:

أمتلك الجرأة على الثورة الدائمة وولوج الموت

سأمتلك الجرأة ذات يوم

على رفض زهور البلاستيك والشعر المستعار²

وفي استراحة المحارب يذكر الشاعر نفسه في قصيدة (بطاقة تذكير) بواجبه تجاه وطنه وشعبه فالحب وحده ليس كافيا، وبالرغم من إدراكه أن الموت يترصد به في صفوف المقاومة إلا أنه يدرك أيضا أن ذلك ليس ثمنا كافيا لقبر في أرض هذا الوطن، يقول الشاعر:

وأنا أعلم أن الموت بالمرصاد،

في عطفة درب !

ليس حسبي

أنني أعلنت حبي

وأنا أعلم أنني

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 47

² المصدر نفسه. مج2. ص 244

ما دفعت الثمن الكافي لقبر في الوطن !

لكني أغني..

نحن ما زلنا..وما زال الزمن ! ¹

لم يرجئ سميح الموت خوفاً، ولكنه الانتظار الذي يأمل أن يفتح أبواب الأمل في لحظات اليأس والعجز، ما زال الشاعر يؤكد على مشيئته في الموت فهو يقدم ويؤخر في موعده، يقول:

لم أرجئ الموت

انتظاري

يفتح الأبواب.. ²

لن يفلح الأعداء في قتل الشاعر فبحرف الاستدراك (لكن) الذي هو عنوان لقصيدته، أوقف الشاعر فعل القتل لأن بينه وبين الموت مازال هناك دنيا وحياة يطمح الشاعر أن يعيشها بشكل طبيعي تحت شمس الحرية، يقول في قصيدة (ولكن):

-أتراهم نجحوا في قتلك الليلة يا ابني؟

-نجحوا جداً..ولكن،

لم تزل بيني وبين الموت، بعض الذكريات

والأغاني والمواعيد وبعض الرياح والشمس

وبعض الكتب الصادرة اليوم

وبعض الحفلات

لم تزل بيني وبين الموت

دنيا وحياة ! ³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج1. ص 405

² المصدر نفسه. ص 590

³ المصدر نفسه. مج2. ص 242

ولكن مع ذلك يرفض الشاعر الموت العاجز الفارغ من أي هدف، فهو لم يؤهل للموت العادي:

أيها الموت العادي..لست مؤهلا لك ¹

هو يستحق أن يموت في ساحة المعركة وعلى منصات المشانق، هكذا أراد الشاعر الفلسطيني لموته أن يكون ساميا نافعا فيه حياة لوطنه، عندها يطلبه ويرحب به بقوة، يقول سميح في قصيدة (إدراك):

لا تعدموني برفق

ولا تطيلوا الوقوف

على منصة شنقي

فلست سلطان عشق

يصيح:يا أرض رقي ²

والموت في فلسفة الشاعر لا يملؤه حزنا بل يملؤه بالقهر من ظلم الدهر:

موتك لا يملأني حزنا

موتك يملأني بالقهر

من ظلم الدهر ³

وفي خضم الأوضاع السياسية والموت المخيم في كنفها، يطل إلى جانبه قلق موته الشخصي برأسه كلما كبر بالعمر، حاله كحال الكهول الذين يهجسون بالعمر والزمن والموت، يقول سميح في قصيدة (يكفي):

عبرت الطقوس.جميع الطقوس

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج.4. ص 128

² المصدر نفسه. مج.1. ص 498

³ المصدر نفسه. مج.3. ص 103

تجرعت كل الكؤوس
وأدرك أنني كبرت. كبرت
ویرمقني صاحبی الموت
یرمقني في حنان وعطف
يصيح: " تريث قليلا !"
وأهمس: " يكفي ! " ¹

غدا الموت صديق الشاعر المخلص يحاوره ويستعجله مكتفيا بما عاش، بينما يتمنع الموت - وفي موقف غير طبيعي - ويطلب منه التمهّل في طلبه.
والشاعر المتعب يرغب في أن يكون موته مريحا حرا كما عاش، طليقا من كل قيود الذل والمهانة:

يشاؤك قلب التراب شهيدا
يشاؤك أهلك:بعيدا
وماذا تشاء سوى ضجعة الموت حرا طليقا
حزينا..أشد من الموت حزنا ²

ويأمل عندما يرحل أن تبقى الابتسامة على وجهه وألا تفارقه، يقول:

ويوم تغادر روحي فضائي، لشيء يسمونه الموت،
آمل، ألا تفارق وجهي ابتسامه ! ³

الموت ظاهرة غامضة مجهولة لا يرى إلا أثرها على الآخرين، ومن هنا عمد الشاعر إلى تنكير الموت بوصفه (شيء)، وبذلك قلل من شأنه خاصة بأمنيته باحتفاظه بابتسامته في تلك اللحظة وكأنه أمر سهل.

¹ القاسم، سميح: سأخرج من صورتي ذات يوم. ص 119

² القاسم، سميح: ملك أتلانتس وسرديات أخرى. ص 52

³ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 73

ثم لا يلبث أن يطفو الموت السياسي من جديد فيتلاشى سلام الشاعر مع صديقه الموت
ليقاومه من جديد على إثر الأحداث السياسية، فهو يقول في (سربية قانا الجديدة):

وأشهد أشهد. أني أقاوم موتي

أقاوم موت الشعوب

أقاوم موت الزهور وموتي

وموت الطيور وموتي

وموت الجمال وموتي

أقاوم موت الحياة

بميلاد قانا الجديد

ونار العقيدة

ونور القصيدة¹

يرفض الشاعر موت كل الأشياء الجميلة المسالمة، ويرفض موته معها كإنسان بشدة،
فقد قرن موته بجميع هذه العناصر، ويقاوم موتها ويتحداه بالاستمرارية بميلاد قانا المدمرة
وقصيدته التي تحمل رسالة عقيدته القوية.

وهو يرى أن الموت قد قدر على الشعب الفلسطيني أينما حل، فإن نجا من مجزرة فإنه
ملاق أخرى، وحينها لا يرتجي شيئاً إلا رحمة الله، يقول الشاعر:

أبي نسيبتنا القذائف

ولم تكتسحنا العواصف

وها نحن في هذه الزاوية

نموت ونحيا.. لمجزرة آتية

¹ القاسم، سميح: سربية عجائب قانا الجديدة. ص 71، 72

أبي نحن نحيا.. ونحن نموت، على رحمة الله الباقيه¹

وهو يعتذر ساخرا من الأصدقاء إن أخطأ الموت فلم يقتل، وكأنه حياته باتت خطيئة يحاسب عليها، وهذا ما يظهر بعنوان قصيدته (اعتذار للأصدقاء عن خطيئة الإطالة في الحياة!)، التي يقول فيها:

لم أمت يا أصدقائي، فاعذروني

قتلوني

إنما.. لم أقتل

أحبط الحاضر موتي

أمهلوني

ربما أنجح في المستقبل²

وقد خاطب الموت معترفا له بحقيقة شعوره وطبيعة علاقتهما معا في قصيدة (ق.ه. ر):

وشعوري نحوه

فأس إذا شاء

وإن شئت

شعوري.. زنبقه !³

في هذه القصيدة يبين الشاعر فلسفته مع الموت و طبيعة علاقتهما المتذبذبة، فهو يشترك معه في لعبة، تكثر فيها المناورة والمطاردة، ويرى الشاعر أنها انتهت لذلك يطلب من نده الموت أن تكشف الأوراق، وفي هذه اللحظة يصرح الشاعر بمشاعره المتقلبة له، ما بين الرفض (فأس) والقبول (زنبقه) ويوضح الشاعر طبيعة هذه اللعبة في (كولاج 2) حين يقول مخاطبا الموت:

¹ القاسم، سميح: سريية عجائب قانا الجديدة. ص 28، 29

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 3. ص 108

³ المصدر نفسه، ص 320، 321

ويطيب لي أن أزدريك فتقتفي أثري

تحاولني كثيرا. تستعيد غواية الأحياء بالموتى

وأعلن أنني لا أستعيدك

ستنال مني ذات موت قادم يا موت

أدرك ما تريد. ولا يريد العنفوان¹

ويمارس معه لعبة أخرى هي لعبة (تنس الطاولة) على أرض ملعب الصمت العربي،
تكون فيه الأعصاب مشدودة والعيون والأقدام والنبضات متحفزة لمعرفة المنتصر هل هو
الشاعر الفلسطيني أم المحترف الأزلي لهذه اللعبة لعبة الحياة والموت؟ يقول:

لعبة تنس الطاولة ابتدأت

خبز.فاكهة. دفتر أشعار، وشعوب ونساء

أرض الملعب من فخار الصمت

لعبة تنس الطاولة ابتدأت

اعصاب تتوفز

نبضات. أقدام. وعيون تتحفز

لا نعلم من ينتصر. أنا أم بطل اللعبة في كل زمان ومكان

المحترف الأزلي الأبدي..الموت²

يرى القاسم الموت ويصوره في عدة صور فتارة يبينه عرييدا مستشيطا نشيطا في طلب
الأرواح لا يمل، وتارة أخرى يصفه بالجبان كما جاء في قصيدة (ق.د.ر):

يا أيها الموت الجبان

أنا هنا

¹ القاسم، سميح: كولاج. ص 123

² القاسم، سميح: كولاج 2. ص 17، 18

قدر يحوم على مدار هباء

لك آخر الأسماء

واسمك واحد

وتعدد كيف اشتتت أسمائي¹

لذا يصرح باحتقاره وكراهيته له. فبينما يظل الموت يحث في طلب الشاعر الذي يؤمن بأنه سينال منه يوما ما في إحدى محاولات القتل الحثيثة، سيبقى سميح الفلسطيني صامدا ثابتا أمامها لأن هذا قدره، وفي محاولة منه لتفسير علاقتهما، أثار سميح أسئلة جدلية عميقة في محاوره مع الموت:

يا موت هل كنت من أجلنا أم ولدنا لأجلك

ويا موت.. نطفتنا أنت أم أننا بعض أهلك

ويا موت جرب نجاعتنا في الحياة قليلا. إذا أنت أمهلتنا سنكرس لاسمك كل الجوارح

ونكتب باسمك أحلى المدائح

تمهل لعل الحياة قليلا

لأجلك أرقى وأتقى وأجمل

تمهل.. تمهل²

بعد أن يتأمل الشاعر ماهية الموت قرر أن يعقد معه اتفاقا ووفاقا، بأن يمهل الناس قليلا من الوقت في الحياة، وحينها سيعملون على تكريس كل الجوارح له، بتقديم الهبات والقرايين والعمل الجاد للحياة الآخرة بعد الموت، فتصبح الحياة بالنسبة للموت أرقى وأجمل لأنهم سيعيشون له كما فعل الفراعنة من قبل.

وفي لحظة من لحظات التعب واليأس التي تصيب الشاعر بين فينة وأخرى، يتسامح الشاعر مع الموت ويزول كل الحقد الذي يضره له، بل يصل به الأمر إلى تمجيده حين يصبح

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 349

² القاسم، سميح: ملك أتلانتس وقصائد أخرى. ص 95

أكثر رحمة من الواقع وأقل بشاعة منه، يقول في قصيدة (توجوا الموت ليقتلوه في أعالي
الظهيرة):

لم أعد أضمر لك

أي حقد أيها الموت ! وكل المجد لك

هوذا الموت

ولم يبق لدى ذاكرتي

مقطع من أغنيه

لم تبلله دموع اللاجئين

ودماء العادين

هو ذا الموت

وما زال مداري مرهقا،¹

فيقرر الشاعر أن يتبع الموت بإرادته عند مجيئه، لا رغبة فيه، ولا رهبة منه، بل
محاولة منه للتأثير فيه، فيقول:

أحاول ألا أعيش فلا أستطيع

أحاول ألا أموت فلا أستطيع

إذا اشتري ما تبيع الحياة

ويا موت.يا موت. لا لن أبيع

ولن أرغبك

ولن أرهبك

وإن جئتنى سوف أمشي معك

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 26

ولن أردعك¹

وفي (القصيد العمانية) يوضح سميح أن الشهادة في سبيل الوطن والخلود في نعيم الجنة هي من أهم الأسباب التي قد تدفعه للرضا بالموت، يقول:

وأموت. لا للموت. لكن للرضا بحياة رغد. في رضا رضوان
من قسمة الشهداء أطلب قسمتي روحا يعاف نواصل القمصان²

تكتسب الأزهار عند سميح القاسم ضمن ظاهرة الموت صورة مخالفة للصورة النمطية المعهودة فهي مرتبطة بالموت والحزن على الراحلين، فيقول في قصيدة (رحلة السراييب الوحشية):

(في سالف الأزمان،

كان الورد مرسال الحبيب

لحبيبه..ولكل زهره

مغني تراك تحبني

غيران

يا حبي اذكريني !

في حاضر الأزمان،

صارت كلها..كل الورود

صيحاح حزن فوق تابوت

يغل فتى وفكره..³)

وإن كانت الأزهار في فلسفة الشاعر ذات دلالة سلبية حزينة، فالموت عنده مثمر كالأشجار المثمرة يقول:

¹ القاسم، سميح: بغض النظر وقصائد أخرى. ص 86، 87

² القاسم، سميح: بغداد. ص 78، 79

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 4. ص 77، 78

فاقطف ثمار الموت

يا ابن الموت

روحك

في تراب الموت أنضجت الأثمار¹

ففي موت الشهداء حياة الأحياء وهذه الحياة ثمر شهيد، كما هو الأمر بالنسبة للشهداء
فثمرهم يتمثل بأجرهم عند الله، وبذلك يكون الموت مثمرا للأحياء والأموات ثمرا يقيضه الله
للصابرين، يقول القاسم:

لأشجار موتي ثمار

يقيضها الله للصابرين

على شجر الوعد في جنة الخالدين..²

ولكن الشاعر يرى أن ثمار موته لم تتحقق في (حرب أكتوبر) ونتائجها غير المرضية
للفلسطينيين يقول في قصيدة (كيف أعطي ثمار موتي):

هيه يا طلع حسرتي وهواني

كيف أعطي ثمار موتي لأهلي

كيف أعطي

ولم أعمد جبيني وذراعي،

في لفحة الغفران !³

ويبين في قصيدة (الموت يثمر) أن موت البعض تشجيع للآخر بإكمال الثورة الحمراء
لرد كيد الاحتلال وظلمهم، ويؤكد على أن الموت والاستشهاد هو الطريق نحو الحرية، يقول:

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 147

² القاسم، سميح: كولاج 3. ص 46

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 264

الموت يثمر ثورة و سواعدا حمراء تشتهي في الظلام شهابا
شعبي يرد لقاتليه ديونهم ويرد من ماضي الثواب ثوابا
ويرد كيد الكائدين لنحرهم ويرد عني السادرين صوابا
عبد فديتك بالضحايا مطلعاً للشمس، وليكن الغزاة ضباباً¹

إن وضع الفلسطيني غريب يستعصي على استيعاب الإنسان، فالأزهار دلالة الحزن وصمت القبور، والموت لديه مثمر، كما أن الميت منهم يقضم تفاحة موته نشوان وهو يغني للحرية، في إشارة منه للاستخفاف بالموت الذي غدا متعة ينشدها ويحرص عليها في مقابل ما يواجهه من خيانات العالم وتخاذله في ما يخص قضيته، وهي دلالة عميقة تخلخل المتلقي وصولاً به إلى الفهم المطلوب، وقد تكون التفاحة رمزا لخروج آدم من الجنة والخلود استخدمه الشاعر بصورة معكوسة فتكون خروجاً له من عالم الظلم والعذاب دخولاً إلى عالم الموت حيث ينشد العدل والإنصاف، يقول الشاعر:

بهدوء وروية

أقذف حجري

في وجه الكرة الأرضية

وأغني

لعواصف سخطي في ليل البشريه

لا أستأذن احدا !

أقضم تفاحة موتي

وأغني وأغني

للحرية !²

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2 ص 370، 371

² المصدر نفسه. مج3. ص 322، 323

المبحث الثاني

السخرية في وجه الموت

حينما ينتشر الموت ويكثر ويصبح إيقافه مستحيلا. يفقد رهبته وينظر إليه باستخفاف كمحاولة لتبسيطه واعتياده أو حتى لاستنكاره، وقد قلل سميح القاسم من شأن الموت في قصائد عدة وبصور عديدة غيبت النظرة التقليدية للموت لتحل محلها نظرة تحقير واستخفاف ومن هذه الصور:

- الموت والسيرك

يرى القاسم أن حياة الفلسطيني هذه بمثابة سيرك، يحوي الكثير من المفارقات والفقرات التي تبدأ بابتكار المعجزات وتختتم بلعبة الموت، أما إخفاء أسباب الوفاة والصمت العربي فهو اللعبة الكبرى الساخرة في سيرك هذه الحياة المهزلة:

يا موت، آخر لعبة في السيرك أنت

وما الحياة؟

إن لم تكن سيركا. وأول لعبة فيه اجترار المعجزات

واللعبة الكبرى ضجيج الصمت

في إعلان أسباب الوفاة..¹

وقد كسر الصورة النمطية للجنائز فلم تعد موكب حزن وألم لفقد الميت بل غدت سيركا مضحكا تحول فيه الفقيد النبيل إلى مهرج والبكاء إلى ضحك:

ستضحك للموت. حين يصير الفقيد النبيل

بصورة بلياتشو.. وستضحك،

حين تصوير الجنائز سيركا..

وتضحك

¹ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 126، 127

وأنت تداوي بجرحك جرحك¹

وتتصاعد وتيرة التحدي والاستخفاف بالموت حين تعجبه شخصية المهرج المليئة بالمفارقات والتناقضات، فهو قادر على رسم البسمة على شفاه الآخرين ودفعهم إلى الأمل في الوقت الذي تمتلئ فيه نفسه هما و ألما، فيقرر أن يحترف مهنة كبير المهرجين في بلاط الموت، ليصل من خلالها إلى الموت ويقتله أثناء انشغاله برقصة الخذلان ويقتل نفسه معه، فيقول معترفا في (سر المهنة):

ها أنذا أبوح أمامك بسر مهنتي

كبير المهرجين في بلاط الموت

لكنني أخبئ في حزامي خنجرا ذهبيا

ومع القفزة الاخيرة

في رقصة الخذلان الضاحك

أغمد خنجري حتى المقبض

في صدر مولاي الموت.

ولن اتركه يموت وحيدا

سيتابع بعينه الليلكيتين

ولوج النصل الحار تحت حلمتي اليسرى²

- الموت مهنة

وما بين الضحك سخرية والبكاء ألما نتيجة ممارسات الاحتلال الإسرائيلي الذي فرض الموت على الشعب الفلسطيني، وجعل أسبابه في كل مكان من بلادهم، يحجم الشاعر قدرة الموت أمام قدرته ويمنحه وظيفة رسمية، يقول في (مصرع البجعة):

¹ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 110

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 487

وفجأة هبت علينا زوبعة

حطمت الزوارق الضعيفه

أغرقت الضعاف

وصحت: لن اخاف

فالموت منذ اليوم.. في وظيفه¹

وأصبح الموت في فلسفته مهنة تمتهن وهواية تمارس من القتلى، وتستغل من الضعفاء، والانتهازيين من تجار الكلام على السواء، يقول في قصيدة (وظيفة الموت):

ألقبور البللثها أدمعي من ألف عام

لم تزل في عرف مولاي الخليفة

باب رزق المقرئ الأعمى

وتجار الكلام...

فاقرع الأبواب يا موت،

سأعطيك وظيفة.²

وفي غرفة التحقيق يبين الشاعر الفلسطيني مهنته حين سئل عنها بأنه قاتل ساخط، وقاتل جميل في الوقت نفسه وهو شاعر مرهق هوايته الموت بين الضحك والبكاء وهذا ما يبرع به المهرج، يقول في (غرفة التحقيق):

- مهنتك اليوم؟

- قاتل ساخط منجم قاتل

نار مغن مرهق

وقاتل جميل

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2، ص 607

² . المصدر نفسه. مج1. ص 491

- هو أيتك؟

- الموت بين الضحك والبكاء.¹

ولهذه المهنة أهمية كبيرة، فهي قوس نصر القتل في اللحظات الصعبة ومنها ستتطلق روحه القادمة، يقول:

ولتكن مهنة الموت في اللحظة الحاسمة

قوس نصر القتل

ولتكن.. روحه القادمة !²

أما مهنة التأمين للموت (الحياد وعدم التدخل) فهي كئيبة تتعب الضمير الحر، ويمقتها الشاعر بعد أن لمس عجزها وأثرها السلبي، فقرر أن يوقف الرقص على القبور، ويستقيل منها والانضمام إلى كتائب النهار تعتمد الأفعال لا الأقوال، يقول في قصيدة (استقالة من شركة التأمين على الموت) وهي قصيدة عن الذين بدؤوا يفكرون بعد الخامس من حزيران:

يا سيداتي. آنساتي. سادتي !

أقدم استقالتني.

فمهنة التأمين للموت، غدت كئيبة

كئيبة.. تثقل أكتاف الضمير

فليكتب اسمي بعد هذا اليوم،

في قائمة الناس الغضاب،

من أوقفوا رقصتهم على القبور

من آمنوا بالشمس والانسان

واختاروا التراب!³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 200

² المصدر نفسه. ص 132

³ المصدر نفسه. مج1. ص 470 - 473

والاستقالة من مهنة التأمين على الموت تتطلب من الشاعر إعادة حقائبه الدبلوماسية، فلا تفاوض
بعد اليوم فقد حان وقت الفعل، يقول سميح في قصيدة (في 5 حزيران):

في الخامس،

من شهر حزيران الماضي

أرجعنا للموت حقائبه الدبلوماسية¹

- الموت راحة

كثرة الموت أسقطت عنه هالته ورهيبته في نفس الشاعر حتى غدا نزهة، يريح فيها
الثائر نفسه وجسده في زمن تكثر به العجائب:

ما الذي تفعله

ما دام حبسي

طرفة...

والموت..نزهة؟!²

كما انه يرى فيه إجازة من تعب الحياة المستمر، وهي صورة غير مألوفة، يقول:

أنا في إجازة

فلا تقربوني

ولا تلمسوني

أقر كما تشتهون بأن وفاتي مكافأة للضريح

الجميل³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج1. ص 474

² المصدر نفسه. ص 559

³ القاسم، سميح: الكتب السبعة. ص 72

وببالغ الشاعر في تهوين أمر الموت في مقابل الأحداث الصعبة التي يعيشها فيجد فيه الراحة لا كمنتزه فقط بل كبيت له:

صار الذي صار

يا أم حلمي القديم وداية موتي

وأعترف الآن، موتي..بيتي..¹

ولأنه شخص متفائل يرى أن كفنه بدلة سهرة، يقول:

أعترف بأني شخص متفائل

أبصر في الشوكة زهره

وأرى في كفني.. بدلة سهرة

وأشاهد في قتلي جيوشا وقبائل²

ويرى موته مهرجان:

موتي على زنديك،

مهرجان

تعقده الأشجار والمطارق³

- الموت والرقص

وقد ظهر أثر محبة سميح القاسم للرقص بأنواعه المختلفة (السامبا والتانغو والدبكة الشمالية والشعراوية والبدائية والكرادية) في رؤيته للموت فرقص على أنغامه، مما زاده تميزا وخصوصية، وبإمكان المتلقي أن يلمح ذلك جليا في عناوين بعض القصائد: (فالس للغارة الجوية) و (التانغو الأخير في بيروت) و(للموت رقصته).

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. ص 112

² القاسم، سميح: كولاج 3. ص 111

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 1. ص 485

فيعلن ممارسته لهواية الرقص في كل الحالات التي يعيشها وطنه، حياة حرة وموتاً كريماً، فيقول في (كولاج 3):

سأعيش على دينك

وأموت على دينك

يا وطني

وسأرقص حياً

وسأرقص ميتاً

وسأرقص حراً، حراً، حراً..

في كل ميادينك.¹

للشاعر موته الخاص بأسلوب خاص ينفرد به حتى وإن كان هذا الموت جماعياً في غارة حربية، ففي قصيدة (فالس للغارة الجوية) وعلى عكس الإنسان الطبيعي الذي تسيطر عليه مشاعر الخوف والرعب، عند سماع هدير الطائرات في الغارات الجوية، تسيطر على الشاعر مشاعر النشوة واستشعار الإيقاعات المنتظمة، فيطلب من شريكته في الرقص أن تشعل الضوء -على الرغم من عدم تفضيل ذلك حتى لا يستهدف المكان - وأن تفتح النافذة ليسهل سماع الحان (موزارت) في صوت هدير الطائرات، والرقص على أنغامها مستغلاً الدقيقة الأخيرة من حياته في هواية يحبها مع شخص يحبه، وليكمل مشهد الموت الراقص، يصور القذائف نجوماً تتساقط فتضيء سماءهما في عالم شاعري ساحر مختلق ومبتكر في خيال الشاعر، يحمل المتلقي إليه مبتعداً فيه عن العالم الحقيقي الذي يبرز فيه وفي الدقيقة ذاتها الوجه البشع للموت، يقول:

يا التي أعبدها في لحظة العمر

انهضي للفالس

أعطيني يدا ناعمة

¹ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 54

في لحظة الموت الرشيقه

أشعلي الضوء

هدير الطائرات

يسقط الآن نجوما

ويضيء الذكريات..¹

ويوضح الشاعر في (التانغو الأخير في بيروت) طبيعة شريكته في الرقص، فالشريك هو طرف مهم للأداء المتميز وتحقيق المتعة المنشودة، وشريكة القاسم في رقصة (التانغو) مميزة بابتسامتها و بموتها الناضج لا بعمرها، وقد اختارها من ضمن ثلاثين امرأة قتيلة ليرقص معها رقصته الأولى في مشهد الموت الراقص، وبذلك يكرم القاسم المرأة الضحية الشهيدة، يقول القاسم:

أشتهي أن أرقص الآن

اعزفوا لي

فارس التانغو يريد امرأه

في كومة القتلى ثلاثون امراه

ههنا وسيدة

ماتت قبيل البسمة المبتدئه².

على نقرات الدريكة يستمع الشاعر إلى نداء الموت في ليلة مقمرة:(إلي، إلي)، ويلبّي النداء حزينا جميلا ليرقص رقصة الموت بكل طقوسها فوق المقبرة، يقول في قصيدة (للموت رقصته):

ونقرة دريكة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج3. ص 314، 315

² المصدر نفسه. ص 293، 294

تتهدج في الليلة المقمره.

" سأتيك يا سيد الجسم والروح

آتيك بالملح والخبز والمغفره !"

أقبل أعناق أهلي النيام على ورد حزني

وأنسل منهم جميلا

لأرقص للموت رقصته المشتهاة

على مسرح المقبره..

و أرقص للموت

أرقص للموت

أرقص للمو.....¹

ينجح الشاعر في نقل المتلقي إلى طقوس رقصة الموت ومشاركته له هذه الرقصة بإيقاعها بتكراره (أرقص للموت)، الذي يتوقف فجأة عن الرقص وعن الحياة، ويظهر ذلك في (أرقص للمو....)، فعدم إكماله للفظة الموت يوحي بموته.

لا يكتفي سميح بان يكون راقصا ماهرا في مشهد الموت المتكرر، بل يتعدى ذلك ليكون مايسترو الموت، ويعزف لحنا قويا مجلجلا كقوة الموت في جنازة الشهداء الثلاثة، على مرأى من العالم لعله يوقظهم من صمتهم وسباتهم، فيقول القاسم في قصيدة (جناز في ثلاثاء الرماد):

أواصل عملي القديم قدم الجريمة

من عظام قتلاي أصنع أرغنا الكترونيا

على قمة جبل الجرمق

أركز أرغني العملاق

أرتدي بزة المايسترو

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج3. ص 122، 123

وأشهر أصابعي المتشنجة..¹

يبدأ الشاعر مشهده المتصاعد صورة وصوتا بارتدائه للبزة المايسترو القائد للفرقة، وتحضيره لآلته الموسيقية وهي الأرغن - وقد وظف هذه الآلة تحديدا لكثرة استخدامها في الكنائس وبالتالي يضيف على المشهد جوا شعائريا مقدسا - وركزه على جبل الجرمق أعلى جبال فلسطين، وبالتالي يضمن صوتا أعلى لأرض مجروحة، وقد أوحى (أصابعه المتشنجة) بحالته النفسية الثائرة رفضا وألما، ثم يبدأ العزف بأنغام قوية كالصواعق ويردفها بأخرى كالنيازك المتهالكة في آذان الحاضرين، لتتأتي بعد ذلك صواعق والده القديمة المدخرة فتضفي إيقاعات قوية أخرى لا تهدأ في جنازة الشهداء الثلاثة. هذه المقطوعة الشعرية ذات الصوت الموسيقي الصاخب استطاع الشاعر من خلالها إيصال احتجاجه ورفضه لعمليات القتل والاعتقال التي تتفاقم في فلسطين على مرأى ومسمع من العالم بأكمله.

إن رقصة الموت انتصار الشاعر للحياة، فإن كان له أن يعيش فليرقص مكابرة للاحتلال وليرقص ترحيبا بالموت الذي هو بداية جديدة لحياة جديدة أكثر عدلا وإنصافا، فليرقص ليكون لموته هوية خاصة به.

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 290، 291

المبحث الثالث

الموت والحب

ظل الحب هو القيمة المقدسة والعنصر المهم عند سميح القاسم، وظلت المرأة الأجل في الوجود وهو العاشق الأبدى لها، وقد قال فيما يخص علاقته بالنساء عندما سأله علاء حليحل في مقابلة أجريت معه: هل يمكن أن تكون شاعرًا حقيقيًا من دون أن تكون دون جوان؟

"بالنسبة لي لا يمكن. هناك ارتباط واضح قطعًا. العلاقة بالنساء والطبيعة والأنهار والبحيرات والجبال مثل السقر، وإلا فإنّ الحالة تكون غير إنسانية. الدون جوانية ليست خروجًا على الإنسانية. الخروج على الإنسانية هو قمع الجسد. لي قصيدة قديمة أقول فيها "أعينوا الجسد". لا تقمعوه. ولا أريد أن أستعمل مصطلح "دون جوان" لأنه لم يكن شخصية طبيعية بل كان مريضاً"¹.

وهناك صلة بين الحب والموت، فالحب ينسي الإنسان ما يعانيه من آلام وقلق والخوف من الموت، ويعتقد الدكتور عبد الرحمن بدوي أن الشعور بالحب يبلغ أقصى درجة من السعة في ساعة الموت، وأن الشعور بالزمان هو في الوقت نفسه شعور بالفناء، ذلك لأن الزمان جوهره الفناء، فإذا كان الشعور بالزمان يبلغ أوجه في الحب فمعنى هذا أن الشعور بالموت يبلغ أقصاه في الحب²

والحببية المرأة ظلت هي الحبيبة التي يشتهيها القاسم ويقابلها ويقبلها و يراقصها ويضاجعها ويمسح لها دموعها ساعة الفراق ويبكي بين يديها ساعة الحزن وتبادل الحب بحب أكبر³ وقد يقتله هذا الحب الكبير فيضفي الموت على حبها طعما آخر أكثر عمقا وجدية، وبذلك يظهر معنى آخر للموت في شعر سميح القاسم بلون وردي يختلف اختلافا كليا عما سبق من معانيه التي ظهرت في الحرب والمرض واليأس، إنه الموت حبا وعشقا، يقول سميح القاسم في قصيدة (أحبك كما يشتهي الموت!):

¹ سميح القاسم: أفنيت عمري في خدمة القصيدة، وقصيدتي أهم من الوطن!/ علاء حليحل
www.qadita.net/featured/sameeh-alqasem

² انظر، بدوي، عبد الرحمن: الموت والعبقريّة، ص 35

³ القاسم، نبيه: سميح القاسم مبدع لا يستأذن أحدا. ط1. دار الهدى للطباعة والنشر كريم. 2013. ص 100

لا تلمی

إِسْمَحْ لِي أَنْ أُحِبَّكَ،

كما يشتهي الموت..

أحبك.. كما يشتهي الموت !!¹

فحبها ليس مؤقتا ولا عرضيا، وإنما حالة فناء يحسده عليها الشعراء، وتتباهى بها هي إلى جانب قتلها الآخرين، يقول سميح في موضع آخر من هذه القصيدة:

ستشهد الجماهير طقوس موتی

ويحسدني المغامرون والشعراء أما أنت،

فتلقين جوهرة جديدة في صندوق شهادتك.²

لا الحزن ولا الظلم قد أفلحا في قتل الشاعر كالحب، فهو يقول في كولا ج 4:

لَمْ يَتَّقِنِ الْحَزْنَ قَتْلَى وَأَخْفَقَ الْجَبْرُ رُوتَ

لكنني على دون شك على يدك أموت³

ويعترف أن سر موته يكمن في جمال الحبيبة، يقول في قصيدة (جمالك قتال قتلى):

جمالک سرر حیاتى وموتى.. أينصف؟ كلا

ويحرمني طول عمر

وممن دون حكى كثير جمالك قتال قتلى !!⁴

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 493

² المصدر نفسه، ص 493

³ القاسم، سميح: **كولاج 4**. فلسطين: دار الرعاية للدراسات و النشر. 2014. ص 122

⁴ القاسم، سميح: **حزام الورد الناسف**. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2009. ص 94

ويؤكد على أنها قتالة قتلى لشدة فتنتها في قصيدة (مهلا يا صاحبة العصمة) باستخدامه صيغة المبالغة (قتالة) وتكراره لها (قتالة قتلى) ثلاث مرات، فيقول:

أعلم.. يا زنبقتي الأعلى

أعلم أنك لست سوى

قتالة قتلى

قتالة قتلى

قتالة قتلى..¹

هذه القتالة قد ذبحته بغرامها من الوريد إلى الوريد، فغرامها كالشر يسلبه روحه، فيقول في قصيدة (تعبت من الغرام):

تعبت من الغرام فلا تزيدي متاعبه على قلبي الشهيد

وكفي الشر عن جسدي فحسبي ذبحت من الوريد إلى الوريد

ولم يترك غرامك في روحا تعين على عذابات الصدود²

ولم تكف المحبوبة بجمالها سلاحا يقتل الشاعر، بل مازالت تمارس سحرها ودلالها مصحوبا بالتمنع والصدود ونقض العهود فتمعن في قتله، فيقول:

أمرهقتي بـوهم بعد وهم وقاتلتني بنقضك للعهود³

ويطلب منها أن تمهله قليلا قبل قتله بجمالها حتى يستمد منها الجمال والقوة والفتوة ليموت ويحيا من جديد، وحينها تستطيع أن تقتله مجددا كما تشتهي بهوء وتمهل، يقول:

أرجني قتلي قليلا

يا صبيه

أنذا أقرأ مخطوطة سحر عجريه

¹ القاسم، سميح: حزام الورد الناسف، ص 15

² المصدر نفسه، ص 43

³ المصدر نفسه، ص 44

عندما أفرغ منها

سوف آتيك فتيا

وجميلا وقويا

وسأرجوك: اقتليني

بهدهوء ورويه !¹

ويحذر من الجمال المصطنع الكاذب، الذي يعمل على إيقاع الرجل صريعا للهوى،
وشهيدا للغرام ولظنونه، وحينها لا يجد عذرا لنفسه على ذلك:

سقطت صريع الغرام بلاصقتين

من العدسات المثيرة والأوبييتكا العبقرية

لم أدر أنني

سقطت شهيد هواك على كومتين

من السيليكون اللطيف المخيف. اعذريني

سقطت صريع الهوى و الغوى والجنون

سقطت شهيد ظنوني

فلا تعذريني²

إن السعادة والحب الكبير الذي يعيشه الشاعر يثيران مشاعر القلق والخوف في قلبه
من فقد الحبيبة أساس هذه السعادة، فيدفعه خوفه إلى السهر حتى الصباح حيث يحمل معه الأمان
والاطمئنان والمزيد من السعادة، على عكس الليل الذي يوحى بالفقد والموت وظلمة القبر والعالم
الآخر، وعند استيقاظها يعترف لها بأنها سر عمره وبدونها لا حياة له أبدا، فيعبر عن ذلك في
قصيدته (خوف):

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 270

² القاسم، سميح: كولا ج 2. ص 71

أخاف يفاجئني الموت في النوم

لا لن أنام

سأسهر حتى الصباح الصديق

وأرصد دفء الغطاء عليك

وأنسل قطا أليفا

خفيفا على قمة العالم¹

ولكن الموت بمعناه الحقيقي يطل في شعره من جديد، فلكل ولادة موت، وإن كان قد عاش وقتل في الحب معنويا، فالموت بصورة السوداء يزحف إليه مجددا ليسرق حبيبته، لتغدو خائنة له بموتها بعد أن كانت قاتلته بحبها وبهذا نسب إليها إراة الموت في الحالتين حين قتلتته بحبها وحين رحلت عنه بجسدها وكأنها عشتار ربة الحب والحرب، يقول في قصيدة (رخام لموتك):

فمك الميت قال للموت صمتي

والحياة الجحيم ضجة قولي

أنت بالموت خنتني فتغربت

يتما في الأرض من دون أهل²

مكانة الحبيبة في قلبه لن تتغير بعد موتها، و ستبقى على ما كانت عليه في حياتها كما أنه سيبقى على حبه لها كما لو كانت حية، يقول:

أنت ما أنت. في حياة وموت

وأنا ما أنا، وبعدي كقبلي³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 489

² القاسم، سميح: سأخرج من صورتي ذات يوم. ص 36

³ المصدر نفسه، ص 35

ويبين الشاعر لحبيته حالته البائسة بعد موتها وشدة ألمه ومعاناته كما يخبرها أنه سيعيش كظل لذكرياته معها حزينا لا يجد من يواسيه فيما يعاني من فقدها:

وأرادت إرادة الحزن أن تمضي

وأبقى ظلا يعيش نظل

ماثلا مضمرا. أصبح بصمت

أخ. من لي في ما أكابد. من لي؟¹

جاءت الألفاظ (أصبح، أخ، أكابد) لتوحي بشدة ألم الشاعر ومعاناته لفراقها، كما أنه استخدم ضمير المخاطب ليبيّن عليها قصيدته، ليوحي بقرب الحبيبة من الشاعر على بعدها.

وقد فقدت الحياة أهميتها بالنسبة إليه فلم يعد يكثرث لشيء فيها، حتى أصبح لا فرق بين حياته وموته، يقول:

والفجاءات تدعيني. فسيان لديها

عمري المديد... وقتلي²

يقر الشاعر أخيرا في نهاية القصيدة بموت حبيبته الراقدة تحت الرخام، الذي يضفي لموت عشتار (الحبيبة) مجدا وقيمة يليق بكانتها في نفس الشاعر، يقول:

هكذا نحن. أنت تحت رخام

ورخام يمجّد الموت حولي

حيث مرت خطاك في الأرض أبني

من حنيني إليك "تاج محل"³

¹ القاسم، سميح: سأخرج من صورتي ذات يوم، ص 36

² القاسم، سميح: حزام الورد الناسف، ص 37

³ المصدر نفسه، ص 37

ولفرط حنينه يود أن يبني في كل مكان خطت عليه حبيبته "تاج محل " كما فعل شاه جهان لزوجته الحبيبة ممتاز محل بعد موتها ليخلد ذكراها ويبقيها حية لا في قلبه فقط بل في قلوب كل من عرف قصة حبهما.

"تصبح دلالة الموت أكثر اتساعا وسيطرة على التجربة الشعرية العربية حين تمتزج بالرمزي والأسطوري الذي يجسد الانتماء الأيدولوجي والنضال السياسي لتتغير دلالة الموت العدمية الهدامة إلى دلالة بناء وإعادة ولادة عبر أفعال الرفض والتمرد والثورة، فيصبح الموت الفردي ميلادا جماعيا، كما يجسده موت تموز بأنساقه الأسطورية المعروفة، ومن ثم كانت ظاهرة الشعراء النُموزيين في شعرنا الحديث متكئة على هذه الرؤية التي ترصد موقفها الأيدولوجي والسياسي معا وتحدد طرق الخلاص من الواقع المتردي معا " ¹، ولأن سميح القاسم ينتمي إلى هذه الطائفة من الشعراء واسعي المعارف، عديدي المناهل هذا إلى جانب كونه موحدا درزيا، فقد ارتكزت فلسفته في الموت على ثلاث ركائز أساسية هي: الأسطورة والتناص والتقصص آثرت الباحثة أن تسلط عليها الضوء كل منها على حدة.

¹ محمود، عبد الرحمن عبد السلام: فلسفة الموت والميلاد دراسة في شعر السياب. أبو ظبي: المجمع الثقافي. 2003.

المبحث الرابع

الموت و الأسطورة

الموت والأسطورة

"الأسطورة أقدم صيغة من صيغ الانفعال، والإدراك، وتأويل العالم، التي أنصفت بها المجتمعات البدائية والمجتمعات القديمة"¹. وهي مرآة تعكس بشكل أو بآخر الفكر الإنساني في مراحل تاريخية مبكرة، قبل أن ينتقل الإنسان إلى طور الحضارة والتمدن².

إن للأسطورة القدرة على ترجمة أحاسيس الماضي والحاضر على الرغم من أنها تنتمي إلى أشكال الحضارة القديمة وترجع إلى مرحلة سابقة على الفلسفة والعلم، وهي المرحلة التي يسود فيها التفكير التأملي.

ولما كان الأديب غير قادر على أن يواجه حقيقة الأشياء بطريقة مباشرة، كان عليه أن يبني لنفسه عالما من الصور والأشكال والرموز الأسطورية، وعن طريق الإدراك الحدسي يمكن أن يتصور العالم الأسطوري تصورا إبداعيا يقوم على توحيد الأضداد والتأليف بين هذه الأضداد في وحدة محكمة، كما أنه يستطيع أن يتصور الأسطورة تصورا جديدا بإعادة صياغتها في ضوء وجدانه وخياله وهنا يستحيل الرمز في الأسطورة إلى مدرك جمالي ينبض بالوجدان ويفيض بالخيال³.

والشاعر الفلسطيني تحديدا يوظف الأسطورة لتجسيد واقعه المأساوي وتقصي أبعاده ليقدم الصورة الشعرية من خلال مساحة أكثر اتساعا وعمقا، فهو يستخدمها لأنه يريد أن يتكلم من ورائها، وأن يعبر عن الواقع من خلالها وذلك لسببين أمني وفني: أما الأمني فهو خوفه من مطاردة السلطة له، وأما الفني فهو إعطاء النبض الشعري بعضا من الإيماءات والإشارات والدلالات ليسقطها على الواقع الفلسطيني، فيكون أكثر إشراقا وجاذبية⁴.

¹ م. ف. ألبديل: سحر الأساطير. ط1. ترجمة حسان ميخائيل اسحق. سورية-دمشق: منشورات دار العلاء. 2005، ص22

² انظر، زيدان، رقية: أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني. ط1. حيفا: دار الهدى م.ض. 2009. ص 289

³ انظر، م. ف. ألبديل: سحر الأساطير ص 3-7-8

⁴ انظر، زيدان، رقية: أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني. ص 289

وقد لجأ سميح القاسم إلى توظيف الأسطورة في تجربته الشعرية، بسبب ثرائها الدلالي، وليس لمجرد تحميل التجربة الشعرية بالأساطير مجارة للشعراء الذين وظفوا الأسطورة في أشعارهم، أو كونها حلية تزيينية تتعامل مع القشرة الخارجية للنسق الأسطوري.

كان تواصل القاسم مع الأسطورة تواصلاً "ينم عن دراية وخبرة بالمضامين الأسطورية التي تصلح لأن تكون معادلات موضوعية تشخيصية، تكشف عن جوانب التجربة الخاصة للشاعر وقومه، وحركة الصراع التي يعيشها" ¹

تميزت البيئة التي ولد فيها سميح وكبر بالانفتاح على العلم والثقافة والسعي للمزيد منها، وقد اطلع على مختلف المعتقدات الدينية، وأعمل فكره في المقارنة بينها، بالإضافة إلى استيعابه الفكر العربي والفلسفة اليونانية والهندية والفارسية وتوظيفه للعديد من الأساطير الفرعونية والبابلية والإغريقية، ولكنه لم يأخذ بهذه المعتقدات والأساطير من منطلق الإيمان بها. بل لتوظيفها في خدمة الإنسان الفلسطيني والقضية الفلسطينية دون أي تعقيدات تذكر، سوى الحاجة إلى مدلولات هذه الأساطير في بناء قصائده. وقد أسقط الشاعر "رموز الأساطير على الواقع الفلسطيني المعيش، لإظهار حركية الصراع، واستمرارية الأمل والرجاء في العمل الثوري" ²

وسوف تقتصر الباحثة في شعر سميح القاسم على الأساطير التي تتعلق بالموت وترمز له، فمن أشهر الأساطير الفرعونية التي وظفها سميح القاسم في هذا السياق أسطورة "أوزيريس" ³ إله البعث، حيث رمز به معنوياً للشعب الفلسطيني البسيط، فالاثنتان قتلا بمؤامرة وبعثا للحياة

¹ أبو جحجوح، خضر محمد: التشكيل الجمالي في شعر سميح القاسم. ط1. حيفا: مكتبة كل شيء. 2012. ص 146

² المصدر نفسه. ص 147

³ تروي الأسطورة أن أوزيريس حاكم صالح الذي نشر الثقافة بين الناس وعلمهم الزرع واحترام القانون وإكرام الآلهة، أحبه الناس فحقد عليه أخوه ست الذي طمع بالحكم والسلطة، وتآمر مع آخرين ليضعه داخل صندوق بالحيلة، ومن ثم ألقاه في النيل بعدما أحكم إغلاقه، جذت ايزيس زوجة أوزيريس في البحث عنه حتى وجدته داخل شجرة أرز في جيبيل وأعادته إلى مصر لتخفي الصندوق في مستنقعات شميم، ثم ولدت حوريس من زوجها الميت واستطاع ست من بعد ذلك أن يعثر على جسد أوزيريس من جديد وقطع جثته منتهازا غياب ايزيس إلى أربعة عشر قسماً وبعثرها في جميع مقاطعات مصر، وراحت ايزيس تواصل البحث من جديد عن جثة أوزيريس حتى عثرت على الأجزاء جميعاً ودفنت كل جزء في الموضع الذي عثرت عليه به، وصار أوزيريس ملكاً للموتى ثم اعتزل هذه المملكة فترة من الزمن ليهيئ ابنه حموريس للكفاح ضد ست، وانتصر الابن على عمه بعد صراع عنيف طويل استمر ثمانين سنة حيث صدر الحكم لصالحه وجلس على عرش أبيه بينما اضطرت ست للتنازل عن حقوقه المزعومة. باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات. ج2. ص95

من جديد لتستمر محاولات الاغتيال فتقطع أوصالهما وتنتثر في أماكن مختلفة، وعلى الرغم من ذلك لم تكن تلك نهايتهما فقد جمعت أشلاؤهما من كل مكان لتدب فيهما الحياة مرة أخرى بميلاد طفل خارق يعيد لهما حقهما السليب.

ففي قصيدة (قلعة الامبراطور)، يستحضر الشاعر مصرع أوزيريس بأسلوب النداء متحسرا ليوأجه به المحتل الترابي، فنتعمه وتجبره مرهون بوقت عودة أوزيريس. فيقول:

أيها الرب.. فكن ما شئت.. واحكم وتحكم !

كلمة الايمان في روما جريمه !

آه يا مصرع أوزيريس. في مصر القديمة !!¹

ويتعمق الشاعر في أسطورة أوزيريس حيث يعد رمزا للطبيعة ما دام قد عاش ومات وبعث كما تعيش وتموت وتبعث الطبيعة وكما يعيش الشعب في ظل الظلم والاستبداد فيموت وبعث ليقاوم من جديد في سبيل نيل الحرية وعودة الغياب وتحقيق التقدم والاستقرار ليتجلى بحلة جديدة، فيقول في قصيدة (أوزيريس الجديد):

أنا والسيول المستميتة..

مذ كانت الأمطار والأحزان والشمس الغنيدة

نحيا على جرف النفايات المقيته

ونعد للعنيدة الجديدة !

أنا والسيول المستميتة

في سفرة لا تنتهي.. حتى نعيد إلى الحقائق

حسنوها المنفي.. والجذر الترمد في الحقائق !

حتى يشب اللوز والزيتون والتفاح

في جرح الخنادق !

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 1. ص 115

ويرمم الانسان أنقاض المدارس والمصانع

وتفجر الالغام أنهارا..

وتخضر المزارع!¹

ويتجلى الشاعر في شخص أوزيريس الإله القادر في محاولة منه لرفض النهاية الأليمة التي يفرضها عليه الاحتلال الإسرائيلي من قتل وتشريد في جهات العالم المختلفة، فيقول:

أنا والسيول المستميته

يا زوجتي إيزيس.. آلهة مريده

لا ننتهي في مسلخ القرصان أشلاء شتيته !

ما كان منا أمس.. يا إيزيس.. أحلام شهيد

في الأرض نبعثها إذا..

دنيا منورة..جديده!!²

وإذا كان سميح قد استخدم الأسطورة بشكل عام وصريح في القصيدتين السابقتين، فقد استخدمها تلميحا لدعم عودة الغائب بعودة أوزيريس وإن شرد في كل العواصم، فعودته لا محالة ممكنة وإن كان ميتا، يقول القاسم في قصيدة (العائد):

عاد من كل العواصم

عاد محمولا على الأكتاف

من كل العواصم

وجهه المجبول من طمي بلادي

لم يزل يرشح ماء وبراعم

عاد في الفجر..وعادت معه كل المواسم³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج1. ص 197، 198

² المصدر نفسه، ص198

³ المصدر نفسه، ص 357

وقد دمج الشاعر بين حضور شخصيتي أوزيريس وابنه حوريس إله الشمس في هذه القصيدة فعودة أوزيريس الثانية كانت من خلال ابنه حوريس الذي قام بتدريبه لمواجهة ست فخر الابن عينه في هذه المواجهة لكنه استردها فيما بعد واسترد معها عرش والده، يقول في القصيدة نفسها:

وعلى جبهته جرح قديم

وعلى عينيه ضوء، صراط مستقيم

عاد.. فالباب يغني، والدوالي والحمائم:

سيدي أجمل قادم!¹

وقد عرف أوزيريس إله للموتى حيث يتولى محكمة الحساب بعد البعث² كما مر سابقا في التمهيد، ومن هنا وظفه القاسم في قصيدة (حوارية العار) أجرى فيها حوارا بين السلطان وهو المحتل والعبيد وهم الشعب المغلوب على أمره، والسادن و أوزيريس الفلسطيني الذي وظفه الشاعر كرمز للعدالة وصوت للحق ضد الظلم الاجتماعي والإنساني بحق الإنسان الفلسطيني في زمن شاعت فيه الخيانة والهزائم والانكسارات، يقول القاسم:

"أوزيريس":

مستنقعات الصمت للديدان.. فليقتع بصمته

من باع للشيطان جذوته، وخان عهود بيته

مستنقعات الصمت للديدان..

والقمم العسية

للشمس والبصر الجسور !

فتنهأي للقائنا.. يا واحة الله القصيه

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج1، ص 357

² انظر، مظهر، سليمان: قصة الديانات. ط2. القاهرة: مكتبة مدبولي. 1998. ص 41-43

نبتت برغم الريح..أجنحة النسور !

وقلوبنا عادت غنية !

وجذورنا ظلت قوية !

عدنا ! رجال الأرض ! ان شحت، وان كانت سخي¹ !

رسم الشاعر صورة بشعة لمن خان العهد ولاذ بالصمت، الديدان التي تعيش في المستنقعات الراكدة، وهي صورة منفرة تدفع للعمل ونبذ الصمت والسلبية وهو ما تدعمه الصورة التالية لها صورة القمم التي لا تسكنها إلا الشمس والبصر الطموح، ويوظف القاسم من هذه الأسطورة الفرعونية أيضا "حوريس" الابن المخلص رمز المقاومة المتجددة، المنبعث من الموت يقول في (قصيدة راب - 3):

أنذا حوريس

طفل الأسطورة سر السكينة ايزيس

والوهم الطالع من أشلاء الملك الراحل

أوزيريس²

ويقول في قصيدة (كيف أعطي ثمار موتي):

في ثوان ضئيلة..في ثوان

شق حوريس عتمة الماء والريح

وشج الثلوج بالنيران

رمضان الكريم..³

أسقط سميح الماضي على الحاضر فهاهو حوريس يتجدد ويقاثل في حرب العاشر من رمضان ويضرب المثل في المقاومة على مر العصور ولكنه في نهاية القصيدة يتقهقر فحورس

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج1. ص 180، 181

² القاسم، سميح: بغض النظر. ص 23

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 263، 264

في القرن العشرين لم يعتمد في يوم الغفران مما أضعف قواه ولم يثمر موته كما اعتدناه، وبهذا يعود سميح ليسقط الحاضر على الماضي وبالتالي يصنع حوريس الخاص به فيقول:

هيه ياطلع حسرتي وهواني

كيف أعطي ثمار موتي لأهلي

كيف أعطي

ولم أعمد جبيني وذراعي،

في لفحة الغفران !¹

وتعد أسطورة (جلجامش) من أشهر الأساطير البابلية التي وظفها سميح القاسم لبيان موقفه الفكري والفلسفي من الموت، فقد تناول في قصيدة (جلجامش) - التي كتبها في الرابع عشر من شهر أيار أي بعد ذكرى ميلاده الستين بثلاثة أيام - أسطورة جلجامش بشكل شبه تفصيلي وذلك يظهر من العنوان الذي أرفقه بعنوان تفصيلي (اللوحة الثالث عشر) متقصا فيه شخص جلجامش فيتوحد معه في التفكير في أسرار الحياة والموت ويسافر معه عبر الزمن للبحث عن سر الخلود، ليؤكد حتمية عودته وبعثه مع الفجر الذي يرمز للبعث والأياكل التي ترمز للخلود والأفاعي التي سرقت منه عشبة الخلود فباتت تتجدد حيواتها بخلعها لجلدها القديم سيعود ومعه سر الخلود:

سوف يعود من ترحاله

"جلجامش" المسحور بالأسرار،

والمسكون بالجنار،

فجرا ما يعود

بين الأياكل والأفاعي والأسود

في كفه قلب الحياة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 264

فجرا،

وبين ضلوعه سر الخلود،¹

ولكن نفس الشاعر متقلبة متناقضة فيما يخص الموت فإن اعتقد انه أدرك سر الخلود فإنه لا يدرك أسرار الموت، خاصة بعد كل ما تعرض له جلجامش من محاولات عدة لقتله من غواية عشتار وصراعه مع خمبابا وثور السماء وصديقه أنكيدو ولم تكن قد حانت ساعته ولم يكن يدرك حينها ما الموت وما كنهه وكذلك حال الشاعر الذي تعرض غير مرة للموت في حوادث عدة سترد في هذه الدراسة، يقول الشاعر:

ويعود من ترحاله العبثي،

لا "تنسون" تشفع

لا، ولا "عشتار" تقنع

ههنا أشلاء "خمبابا"،

وخلف السور.. مصروعا..

يفاجئ موته "ثور السماء "

ويعود

(موصدة أحاجي الموت

يا "جلجامش " المسكين. موصدة!)²

ويصبح الموت أمرا وشيكا ومصابا عظيما وعبرة للمرء عندما يخطف الأحبة والمقربين، فيرتعب جلجامش ويصاب برهبة الموت موت أنكيدو شريكه حيا ونقيضه ميتا:

جثمان "أنكيدو " المسجى

عبرة الأيام فيك

¹ القاسم، سميح: سأخرج من صورتي ذات يوم. ص 197

² المصدر نفسه. ص 198

أنت الشريك أم النقيض،

هو النقيض أم الشريك؟

مرآة روحك أنت يا جسدي

محطمة أمامك¹

يرفض جلجامش أن يدفنه استنكاراً وحزناً حتى خرجت الديدان من جثته فيصبح للموت مذاق أمر ووقع أعنف، و في التوازي مع أسطورة جلجامش يفقد الشاعر الأصدقاء والأحبة ويرى في موتهم موته وفي مآتمهم مآتمه، يقول الشاعر:

فادفنه يا "جلجامش" المسكون بالموتى

ولا تتركه للديدان تحت الشمس

يا جسدي

يا قلقي

ويا روحي وشمسي

في عرس "أنكيكو" ومآتمه رأيت

رأيت لوعة مآتمي وجنون عرسي

ورأيت نفسي

ورأيت زوبعة السؤال

تمتد من "أرز الشمال"²

يؤكد الشاعر بتوظيفه لهذه الأسطورة حتمية الموت وعبث البحث عن ترياق الحياة وعشبة الخلود لأن مصير كل مخلوق إلى الموت، وأجله محدود، فلم يدرأ الجزء الإلهي من جلجامش عنه الموت، فالآلهة جعلت مصير البشر الموت، وأبقت الخلود لها وهذا ما يعزي به القاسم نفسه في ذكرى ميلاده (هي الحياة أجل مسمى)، فيقول:

¹ القاسم، سميح: سأخرج من صورتني ذات يوم، ص 200، 201

² المصدر نفسه، ص 201

هذا أنا "جلجامش" الإنسان

ثنائي الإله

وهم،

وثلاثي للفلاه

جسد تغادره الحياه

يهب الخلود لموته

ويرى بحكمة ميت وضحت رؤاه

أن الحياه هي الحياه

أجل مسمى، لا سواه،

ولا سواه،¹

وقد أتى الشاعر على تفاصيل دقيقة في هذه الأسطورة ولم يتوقف عند الطابع العام لها في محاولة منه للغوص باحثاً عن ماهية الموت فكراً وفلسفياً، عندما أتعبه المرض واليأس.

وفي (كولاج 3) يتقمص القاسم في هذا المقطع الشعري القصير شخصيتين، شخصية الحكيم "أوتانابشتم" و شخصية "جلجامش"، وفيه يقر الأول أن الثاني قد نال الخلود الذي ظل يبحث عنه، وإن لم يكن في نظره جديراً به وما ذلك إلا نوع من التواضع الذي تجهر به شخصية القاسم الشاعرة، فقد أدرك جلجامش أن المدنية والأبناء هما سر الخلود، في حين أدرك الشاعر أن فن الشعر الذي تفوق به هو سر الخلود يقول:

لعلك لست جديراً بالخلود

يا جلجامش

لكنك نلته..يا بني !²

¹ القاسم، سميح: سأخرج من صورتي ذات يوم، ص 202

² القاسم، سميح: كولاج 3. ص 74

كان جلجامش المعادل الموضوعي للشاعر في البحث عن الخلود، والتدبر في أمور الموت والحياة.

ومن الأساطير اليونانية وظف سميح أسطورة إيكاروس¹، ليسقطها أولاً على نفسه المتعبة اليائسة، مصورا إياها بأنها بلغت نهاية الرحلة، فقد ثقلت المهام الملقاة على عاتقه وبالتالي ثقل ريشه، وعندها فكر أن يصعد قليلا نحو الشمس ويقول كلامه الأخير، وحينها يتناثر ريشه شيئا فشيئا ليسقط على صخور الحياة فلا يعود يدرك شيئا لأنه في تلك اللحظة يكون فعلا قد وصل أمد رحلته، يقول سميح في قصيدة (تعب المعادن):

إذن آن لي أن أدخن ما ظل من جسدي. آن لي أن أقول كلامي

الأخير وأوصد كهفي على سر أسرارهِ وأعيد إلى أهله حارسه

جناحي في البحر. ريشي ثقيل.. إذن فلأصعد قليلا. هنا الشمس.

ههذي النار تأخذ ريش جناحي شيئا فشيئا إلى كوكب الحاسة

السادسة

وها أنذا أتلاشي رويدا رويدا.. وأهوي على الصخر. لا أبصر

الصخر في غبش اللحظة الناعسة إذن.. بلغت شأوها رحلتي..²

وفي (كولاج 3) يوضح الشاعر إلام ترمز الشمس والماء اللذان استعارهما حين تقمص شخصية إيكاروس، فيقول مخاطبا والديه اللذين يوصيانه بالسعي وراء الحرية محذرين إياه من حر الشمس وماء البحر:

تهمس لي أمي من أعماق القبر:

¹ تروي الأسطورة أن ذيالوس صنع جناحين من شمع وريش ليطير بهما هاربا من سجنه، ولكنه أثر ابنه (إيكاروس) على نفسه فأعطاه الجناحين وأوصاه أن ينطلق بهما إلى الحرية على ألا يقترب من الشمس فيذوب شمع الجناحين ويهوي إلى الأرض وألا يقترب أيضا من الماء فيبتل الجناحان ويعجزان عن حمله، غير أن إيكاروس المتعطش للحرية انطلق في شهوة عارمة للالتحام بالشمس، فذاب شمع الجناحين وأهوى إيكاروس جثة ممزقة على صخور البحر (قرب بيسان)، فخرجت حوريات الماء ورحن يبكيه ويرثينه رثاء مؤبدا. . انظر، شابيرو، ماكس ورودا هندريكس: معجم الأساطير.

ترجمة حنا عبود. دمشق: منشورات دار علاء. 1999، ص 127

² القاسم، سميح: سأخرج من صورتي ذات يوم. ص 53

هيا. مد جناحك إلى الحرية

يا ولدي يا ايكاروس

يهمس من أعماق القبر أبي:

حاذر حر الشمس وحاذر ماء البحر !

أصرخ مسكونا بالحمى:

لكن ماذا أفعل يا أبوي،

بنار الشعر وماء الشعر؟¹

فما سيقتل الشاعر ويودي به ليس حر الشمس وماء البحر بل شعره المقاوم للاحتلال وهو السبب الرئيس في سجنه عدة مرات في سجونهم وبهذا يجعل الشاعر من ايكاروس شخصية عصرية يقتلها الشعر المقاوم، وباستلهامه لهذه الأسطورة جعل من نفسه شخصية أسطورية لقيت حتفها في أثناء السعي وراء الحرية.

وبصورة أكثر عصرية يستبدل الشاعر المارينز وحاملة الطائرات بالشمس والماء ليسقط بسببهما ايكاروس العصر وتسقط معه حكم ذياليوس في سجن غوانتانامو فأجنحة الطائرات المغيرة أقوى من الريش والريح، يقول الشاعر يائسا مستاء من سوء الأوضاع في سجن غوانتانامو وصمت العدالة إزاءها:

هل تتخلى السماء؟ وهل يستريح الأنام

إلى الصمت والموت في غوانتانامو؟

لايكاروس العصر حكمة ذياليوس العصر..

فهمنا الرسالة. لكن أجنحة الطائرات المغيرة أقوى من الريش o.k

والريح،

أسرع من نبضة القلب في قلعة البنتاغون القصية

¹ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 81

ويسقط إيكاروس العصر. تسقط حكمة ذياليوس العصر

بين المارينز وحاملة الطائرات العصيه

لم يسقط إيكاروس وحده في هذه القصيدة بل سقطت الأسطورة بأكملها على أجنحة الطائرات حتى يظهر سوء الأوضاع في سجن غوانتانامو فلا أمل هناك ولا حتى أساطير.

كما أسقط الشاعر أسطورة إيكاروس على البطل الفلسطيني الذي يعشق الحرية و ينشدها، رافضا سجنه وما فيه من ذل وهوان، فلحظة موته لم تقدر له هناك في غياهب السجون وبذلك فايكاروس يرمز إلى التمرد ضد الظلم، ويرمز إلى الثورة على الاستبداد بهروبه من سجنه وجلاده يقول سميح القاسم في قصيدة جناز في ثلاثاء الرماد " المهداة إلى شهداء بيسان الثلاثة:

انهم اقانيم ثورتك يا إيكاروس

انهم اقانيمك الثلاثة

انهم اجنحة أبيك المهين الصابر..

فاشملهم بروحك وانطلق

الى الاعالي يا إيكاروس¹

يدمج الشاعر بين الفكر الأسطوري والفكر الديني بتوظيفه للأقانيم الثلاثة (الأب، والابن، والروح القدس)، فيضاعف من تأثير النص في نفس المتلقي ويدعم فكرة الشهادة في سبيل نيل الحرية بتعلق الأسطورة والدين، " إيكاروس هو الابن الثوري، هو ابن الثورة، هو الفدائي المخلص الذي يخلص والده "المتمثل بالشعب الفلسطيني" من الظلم، لينال حرّيته، وينعم بالعدل الإنساني والعدل الاجتماعي"²، يقول الشاعر:

تماسك يا إيكاروس

يا عريس الحرية يا سند الدوالي الناشئة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 287، 288

² زيدان، رقية: أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني. ص 292، 293

تماسك يا سندي ورفيقي

تماسك فان حوريات الأردن يندبن في السبي

وعذارى فلسطين شاخصات إليك

عبر قضبان السجون ومواسير البنادق

ولا بأس عليك يا نيزك الدم والحرية¹

وهكذا يكون القاسم قد استفاد من أسطورة ايكاروس على صعيدين الأول يتمثل بتوظيف شخصية ايكاروس رمز البطل الفلسطيني، و الثاني الشمس والماء رمز الخطر والعدوان الذي يلحق بالبطل ايكاروس فيكون السبب في مقتله.

وإضافة إلى هذه الأسطورة (ايكاروس)، وظف الشاعر أسطورة (نايوبي)² ليسقطها على الواقع الفلسطيني، ولكن بعد تحويله لأحداثها بما يتناسب مع الاتجاه الواقعي المتفائل، فنايوبي العصر لم تفقد جميع أبنائها وفق رواية شاعر الرابطة عندما واصل هذه الحكاية فابن نايوبي السابع كان قد جرح ولم يموت وحين استعاد عافيته نذر نفسه للكفاح ضد الغزاة المعتدين حتى ترضى عنه الآلهة جميعاً، وتعود الحياة إلى أمه وتجف دموعها إلى الأبد..³ هذا ما أردفه سميح القاسم لأسطورة نايوبي التي صدر قصيدته بشرحها - وذلك ما فعله بقصيدة (جناز في ثلاثاء الرماد) - ليمد جسراً بينه وبين المتلقي للوصول إلى غايته، يقول في قصيدة (ابن نايوبي الأخير):

سقطت كل الأسانيد التي تزعم موتي

والذين احترقوا القول بأن الموت أجدي

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 289

² تروي الأسطورة أن لنايوبي سبع أبناء وسبع بنات كانت تتباهى بهم، فقتلهم أبولو وأخته ارتميس بتحريض من أمهما لاتونا لأن نايوبي سخرت منها لقلة أبنائها، ومن فرط حزن نايوبي على أبنائها حولتها الآلهة إلى تمثال حجري يمثلها واقفة ضارعة الوجه مستقبلة به السماء ودموعها ظلت تجري على خديها ذلك بان نايوبي رغم انها تحولت إلى حجر إلا أنها ظلت تحس وتبكي أبناءها انظر ه. أ. غويرير: أساطير الاغريق والرومان. ترجمة حسني فريز. عمان: منشورات دائرة الثقافة والفنون. 1976. ص 58

³ انظر، القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 123

عندما فاجأتهم في اللحظات اليائسه

ضد الشاعر أقوال المتخاذلين العاجزين بأن موت الفلسطيني أولى من حياته بعودة ابن نايوبي كمحاولة منه للإصرار على حق الفلسطيني في الحياة ورفض الموت المفروض عليه من قوات الاحتلال، قد سقط من سقط ولكن لم يحن وقت ابن نايوبي المقاوم وسيشهد له التاريخ، يقول سميح:

فارحلي مركبة الموت بأحبابي النيام

لم يزل جفني كحد السيف مسلولا،

وفي قبضة تاريخي اللجام !

اقلعي عني..فهل تنتظرين

غير هذا الدم..إكليلا لأحبابي النيام؟

أقلعي مركبة الموت، فما زلت فتيا،

وجميلا..وقويا !¹

لم يزل ابن نايوبي متميزا متفردا صغيرا على الموت وجميلا وقويا، لذا لم يحن وقت موته بعد فهو البطل الذي نذر حياته للدفاع عن شعبه ووطنه الأم ووقف دمعها بعد أن يسقط عنها الاحتلال، ويأخذ بثأر كل المظلومين الهالكين، يقول سميح:

أنا النادر والمنذور والنذر،

لترضى الآلهه

ولترضى زرقه الموت على افواه اهلي الوالهه

ويكف الدمع عن اهداب امي الملكه

بعد ان أسقط عنها،

قشرة الصخر وليل الكارثه !²

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2، ص 124

² انظر، المصدر نفسه. ص 130

يريد الشاعر من خلال توظيفه لهذه الأسطورة الرمز إلى واقع الصراع القائم بين الشعب الفلسطيني المتمثل بنايوبي وابنها الأخير والاحتلال الإسرائيلي المتمثل بلاتونا وأبنائها فهو صراع دموي امتد من الآباء إلى الأبناء، وما الابن الأخير الذي أوجده القاسم إلا رمز للبقاء والمقاومة المتجددة.

ومن الأساطير العربية التي وظفها سميح أسطورة (العنقاء)¹ رمزا للبعث والتجدد والخلود بعد الموت والفناء، ومن خلالها يحث الشاعر الشعب الفلسطيني على الاستمرار في المقاومة والإقدام على التضحية، لأنه يؤمن باستمراريته كأسطورة العنقاء ففي طقس الموت يتجدد طقس الانبعاث، والشاعر يوحد بين الأسطورة والواقع، ويلبس الحقيقة بالخيال²، يقول في قصيدة (العنقاء):

من رماد الموتى

انطلقت عنقاء جديدة

تطير دوما نحو اسمها.

والأطفال يتصايحون

تحت جنازير الدبابات التوراتية:

"ها نحن نخترق النهاية

ها نحن نبدأ³

فالموت في سبيل البعث غدا نهجا وأساسا ينشأ عليه حتى الطفل الفلسطيني الذي يقدم على الموت، وكله إيمان بأنها البداية التي انطلقت من النهاية، ولكن الشاعر مرة أخرى يحور في نهاية الأسطورة ويغيرها بما يستقيم وحالته النفسية المرهونة بواقعه السياسي المعاصر له، ففي قصيدة له بعنوان (العنقاء) يجده المتلقي قد استبدل السنونوة الصغيرة بطائر العنقاء الكبير

¹ العنقاء طائر خرافي من الأساطير يقال انه لما بلغ خمسة آلاف سنة من عمره يحرق نفسه ليولد من رماده عنقاء جديدة، وهو رمز للبعث والخلود

² انظر، زيدان، رقية: أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني. ص 302

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2 ص 675

الذي أخذ من روايته الطابع العام وهو الاحتراق دون البعث، فطائر السنونوة احترق مخلفا حفنة من رماد، يقول:

أيها الوافدون من الخشب احترقوا

في صليب المسيح

السنونوة احترقت

والرماد القليل انتعاف قليل

بين مهد الوليد ولحد القتل¹

ويتقمص القاسم جثة السنونوة المحترقة، فيصيح نائرا محتجا لكن ما من سميع فتضيع صيحته في البراري كرماد السنونوة، يقول الشاعر:

أيها الناس قلت اسمعوا جثتي

قلت

ما من سميع

صيحتي

في البراري تضيع

والسنونوة احترقت²

فقد طال سبات رماد السنونوة ورقاده منتظرا البعث حتى تتأثر واندثر، وبالتالي تعذر بعثها وقيامتها من جديد، يقول:

آه واحترقت

حفنة من رماد

أوغلت في الرقاد

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 353

² المصدر نفسه. ص 353

آه وانتشرت

آخ واندثرت

نار فينيق أغنية ساخره

قلت، ما انطلقت

السنونوة احترقت

من هنا تبدأ الآخره..¹

فإن كانت بداية الأطفال (العنقاء) - في قصيدة (بعد القيامة) السابقة - قد بدأت من النهاية، فبداية نهاية السنونوة قد ابتدأت من النهاية في قصيدة العنقاء، وبذلك يكون قد نسف الفكرة التي تقوم عليها الأسطورة في محاولة ساخرة منه لنسف الواقع السلبي الذي يعيشه.

وفي قصيدة (إذن، أزرع الحبق في نواويس المومياءات، وأستعد لسهرتي..)، يتراجع الشاعر عن هذا الرفض والتحوير بإنكار البعث، فيتساءل عن كيفية استقطاب العنقاء لرمادها وجمرها المنثور، وعن كيفية وميعاد البدء بإيقاد هذا الرماد حتى تبعث من جديد وتقهر الموت، يقول الشاعر:

من أين تجمع جمرها ورمادها العنقاء؟ وكيف ستبدأ نارها؟

وبأي ميعاد تفجر لحظة الزلزال في الزمن الضنين؟

من أين أبتدئ الحياة لقهر موت يدعيني؟²

كثر استخدام سميح القاسم لأسطورة العنقاء بمعناها العام في قصائده الشعرية أيما أنها بأنه من طقوس الموت تنبثق طقوس الانبعاث والتجدد للشعب من واقعه المرير، وقد عاد سميح في عام ألفين وأحد عشر ليكتب قصيدة يعنونها مرة أخرى ب(العنقاء) ويجعلها ضمن ديوان يحمل الاسم نفسه، وذلك بعد أن رأى العنقاء بألم عينه تحترق لتبعث الثورة لا في تونس فحسب بل في الوطن العربي بأكمله فيما يسمى بالربيع العربي، رأى محمد البوعزيزي يشعل في جسده

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 353، 354

² القاسم، سميح: سأخرج من صورتي ذات يوم. ص 150

النار رفضا للاستبداد وذل العيش، مما ألهب قريحة الشاعر الأممي فرثاء في قصيدة العنقاء وجعلها (ترنيمة حب ووفاء للشهيد الحي محمد البوعزيزي) جاء فيها على الظلم واستبداد الحكم وأشار إلى الثورة التي أشعلها (الفيس بوك)، يقول القاسم في هذه القصيدة:

يا فارس تونس

يا عنقاء العرب الكبرى

يا موال العرب وأغنية البربر

ونشيد الوطن الأحلى والأعلى والأغلى

يا غصن النار الأخضر

وصديق البرقوق الأحمر¹

رأى القاسم أن أسطورة العنقاء أضحت حقيقة وواقعا، نيران تشتعل بالكائن الحي حتى مات، ونتيجة موته ولدت ثورة عمت البلاد، ثورة تراءى في ضوئها حلم الحرية وبقظة الأمة العربية، يقول:

بشعاع لهيبك تغزل طرحتها الشمس

في نور لهيبك يبصر قلب الامة،

وجه القدس

وصليب القدس²

وهكذا نجد أن سميحا أفاد من معنى الأسطورة الإجمالي العام - في قصائده المختلفة - بداية لينطلق إلى بعض جزئياتها التي تتلاءم مع موضوع قصيدته، وأحيانا يمنح أبعادها وجودا حيا ومتميزا يتفق مع معمار القصيدة في حديها الفني والموضوعي لتكون جسرا بين الشاعر والمتلقي.

¹ القاسم، سميح: العنقاء وقصائد أخرى. منشورات إضاءات. 2012. ص 11

² المصدر نفسه، ص 13

المبحث الخامس

الموت والتناص

الموت والتناص

يمكن تعريف التناص بأنه "تعلق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة" ¹

وهو "قضاء متعدد الأبعاد، تتمازج فيه كتابات متعددة وتتعارض من غير أن يكون فيها ما هو أكثر من غيره أصالة" ²

وبالتناص يستطيع الشاعر الرحيل عبر الأزمنة والأمكنة، ليستحضر من خلالها فلذات غالية من التراث، تناسب مضمون النص وإنتاجيته الدلالية، معتمداً في ذلك على مخزونه الثقافي والمعرفي، فيتمكن من إنتاج دلالات جديدة، أو يعمل على تأويلها تأويلاً جديداً، أو يؤسس لعلاقات حوارية مع نصوص سابقة، أو يعيد اكتشاف الماضي للتعبير من خلاله عن قضايا العصر، وهذه كلها تؤدي إلى غنى النص واكتنازه بدلالات عميقة، كما تؤدي إلى انفتاحه على على الذاكرة البشرية، وتعدد الأصوات المتضمنة فيه والمؤدية إلى درامية الشعر أو ملحميته بالإضافة إلى تفرد شخصية الشاعر، وتولد أسلوبه الخاص ورؤياه المتميزة للوجود والعالم. ³

ومن الطبيعي لشاعر مثل سميح القاسم كثير الاطلاع واسع الثقافة متعدد المصادر، دائم السعي إلى التميز والفرادة في أساليبه الشعرية أن يوظف التناص في أشعاره فيجتز ويحاور ويمتص ويعارض التراث القديم، والباحثة في هذا المقام ستلقي الضوء على التناص الواقع ضمن دائرة الموت في شعر سميح القاسم.

الموت والتناص الديني الإسلامي

إن تفاعل الشعراء الفلسطينيين مع الكتب السماوية الثلاثة، وامتصاصهم للغتها وأساليبها ومضامينها وشخصياتها الدينية، جعل الشعراء يبتعدون عن التعبير التقليدي المباشر والخطابي

¹ مفتاح، محمد : تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص). ط1، بيروت: المركز الثقافي العربي. 1985، ص121

² موسى، إبراهيم نمر: آفاق الرؤية الشعرية. ط1. وزارة الثقافة. 2005. ص13

³ انظر، المرجع نفسه، ص 17

في أغلب الأحيان، إلى التعبير الموحى، الذي يكتنز برصيد روحي يوسع من دائرة الإنتاج الدلالي وينفتح على عوالم جديدة في التجربة الشعرية، وقد ارتكز الشعراء الفلسطينيون في توظيفهم للإشارات الدينية على نمطين رئيسيين: الأول اقتباس لفظة، أو عبارة، تضيف بعداً علوياً على الخطاب الشعري، وتتجدد من خلالها علاقة الإنسان بالخالق، أو علاقة الإنسان بالإنسان وفق منهج سماوي.

أما النمط الثاني فيتمثل في الإحالة إلى شخصيات دينية مجددة، تحمل أبعاداً إيجابية مشرقة في تاريخ البشرية مثل محمد والمسيح أو شخصيات دينية سلبية مثل الشيطان وقابيل.¹

وكمثال على النمط الأول يدعم سميح فكرته بحتمية الموت وغموض زمانه ومكانه بتناصه مع قوله تعالى: " وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ " ²، حيث يقول في (كولاج 2) مخاطباً الموت:

بلا موعد سابق سوف تأتي

ستأتي

بأية أرض. و أي وقت

على ساعدك زهور جليلية من حبالي

وسر جبينك نور يشع

بأسرار زيتي

ستأتي

بكل الجلال وكل الوقار وكل الجمال.. ستأتي

لأنك موتي ³

¹ انظر، موسى، إبراهيم نمر: آفاق الرؤية الشعرية، 69، 70

² سورة لقمان، آية 34

³ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 106

أراد الشاعر أن يطمئن نفسه القلقة من مواجهة الموت فجعل الموت شخصا وقورا جليلا يتحاور معه، يتجلى في حضوره جمال ونور كيف لا وهو موت الشاعر الخاص، ويؤكد لها نفاذ الموت وقدومه الإجباري بتناص الشاعر مع الآية السابقة، وبذلك يكتسب الموت قدسية ترسخه في ذهن الشاعر وقلبه مما يجعل نفسه تكتسب القوة من الدين الذي أحدث توازنا نفسيا داخليا للشاعر.

كما يتناص الشاعر مع قوله تعالى: " وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ^١ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ^٢ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ^٣ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ^٤ "، في قصيدة (عبد الرحيم محمود)، للتعبير عن استمرارية رسالة الشهداء وتقديس مكانتهم بربطهم بعيسى عليه السلام الذي يشكل رمزا للبعث، حيث يقول:

لم يقتلك..

شبه للقاتل

لم يقتلك الصبار في لحمي

والريحان في لحمك

لن يقتل صوتك

صيحة الميلاد

موتك! ^٢

أما الإحالة إلى الشخصيات الدينية، فقد استدعى الشاعر طرفي حادثة القتل الأشهر في العالم وهما قابيل وهابيل في شعره، لكونها حادثة القتل الأشهر في التاريخ حيث قتل الأخ قابيل أخاه هابيل غيرة وحسادا، يقول في نشيد الكهنة من سريية (إرم):

دوري مع الإعصار يا قطعان! ضيعك الرعاة!

وابكي ربيعا.. مات!

^١ سورة النساء، آية 157

^٢ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 309

من يوم شاء الله أن تهوي يدا قايين،

قاتلتين، غائصتين في الدم، في الحياة

ويروح يصرخ من وراء السيول.

في عسف الطغاة..الأغبياء من الطغاة

قايين ! يا قايين ! أين مضت بهابيل خطاة؟!¹

استحضر القاسم هاتين الشخصيتين (قابيل وهابيل) في علاقة مشابهة لطرفي النزاع الفلسطيني والإسرائيلي، وتمثل حادثة القتل اغتصاب الأرض العربية الفلسطينية واستمرار ممارسات الاحتلال الإسرائيلي للإنسانية بحق الشعب الفلسطيني المغدور، ولكن الشاعر يعيد تشكيل نهاية هذه الحادثة فالشعب لن يقضي كما قضى هابيل، سوف تبقى جثث هذا الشعب يقظة في ضمائر أبنائها المخلصين.

إن استحضار القاسم لمثل هذه الحادثة يستتق التاريخ بمثل هذه الحوادث لا ليقرها بل ليستنكرها، ويحورها بما يخدم رؤاه الثورية. ويقول مستخدماً الشخصيتين ذاتهما في قصيدة (قلب سايكو)، جاعلاً من الزمن الأخ الثالث لهما:

أخا ثالثاً.أيها الوقت، ما بين قايين في صمته الدموي وهابيل

في موته العبثي.أخا ثالثاً بين موت ثقيل وعار ثقيل.فيما

سيدي الوقت.هبني وما كنت في الفاهمين.مواعظك الفاهمه..²

يجعل الشاعر الوقت أخا ثالثاً لقابيل وهابيل وبذلك يصبح طرفاً دخيلاً في حادثة القتل المتجددة التي كان نتيجتها موتاً عبثياً ثقيلاً على النفس، وعاراً ثقيلاً يلاحق القاتل، فيحمله مسؤولية الوقت المثقل بالصمت.

كما يستلهم الشاعر شخصية سليمان عليه السلام وكيفية موته في (سيرة بريطافور)،

فيقول:

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج.4. ص 17

² المصدر نفسه. مج.3. ص 619

ذلك أن المحارب القليل لم يجد من يسبل له جفنيه

ظنته الوحوش والصدأ والهوام يقظا

فتململت وتحلقت حوله

وجأرت وماعت مشحونة بالهلع..

غب الليالي الحالكة الطويلة جرؤت الضواري والجوارح

على اقتحام الفارس المسجى

نالت الحشرات والهوام والعوادي نتفا من أطرافه الميتة¹

صور الشاعر حال العرب المتفنعين بقناع البطولة الغابرة، إلى أن استضعفتهم بعض الدول الاستعمارية فناوشتهم في بعض المناطق العربية الضعيفة، بسليمان حاكم الجن والحيوان المسيطر على الريح والجمال حيث مات متكئا على منسأته ولم يعلم بموته أحد إلا عندما أكلت الأرضة منسأته بعد مضي وقت طويل، إن ربط الشاعر العرب بشخصية قوية مسيطرة كسليمان تمنحهم قدسية المكانة والمبالغة في القوة والمنعة، كما أنها تجذب المتلقي، لكن ربطه لها بهذه الشخصية كان في كيفية الموت، فشخصية سليمان العظيمة تقزمت وتهافت أمام الموت، كما أن بطولة العرب تهافت أمام تفرقهم وأمام أطماع الغرب فيهم.

وفي قصيدة (المعراج الأرضي)، يربط الشاعر ضمنا بين الشهيد وشخص الرسول وذلك بالإشارة إلى حادثة الإسراء والمعراج، فيكسبه القدسية وبالتالي يرفع من مكانته، فكلاهما أصحاب رسالة وكلاهما يواجهان المشقة والأذى في تبليغها، يقول القاسم في قصيدة (المعراج الأرضي):

لا تعقدي يا أمه زنديه

لا تغمضي عينيهِ

إسراؤه الأرضي

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 4. ص 169، 140

لا يرضى سوى معراجہ الأرضي..¹

كما يوظف القاسم مقولة أبي بكر في خطبة له بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)² لكف العرب عن النيش في الماضي والتغني بأمجاد العرب البائدة، وانتصاراتهم السابقة، وتمجيد تراثهم العظيم القديم، لأن هذا التمجيد لن يستعيدها ولن يبعث الانتصارات من خلالها، فما مضى قد مات، والحاضر البائس بهزائمه وواقعه التعيس حي لا يموت، يقول الشاعر في قصيدة (المومياء والجيل):

لا تنبشوا مدافن الموتى !

لا تستبيحوا حرمة الأجداد والذكرى

ولا تهينوا النصب والزهرا

لا تقلقوا النيام.. لا تفرعوا الصمتا !

"محمد ماتا

والله حي لا يموت "

والردة الحمقاء، لا لن تبعث (اللاتا)!³

وقد وظف أيضا (الردة) إثر موت الرسول للدلالة ذاتها، فيدعوهم لترك الماضي والالتفات إلى الحاضر بالسعي والعمل الدؤوب.

ينصب الشاعر نفسه إلها و بصيغة الأمر (ليكن) يستحضر الطوفان ليكون رد فعل ثائر على الوضع الفلسطيني الذي يسوده الظلم، فيأتي رمزا للموت ليقضي على العصاة الظالمين، "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج1. ص 483

² عبد الطيف، عبد الشافي: تاريخ الإسلام في عصر النبوة. القاهرة: الجبرسي. ص 368

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج1. ص 54

ظالمون¹، ولكن هذا الإله رب رحيم ينجي الصالحين والمستضعفين فيكون الطوفان لهم قشة سلام تنجيهم من الغرق، يقول الشاعر في قصيدة (وليكن الطوفان):

وليكن الطوفان

لكنني أريده قشة السلام

لطفلة أو نملة أو لوحة²

وإذا كان في القصيدة السابقة قد نصب من نفسه إلها يستدعي الطوفان فيهلك العاصي، وينجي الضعيف، فهو في سربية (أشد من الماء حزنا..) الضعيف الذي لم يجد أحدا ينقذه من طوفان الاحتلال، لا نوحا ولا فلكا ولا حتى غصن زيتونة فيجد نفسه وحيدا في خضم هذا الخطب العظيم فيقول:

وأنت على قمة الأرض تقبع

لا نوح يشفع

لا فلك ينفع

لا غصن زيتونة في المدار

وأنت على قمة الموت تذوي³

فهنا استلهم الشاعر الطوفان ليرمز للهلاك الذي يتعرض له الفلسطيني بممارسات الاحتلال دون أن يكون هناك أي مكان آمن يلجأ إليه كالفلك أو شخص معين كنوح أو حتى أية مبادرة سلام عادلة رمز لها بغصن زيتونة، ليجد الفلسطيني نفسه وحيدا ضعيفا يائسا في غمرة الطوفان، لا نصير ولا معين.

وبهذا يكون القاسم قد استدعى حدث الطوفان باعتباره رمزا للهلاك والموت ولكن من جهتين مختلفتين أحدهما فلسطينية والأخرى إسرائيلية.

¹ سورة العنكبوت، آية 14

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 1. ص 538

³ القاسم، سميح: ملك أتلانتس وسربيات أخرى. ص 51

الموت والتناص الأدبي

إن التفاعل الخلاق بين الشاعر والأدباء القدماء والمحدثين من العرب والأجانب، أنشأ علاقة حلوية متبادلة بين زمنين: الماضي والحاضر، لا يحضر فيها الماضي باعتباره مصدرا من مصادر الاحتذاء والتقليد والتكرار، بل باعتباره مصدرا للابتكار والتجديد، والتعبير عن تجربة إنسانية، يعاد فيها صياغة الماضي وفق رؤية معاصرة، تفتح له آفاقا واسعة من التأويل والكشف، ليجد المتلقي نفسه أمام نص قديم جديد، يكتنز بأبعاد دلالية شمولية وإنسانية في الوقت نفسه، وقد تعامل الشاعر مع النص الغائب بوعي فكري ونفسي ووجداني، تتعدد فيه الدلالة ويتم تحويرها بما يتناسب مع طبيعة الرؤيا الشعرية والواقع المعيش، دون انفصال عن نسيج القصيدة ودلالاتها العامة، ولا بد للمتلقي أن يكون على وعي حتى يستطيع فتح أبواب النص المغلقة، ويدرك ما في أبعاده من جمال بالرغم من عدم خلو القراءة من العنت والصعوبة في بعض الأحيان.¹

في قصيدة (الناس) يستثمر سميح القاسم مقطعا من بيت شعري لأبي فراس الحمداني ألا

وهو

معلتي بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآن فلا نزل القطر²

وفي هذا البيت يظهر الحس الأناني لدى أبي فراس حين يدعو على كل المحبين بالحرمان وعدم لقاء حبيباتهم عندما شعر بأن الموت قد يعاجله قبل أن يلقي حبيبته التي لا تفي بعهودها له، وعلى النقيض من أبي فراس كان يظهر لدى سميح حس التسامح والإيثار كما ينبغي أن يكون أي فلسطيني يؤثر حرية شعبه على روحه وحياته، وبهذا حور الشاعر المقطع الشعري في بيت أبي فراس إلى ما يلائم مبادئ الشاعر ورؤاه، يقول:

إن مت ظمآن فلا تبخل على سواي

يا قطر:

ألغازف بعض الناي³

¹ انظر، موسى، إبراهيم نمر: آفاق الرؤيا الشعرية. ص 129

² الحمداني، أبو فراس: أبو فراس الحمداني. تحقيق إبراهيم السامرائي. ط1. عمان: دار الفكر. 1983.

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج1. ص 537

و في كولاج يقول سميح:

**** قال أبو العلاء المعري:

فيا موت زر ان الحياة ذميمة

ويا نفس جدي، ان دهرك هازل

**** وقال ذلك الرجل

ان الحياة ذميمة

أيها الموت، فأمهلني

حتى أجرع كأسى المترعة

بصروف الدهر

ونوازع الدهر

جدها وهزلها ! ¹

لقد استحضر سميح بيت أبي العلاء المعري، مستفيداً من دلالاته الماضية وموظفاً إياه في خلق دلالات جديدة تلائم فلسفة سميح في الموت، فبيت أبي العلاء يعكس رغبته في الموت لأن الحياة قبيحة مليئة بالهزل، فالقاسم يتفق مع المعري في أن الحياة ذميمة ولكنه يختلف معه بأنه لا يريد أن يموت لكونها كذلك بل يطمح إلى أن يطول به العمر حتى يعيش حتى نكباتها وصروفها بطلوها ومرها، واختلافه معه وعدم رضاه عن رأيه دفع بالقاسم إلى أن يسمه ب(الرجل) حين قال "وقال ذلك الرجل "

ومن الشخصيات التي استدعاها القاسم شخصية الشنفرى الصعلوك المتمرّد الذي ثار على مضطهديه من بني سلامان الذين قتلوا أباه، وأسروه غلاماً، وأذاقوه مرارة الذل والعبودية في قصيدته (انتقام الشنفرى)، فيقول:

يمينا..يمينا

¹ القاسم، سميح: كولاج. ص 30، 31

هو الثأر يقسم لن أرجئه

سأقتل منهم بما استعبدوني

سأقتل منهم منه

وأقتل أقتل منهم منه!¹

وظف الشاعر شخصية الشنفرى مستفيداً من الإيحاءات الدلالية الناتجة عن أبعاد هذه الشخصية التراثية، مسقطاً تلك الأبعاد على ذاته وقضيته إذ إنه يعاني من الاضطهاد اليومي والتمييز العنصري من أمته العربية، ومن الدولة التي يعيش في كنفها مواطناً بالاسم فقط، شأنه في ذلك شأن الشنفرى الذي لا تربطه مع بني سلامان إلا صلة الاستعباد والرق التي اكتشفها مؤخراً مما برر الثورة والتمرد عليهم² فيقسم الشنفرى بأن يقتل مئة من مستعبيه انتقاماً لكرامته، لكنه قتل في حياته تسعة وتسعين، ثم كمنوا له وقتلوه. ويقال إن أحدهم تعثر بجمجمته فمات، فكان حصاد ثورته تحقيق قسمه ووعيده لهم³، يقول في النشيد الثامن من هذه القصيدة:

هو الثأر يقسم لن نرجئه

بما يتمونا وما شردونا وما استعبدونا

سنقتل نقتل منهم منه!⁴

يتأجج الصراع بين القوى المتناقضة، فيتخذ الشنفرى من أسلوب " المقاومة " وسيلة لإثبات الذات بدلالاتها الإنسانية القائمة على الحق والعدل والمساواة، "ويصبح الشنفرى فلسطينياً ثوريا واعياً لحركة الحياة وجدليتها الأخلاقية والوجودية والإنسانية في سياق القصيدة العام، قابضاً على جمرتي الحياة والحرية، مدركاً لتحدياتهما وما تحمله من أهوال ودماء وتضحية حتى يتسنى له الوصول إليهما⁵، يقول القاسم:

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج2، ص 578

² انظر، حسن البنداري عبد الجليل: *التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر* - مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية 2009، المجلد 11، العدد 2.

³ انظر، اليوسف، سامي يوسف: *مقالات في الشعر الجاهلي*، ط3، الجزائر: دار الحقائق وديوان المطبوعات، 1983م، ص 213

⁴ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج2، ص 600

⁵ انظر، موسى، إبراهيم نمر: *آفاق الرؤيا الشعرية*، ص 160

عقدت محكمة الميدان وصدر الحكم باعدام الإرهابي القاتل،

رميا بالغربة والحزن. ووفق القانون الدولي أتيح له أن يوصي..قال:

لا تقبروني ! غاية الشح ذرى المقابر

وإنني لذو جدى، مقتبلي وأخري

فخلفوني..واهني باليسر "أم عامر" ¹

توافق موت الشنفرى ورؤى الشاعر سميح في موت الشهداء، فسلط الضوء على رفض الشنفرى القبر كنقطة محددة الأبعاد نهاية لحياته الواسعة ذات الأهداف الكبيرة، فالمقاوم ذو فائدة ونفع كبيرين للشعب لا ينقطعان حتى بعد مماته، كان الشنفرى عنيدا، واثقا، بعيد النظر، فأوصى بعدم دفنه لإتمام ما قد بدأ به من انتقام وللوفاء بقسمه، الذي برت به جمجمته بعد الموت، في موقف يعادل البعث، وسميح بهذا يستحضر بعث المقاومين الفلسطينيين الشهداء لإتمام مهامهم تجاه الوطن، يقول القاسم:

فارتطم بجمجمة سائبة طرحته على الأرض مدمى مشتعلا

بعذاب جهنم.هرعت سيارات الشرطة والإسعاف ونقل على

الفور إلى مستشفى البحرية. وهناك اتضح لنا أن الجمجمة

مسممة بالفكر الثوري فلم يعتم سيدنا ان مات شهيدا للبنك ²

وإن كان الشنفرى قد استخدم رمزا للفلسطيني المقاوم الرفض لظلم المجتمع فهو أيضا وفق فلسفة سميح رمز للبعث والاستمرارية، يقول سميح:

تخيرت موتي بحد الحسام

لأبعث حيا بحد الحسام

على كل خارطة شنفرى

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج2. ص 606

² المصدر نفسه. ص 608

وفي كل أغنية شنفرى

ومن كل مجزرة شنفرى

يموت الحسام ويحيا الحسام¹

وفي قصيدة (كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه) يستعير سميح مأساة موت (هاملت) بطل مسرحية شكسبير لتشير إلى مأساة موت الإنسان الفلسطيني، لينطلق منها - وقد تقنع بشخصيته- ساخرا رافضا، فقد حقق سميح ما لم يستطع هاملت تحقيقه، بأن تجاوز الموت كما تجاوز القناع، وبأنه استطاع قول ما لم يقله هاملت، فهاملت وإن مات غدرا مثل سميح، إلا أنه لم يبعث ليقول كلماته الأخيرة، لأن الموت عاجله وأخرسه، بينما يعتبر سميح نفسه نموذجا للشاعر الثوري المؤمن بأن الحقيقة ينبغي أن تكون للجميع، فالكلمة التي سيلقيها الفقيد ليست مثل الكلمات، لأنها مثقلة بالدلالات، مشحونة بالمحمولات، هي كلمة الفقيد المتحد مع الوجود مالك العرفانية والقدرة على الكشف، هي كلمة الشاعر الساحر القادر عن طريق شعره (سحره) أن يقول ما لا يقال في الخطابة الرسمية.²

"بدأ سميح مطولته من حيث انتهت المسرحية، فبعث نفسه حين مات هاملت وتكلم حيث صمت"³ ليثير الدهشة بين الحضور ويحدث المفارقة الكبيرة، أن الفقيد يحضر مهرجان تأبينه هو، حيث يقف وكأنه من أقرباء الفقيد لا الفقيد نفسه، ليلقي خطابا يشكر فيه كل الوفود التي حضرت مهرجان التأبين لتشييع جثمانه، ومن اشترى له الزهور، ومن أفسدت مكياجها بدموع بكائها عليه، فتقف خسارة المكياج إلى جانب خسارة الزوج بالموت مفارقة ساخرة تقود إلى أخرى: شكر الذين قطعوا لرحيله الإجازة⁴، يقول سميح القاسم:

يطيب لي الآن أن أجزل الشكر، من كل قلبي القوي

لكل الوفود التي احتشدت من أقاصي البلاد

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج2، ص 110، 109

² انظر، الديك، إحسان القناع والرمز في سربية القاسم كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه. تلك جمجمة الشنفرى. ص60،

61

³ المصدر نفسه، ص61

⁴ لؤلؤة، عبد الواحد: المفارقة الساخرة في شعر يميح القاسم كلمة الفقيد مثالا. تلك جمجمة الشنفرى. ص 140

لتشييع جثمان شخصي الضعيف و لكل الذين

أتاحوا لنعشي رحيلا مريحا على رمث أكتافهم

ولكل الذين اشتروا لي أكاليل زهر بطيء الذبول¹

ثم لا يلبث أن يعزيهم، ويذكرهم بقدرهم المحتوم وبأنهم للاحقون له ليواجهوا مصيرهم
جنة أم نارا، قائلا:

فأنتم إلى حيث شاء العلي العظيم القديم القدير الرحيم

على إثرنا قادمون

إلى جنة أو جحيم

وإنا له وإليه كعادتنا راجعون²

ثم يفاجئ الشاعر الحضور بحقيقة موته (موت الإنسان الفلسطيني)، فيقول:

أجل مت غدرا

واستأذن الموت كي أشكر الطعنة الغادرة³

حيث مات غدرا من فئة كان يؤمل فيها الخير (زوج عمي /الدول العربية)، وهنا يظهر
تطابق حالة هاملت (حيث قتل عمه أباه وتزوج أمه)، مع حالة الإنسان الفلسطيني (حيث ساهم
العرب في نكبته وتمكن الاحتلال من وطنه)، في جو من الوضوح الشديد فيما يخص (زواج أمه
/احتلال فلسطين) ومن الغموض الشديد فيما يخص (عمه / العرب):

ويا أصدقائي

لموتي وموت أبي ما يشاء الرواة الثقافات الثقاة

وفي عرس أُمي

¹ القاسم، سميح: كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه. مجلة الشعراء. 2. 1998. ص9

² المصدر نفسه، ص 10

³ المصدر نفسه، ص 10

وضوح شديد

وفي الزوج، عمي،

غموض شديد¹

ودخل في حالة محيرة من الضياع داخل عالم الموت في الحياة والحياة في الموت:

وأذكر كيف تذكرت أنني نسيت وكيف نسيت

وكيف تذكرت أنني تذكرت أنني نسيت

وكيف أموت لأنني أعيش

وكيف أعيش لأنني أموتي²

يسخر الفقيده مرة أخرى من المؤمنين الذين اعتقدوا أنه مات، وتستمر مجاملاته الساخرة
بقراءته نعيه سعيدا على صفحات الجرائد، ورؤيته للموائد التي تمتد على اسمه، واستهزائه
بالحزن المصطنع على وجوه الحاضرين، يقول:

وها أنذا أجزل الشكر

يسعدني أنني أستطيع قراءة نعيي على صفحات

الجرائد

ويسعدني أن تمد على اسمي الموائد

ويضحكني كل الطنين الذبابي

هذا الأسى المسرحي³

وبين أن رثاءه بسيط سهل في مقابل موته الصعب العسير:

رثائي يسير

¹ القاسم، سميح: كلمة الفقيده في مهرجان تأبينه، ص 10-11

² المصدر نفسه، ص 12-13

³ المصدر نفسه، ص 15

وموتى عسير..¹

وفي خضم حالة من اليأس والقنوط، يطلب الشاعر الموت كحل له:

لتطبق زوابع حزني على قلعة الموت

ولتختصرني المنية!²

"وهنا إشارة إلى تفكير هاملت بالانتحار في المناجاة الشهيرة " أأكون أم لا أكون؟ " ذلك هو السؤال أو المسألة: تفكير هاملت بالانتحار هو طلب الموت تخلصاً من عبث الحياة المريع ولكن إلى مجهول يكون العبث فيه أشد مرارة³.

وأدركت. أدركت أنني أسير السؤال اللجوج. وأني

في حمأة اللغز راسف

أكون (كما تشتهي الحياة !)

وآلا أكون (كما تدعيني المتاحف !)⁴

ويصور المسؤولون العرب الذين لا تعنيهم قضية الفلسطينيين وأوجاعهم، ويستغلونها بما يخدم مصالحهم الشخصية، بمن يولمون الولايم فوق القبور على شرف الموت، ويرقصون فوقها سكارى، يقول القاسم:

وحولي..على شرف الموت يولم أهل الحياء

ولاثمهم.يرقصون سكارا.يغنون بين القبور.

ويسقون أمواتهم سؤرة لا تطيل حياة

ولست تقصر عمرا.. متى أستريح?⁵

¹ القاسم، سميح: كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه، ص 16

² المصدر نفسه، ص 18

³ لؤلؤة، عبد الواحد، المفارقة الساخرة في شعر سميح القاسم "كلمة الفقيد" مثالا، تلك جمجمة الشنفرى. ص 144

⁴ القاسم، سميح: كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه، ص 20، 21

⁵ المصدر نفسه، ص 22

وآخر طلبات المحكوم بالموت صدقة تتمثل بـ"سجارة"، وهي تشكل رجاءه الأخير في هذه الحياة وموت وثير تعوض عليه حياته الصعبة:

ومن يتصدق منكم علي.. بسجارة في رجاء أخير

وموت وثير. فينسى رماد. وتذكر ربح.¹

قاسى الشاعر/هاملت كثيرا في حياته ما جعله يبتعد عن نبع الحياة، ويضحى قريبا من الموت:

زحفت. وجلدي اهترأ

ولحمي اهترأ

وعظمي علاه الصدا

وأعلم أني بعيد عن النبع. أعلم أني قريب من الموت²

ولما ابتعد عن نبع الحياة التي زحف إليها بشتى الطرق، استسلم الشاعر لمشئنة الموت (الظما) المخالفة لمشئنته، لعله يرتاح به ويبعث من خلاله بمشئنة الينابيع، يقول:

إن. فليكن ما يشاء الظما

وما لم أشأ

ويا أيها الموت صلت

سيوف الجفاف على عنق هملت

ليرتاح بالموت هملت

لعل الينابيع تأذن بالبعث يوما لهملت..³

¹ القاسم، سميح: كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه، ص 22

² المصدر نفسه، ص 28

³ المصدر نفسه، ص 28

وبهذه الأمنية يصل الشاعر للنهاية البداية، وقد شكلنا نقطة واحدة ابتدأ منها وانتهى فيها كبناء دائري، ليؤكد حقيقة أنه الفقيد الحاضر في حشد من الحضور الموتى " يتضاءل اللحن الرئيس في الختام "ماذا أقول " ليعود إلى بداية الخطاب: ماذا أقول؟ ليذكرنا بأن القول "يسير" والفعل "عسير" ¹

تتميز النهاية بأن الشاعر أضاف مكرراً " ماذا أقول " وقد تكررت أربع مرات وكأنها دورة الحياة الممتدة في أربعة فصول. ثم أن صوت الموت "يليق بهذا الأقول " هو الذي يسيطر على النهاية في ثنائية مظاهر الحياة في بداية القصيدة، وبين مظهر الموت في نهايته.²

الموت و(التناص التاريخي):

يعد التناص التاريخي بشخصياته وأحداثه مصدراً مهماً من مصادر الإلهام الشعري الذي يعكس الشاعر من خلاله روح العصر، ويكشف عن هموم الإنسان وطموحاته وأحلامه، مما يجعل النص الشعري ذا قيمة توثيقية يكتسب بحضورها برهاناً ودليلاً على كبرياء الأمة أو انكسارها، من خلال التشابه بين الماضي والحاضر.

وطبيعة التعامل مع المعطيات التاريخية وأسلوب توظيفها الفني هما اللذان يمنحانها الطاقة الشعرية والقوة الدلالية، ويجعلان لها حضوراً قوياً وفاعلاً في مختلف النصوص الأدبية. فالشاعر يعيد كتابة التاريخ ممتزجاً بواقع العصر، ووفق واقع معرفي جديد يجمع بين الماضي والحاضر ويستشرف آفاق المستقبل.

من الأمثلة على استلهاهم المواقف والأحداث التاريخية استحضار سميح القاسم مقولة أسماء بنت أبي بكر الشهيرة -عندما كانت تمر على جثة ابنها عبد الله بن الزبير المصلوبة جيئةً وذهاباً تتساءل في ثبات " أما أن لهذا الفارس أن يترجل ³ - في مراثيه عندما يقول:

أهز لو أهز من سباتها المعموره:

¹ لؤلؤة، عبد الواحد، المفارقة الساخرة في شعر سميح القاسم "كلمة الفقيد" مثلاً، تلك جمجمة الشنفرى احد لؤلؤة ص 150

² حمزة، حسين: رثاء الذات، محورة التضاد، تلك جمجمة الشنفرى. ص 92

³ حلاوة، حديوي: الشهيد المصلوب عبد الله بن الزبير. القاهرة: الدار العربية للكتاب. 1995، ص51

بالصوت

يا سامعين الصوت

آن لهذا الفارس الصغير

أن يترجل

عن جواد الموت ¹

يرفض الشاعر واقع الموت المستمر المفروض على الشعب الفلسطيني الذي تحدى الاحتلال الإسرائيلي وتصدى له مدافعا عن حريته، ويطلب حدا ونهاية له وهو بذلك يستحضر شخص أسماء التي استنكرت طول الفترة الزمنية لصلب ابنها، وباتت تتمنى نهايته لتتمكن من تحنيط ابنها وتكفينه قبل موتها. لا يكتفي الشاعر بتوجيه الخطاب للأعداء لإيقاف القتل بل يخاطب الأحباب الذين تخلوا عن الشعب الفلسطيني وتركوه وحيدا مستضعفا يتصدى للاحتلال الإسرائيلي، في حين تقع على عاتقهم مسؤولية تقديم العون والمساعدة، وحالهم كحال عبد الله بن الزبير الذي واجه الحجاج المستبد مع القلة التي بقيت معه فقاوم حتى قتل مدافعا عن عقائده، يقول القاسم في قصيدة "من هنا تعبر النسور":

وأنادي..ودمي أحقاد مرجل:

آن للفارس يا أعداءه أن يترجل..

آن للفارس يا أحبابه أن يترجل ! ²

كما يتناص الشاعر مع قول طارق بن زياد "يا أيها الناس أين المفر فالبحر من ورائكم والعدو أمامكم" ³ في خطبته الشهيرة إبان فتح الأندلس، فيقول في قصيدة "وكانت قرية اسمها سيرين":

يا فارس الموت ولا الخنوع

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج4. ص 99

² المصدر نفسه. مج1. ص 151

³ زكار، سهيل، وفايزة محمد كلاس: تاريخ الأندلس. منشورات جامعة دمشق كلية الآداب والعلوم. 2016. ص 21

الموت من ورائنا والموت من امامنا

يا فارس الموت، انتبه

لا وقت للرجوع

العتمة اكتظت وصارت زبدة فاسدة¹

قيل إن طارق بن زياد أحرق السفن لكي يضع المسلمين أمام أحد أمرين: الغرق في البحر من ورائهم، أو الهلاك المحقق من قبل النصارى من أمامهم، وكلا الأمرين موت محقق؛ ومن ثم فالحل الوحيد لهذه المعادلة الصعبة هو الاستماتة في القتال؛ للهروب من الموت المحيط بهم من كل جانب؛ فكانت النتيجة الطبيعية الانتصار، ولو كانوا يملكون العودة لكانوا قد ركبوا سفنهم وانسحبوا عائدين إلى بلادهم، ولكن سميح القاسم عندما تناص مع هذه المقولة حورها واستبدل لفظة الموت بلفظي (البحر والعدو) على الرغم من أنهما يشكلان موتاً حقيقياً، إلا أن (العدو) يحتل الهزيمة والموت كما أنه يحتل النصر والحياة، ولكي تتسجم المقولة التاريخية مع رؤيا الشاعر اليائسة استبدل الموت المحقق بالعدو بحيث ينعدم الأمل بالنجاة.

ويستلهم مقتل عثمان بن عفان وقميصه الغارق في الدم في قصيدته "عزيزي إيفان ألكسييفتش أكتوبر" للدلالة على الفتنة الكبرى التي يعيشها الشعب الفلسطيني والتي أدت به إلى التهلكة وحالة انكسار الشاعر ويأسه إثر حرب أكتوبر حيث إنه قتل بخنجر عربي مسموم، يقول الشاعر:

قميصي غارق في الدم يا إيفان

ونصل الخنجر المسموم، ما زالا

يحر في لحمي

وطاووس الخيام السود والنبالم، ما زالا

يجوب البيت مختالا²

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 210

² المكصدر نفسه. مج1. ص 322

ويقول في موضع آخر من القصيدة نفسها:

قميصي غارق في الدم

ووجهي مثقل بالوحل

وراياتي ممزقة..¹

إن استحضار قميص عثمان يعكس رغبة الشاعر المبطنة بالتحريض على النصر والأخذ بالثار لهذا الشعب المغدور، فقميص عثمان الملطخ بدمه قد استخدم لإثارة الجيش الفاتر وشحن هممه للأخذ بثار عثمان من قاتليه، يستحضر الشاعر هذه الحادثة التاريخية ويصوغها فيما يتناسب مع حالته السياسية والنفسية ويدعمها، فيستميل المتلقي إلى قضيته ويستثير عواطفه تجاهها.

استلهم القاسم لمعطيات التاريخ حقق له الإحساس بالأصالة، لينطلق منه إلى آفاق رحبة من الإبداع، فلا بدّ للإبداع الحقيقي أن يكون مرتبطاً بواقع المجتمع وتراثه التاريخي مقروناً برؤية عميقة للواقع.

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، ص 323

المبحث السادس

الموت والتقمص

الموت و التقمص

ينتمي سميح القاسم إلى المذهب الدرزي الذي كان له دور في تشكيل فكره ومعتقداته ومنها معتقداته في الموت والتقمص.

ويعد الموت عند الدروز الموحدين من أهم الأسباب التي يجب أن تقود الموحد إلى التمسك بأهداب الدين وتوسل رحمة الله. فإذا كانت القيامة بنظرهم قريبة فالموت أقرب، وهو حق وقضاء محتوم، والإنسان يموت متى دنت ساعته، وهذه الساعة مقدرة بحكم الله تعالى لا تقدم ولا تؤخر، و الخوف من الموت من البواعث الأساسية التي تشد الموحد إلى احتقار الدنيا والتخلي عنها، وهو لا يعني أن الإنسان عندما يموت يفنى وينتهي، بل سيمر في مرحلة حاسمة من مراحل تعاقب روحه في أدوارها و أقمصتها المختلفة، والنتيجة الحاصلة في دور من الأدوار هي عينها النتيجة الحاصلة من الموت في جميع الأدوار.¹

الموت عندهم "محطة تستبدل فيها النفس الخالدة بالقميص البالي، قميصا جديدا. والقميص هو الجسد وعملية الاستبدال هذه تدعى عندهم بالتقمص، وهي عملية لا بد منها لأن الروح في مذهبهم على خلودها لا تثبت كينونتها إلا في جسد "²

والتقمص مذهب في خلود النفس يعود إلى أزمنة قديمة في تاريخ التدين الإنساني، باعتبار أن النفس لديهم لا تموت، بل يموت قميصها (الجسم)، ويصيبه البلى، فتنقل النفس إلى قميص آخر، وهو ليس تطورا للروح في هذا الدور، بل هو تقلب الروح في شتى الأحوال، لكي يتسنى لها أن تختبر هذه الأحوال.³

¹ انظر، أبو خزام، أنور فؤاد: إسلام الموحدين المذهب الدرزي في واقعه الإسلامي والفلسفي والتشريعي. ط1. لبنان: دار الفارابي 1995، ص 312 – 338

² المصدر نفسه، ص339

³ انظر الخطيب، محمد أحمد: عقيدة الدروز عرض ونقض. ط1. الأردن: مكتبة الأقصى 1980. ص 145

وفي اعتقادهم أن الأرواح في العالم، أو النفوس عدد محدود وثابت وهي تتناسخ بعد الموت مباشرة إلا ما بلغ الكمال منها فإنها تصعد إلى النجوم،¹ وتبعا لذلك أيضا، لا توجد حياة برزخية ولأن الأرواح التي تترك أجسادها تنتقل رأسا إلى أجسام أخرى لمواليد جدد، يقول سميح في سرية الوضوح في ذلك:

كل حي يموت. ويحيا بنار الخلايا ونور السمات

وأموت لاحيا. وسوف أموت و أحيا

لتكتمل الدورة الخالده

هكذا.. كل ما تحمل الأرض من كائنات

نطفة واحده

واحدة

وهي راحلة عائده

بين جسم وروح²

أما جزاء ومثوبة النفس أو الروح فهما بمقدار ما تكتسب من المعرفة والعلوم في أدوار انتقالها من قميص إلى قميص.³ فلا جنة ولا نار، فكل من يموت تنتقل روحه إلى جسد آخر، حسب عمله، فإن كان صالحا انتقلت روحه إلى جسد أفضل من الجسد الأول، وإلا فإلى جسد أقل مكانة، وخلال تنقله في الأجساد يتتعم ويتعذب ولهذا فإنهم يعتقدون أن المصابين وذوي العاهات مصابهم كان نتيجة ذنوبهم السابقة في حياتهم.⁴، يقول سميح القاسم:

هل يطفئ ظمأي

كوثر مولاي الجسد (العبد والمعبود)؟

¹ انظر، الحفني، عبد المنعم: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية. ط2. مكتبة مدبولي. 1999 ص344

² القاسم، سميح: بغض النظر. ص 64

³ انظر، رستم، سعد: الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات. ط1. سورية: الأوائل 2004. ص 320

⁴ انظر، العموش، بسام علي سلامة: مذاهب وفرق دراسات نقدية. ط1 الأردن: الأكاديميون 2009. ص 281

السابق جسدي

واللاحق جسدي مسكونا بمباهج تقواري الأبدية

والموت - تقية¹

يعمد سميح القاسم، إلى توظيف ظاهرة التقمص في شعره لكن ليس من باب الإيمان الديني بصورة مباشرة بقدر ما هو محصلة للتفاعل بين الخلفية الدينية وبين أسطورة العنقاء وشهوة الحياة، ومبدأ خلود المادة في تحولاتها وتجدها الأبدية²، يقول الشاعر في كولاج³:

جسدي

ليس إلا قميصا لرجس الحياة.³

فالشاعر هنا يؤمن بأن جسد الإنسان قميص سييلي، وما يخلد ويتجدد هو الروح. وقد وظفها أيضا إيمانا منه بجمال فكرتها من الناحية الفنية، يقول: " هذا التحول من شكل إلى شكل ومن جيل إلى جيل ساعدني في تأكيد البقاء الفلسطيني واستمرارية الفلسطيني، وساعدني أيضا في استيعاب نبتة الصحراء التي تقذفها الصحراء وتعود "⁴، يقول القاسم في قصيدة السجلات:

له الآن أن يتقمص جثته الباقية

ويخرج للشارع العام

حرا طليقا، على صورته

أمام إرادته الحافية

وفي وجه دبابة قطفت لحمه

ولما تزل في الطريق

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص422

² انظر مقابلة - رفيف فتح - الكرمل - 86/22/12، ص 245

³ القاسم، سميح: كولاج 2 . ص 13

⁴ مجلة الشعراء عدد 7 - 1999. ص 126

لتقطف أزهار حاكورته¹

يعكس المقطع الشعري إيمان الشاعر بظاهرة النقمص ومنها استمد شجاعته وقوته في التصدي للاحتلال الإسرائيلي، فالمقاوم يخرج حرا طليقا غير مرتبط بزمان محدد يحد من قدرته على المقاومة، ولا يخشى الموت، فيتحدى دبابه صور قتلها له بقطف الزهور فالموت ضمن رسالة سطرت في إطار من عقيدة النقمص سهل، لأنه يعلم أنه عائد إلى الحياة من جديد كما أنه يعلم أيضا أنه ميت مرة أخرى لذلك يرى قميصه الجديد جثة باقية، وعندما لم تستطع الدبابه قهره بالموت، حاولت أن تسحق كيانه بقطف أزهار حاكورته، لأنها تشكل نقطة ضعفه وهي تعلق الفلسطيني الكبير بالأرض.

في السجل الثالث والثلاثين يتجرد الشاعر من كل قمصانه التي ظهر فيها في الأدوار المختلفة المتتالية، فهو لم يعد الإنسان المتمرد الفادي لشعبه، إنما هو الإمام بجلاله وقده، وهو الإله المتجسد على الأرض:

كم ولدت وكم يا قميصي ولدت

وكم كنت كي لا أكون

خلوتي جسد سابع

سبعة سبلي

يدخل الخارجون

ريثما يخرج الداخلون

وأنا واحد في التلاوات

منتشر في الكيانات²

يسلم الشاعر أمره لله ليفعل به ما يشاء في كل الأجيال، فيقول في السجل الثاني:

خذ عني قمصاني اليالية

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج3. ص 436

² المصدر نفسه. ص 417

تعال وغيني ما شئت

غلالة روعي ناصلة

تابوتي فاصلة¹

موت الشاعر مرحلة مؤقتة (تابوتي فاصلة)، فهو يدرك أنه موت للجسد فقط دون الروح التي ستبعث من جديد في جسد آخر. لأن الحياة التي مرت وصارت وراءه، تتبعها حياة أطول أمامه، وكما جاء بالحق سيموت على الحق وسيعود عليه، يقول في سربية (بغض النظر):

وأعلم أن الرحيل عسير على القادمين

وأدرك أنني أمر بموتي مرور الكرام

لأن الحياة ورائي

وكل الحياة أمامي²

ثم يتقمص الشاعر في السجل العشرين من (السجلات) على صور مختلفة ليتحدى العدو والموت والفناء فيقول فيها:

تعثرين علي إذا شئت

في كل أرض

لدى كل جنس

على أي شكل³

و يشير في قصيدة (ريبورتاج..عن حزيران عابر) إلى تجدد حياة أفراد الشعب الفلسطيني المقاوم الصامد ومنهم المرأة - في وجه ممارسات الاحتلال العنيفة فيقول:

وقبل أن يلوي بك الغروب

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 423

² القاسم، سميح: بغض النظر. ص 79

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 475

صعدت بالظهيرة..

أجسادك الكثيرة

محبوكة في جسدي يا زوجتي الفقير ه¹

فهي تنقص في أجساد عدة كلما سقط أحدها ولد في آخر، وهذا يدل على الاستمرارية والتجدد للشعب الفلسطيني في وجه الموت اليومي الذي يواجهه ويدعم المعنى كونها زوجة وأما.

كما أنه استعار النقص للمشرّد الفلسطيني الذي يواجه الموت يوميا في بلاد الغرب، لعله يجد فيه طريق العودة إلى البلاد، ولكنه لم يشترط العودة في أجساد إنسانية بل لا يجد مشكلة في أن يعود نهرا أو مئذنة أو زيتونة، فيقول في (مراثي سميح القاسم):

أعبروا الغريب قميصا ليستر عورته ريثما

(تقص بالأمس نهرا فجاءت خيول مجنحة

شربت نهرة، فاكثوى ساغبا لاغبا واكتوى

تقص مئذنة. ثم جاءت نسور الخرافة

فانهارت المئذنة

تقص زيتونة غير أن الرياح)

وما راح راح.²

وهكذا يجد المتلقي أن سميح القاسم وظف النقص في خدمة قضيته التي يعمل لانتصارها، ولتأكيد حقائق ستظهر للجميع، وانطلاقا من رؤيته بأن كل المحاولات لا تستطيع إخماد صوت الإنسان الفلسطيني، ولا يعرف الموت كيف ينهي وجوده، فهو يموت ويعود في الجيل الآتي، من دور إلى دور ومن جيل لآخر تنتقل مسؤولية المطالبة بالحقوق والحرية.

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، ص 77، 78

² المصدر نفسه. مج. 4. ص 86

الفصل الثاني

موت النحن

الفصل الثاني

موت النحن

إن ما يميز شعر سميح القاسم هو ارتباط وجدانه الفردي في قصائده بالوجدان الجماعي، فغدا الناطق بلسان الجماعة وهمومهم، وقد كان الهم الفلسطيني هو الذي يشغل باله، والإنسان الفلسطيني هو المحور الرئيس في شعره، الذي يلوح المتلقي من خلاله متانة الرابطة الاجتماعية في فكر سميح، إذ لا يكاد ينسى أحدا من ضحايا هذا الشعب الرازح تحت الاحتلال، يكتب من أجلهم القصائد، فيسميهم بأسمائهم، ويثني على بطولاتهم، ويقف في صفهم ليكون بذلك وفيما لرؤيته الواقعية الاشتراكية التي تنتصر أساسا للطبقات الكادحة المهضومة في ظل الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المحيط به، والمناقض والمحطم لأحلامه الكبيرة.

فشعبه العربي الفلسطيني شرد بعيدا عن الوطن، وأصدقاء الطفولة أبعدتهم عنه الحدود فغدت الغربة موتا يمتص روحهم ببطء شديد، كما أن الوطن العربي الكبير الذي كان يحلم به ويرسم خارطته قد مزقت وحدته مطامع الدول الكبرى وخيانة الزعماء العرب التي قتلت آمال الفلسطيني وأحلامه وتركته صريع اليأس والعجز.

أصبح الوطن العربي الكبير دويلات لها حدود مقدسه تفتتها خلافات مستمرة ومطامع ذاتية للحكام لا نهاية لها، حيث جاءت الانكسارات والنكسات المتتالية وعجز العالم العربي أمام جيروت إسرائيل لتكون هلاكا محققا للشعب الفلسطيني. فبات الموت حالة يومية معتادة ضمن العديد من المذابح التي تعرض لها، والممارسات الدموية التي مارسها العدو عليه لقمع كل أشكال المقاومة والانتفاضة، فكان الشاعر "يلتقط تلك اللحظات الدموية ليختبر بها قدرة الموت العنيف، وحدوده في إمكان إنتاج حياة جديدة أعنف ضمن مسار أيدلوجي يجتهد في تحويل سقوط أجساد الشهداء إلى ملحمة ضاجة بالأبعاد الخصبة لذلك الموت الذي يعد أساسا لتصحيح أخطاء سياسية " ¹

¹ المساوي، عبد السلام: جماليات الموت في شعر محمود درويش، ط1. لبنان: دار الساقي. 2009

المبحث الأول

الموقف العربي والموت

الموقف العربي والموت

رأى سميح القاسم في تخاذل الدول العربية لنصرة فلسطين و مواقفها السلبية تجاهها في أكثر من موقف موتاً حقيقياً يغتال الفلسطيني كل يوم، خاصة وأن الوطن العربي وبالتحديد فلسطين تكثر فيها النكبات والأحداث الصادمة والدائمة.

فقد مهدت مجموعة الأحداث المتعاقبة على الأمة العربية لحدوث النكبة عام 1948، بداية من دخول الاستعمار البريطاني إلى الأرض العربية واحتلال الأراضي و المدن إلى وعد بلفور عام 1917 الذي مهد لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وأمدت بريطانيا وأمريكا القوات اليهودية بالسلاح. وعملت طوال فترة انتدابها على فلسطين مع القوات اليهودية المدربة والمدججة بالسلاح على التصدي للمقاومة الفلسطينية- والتي لا تعدو كونها جماعات متفرقة ومجاهدين بأسلحة بسيطة- تحت ستار المحافظة على الأمن فاعتقلت زعماء الشعب الفلسطيني وشردتهم وأبعدت بعضهم إلى خارج البلاد، وكبتت كل مظاهر من مظاهر المقاومة كم أنها أنزلت بالمناضلين أشد العقوبات مما أضعف النضال العربي الفلسطيني.¹

أين كان العرب من كل ذلك؟ أين كانت قواتهم وإعداداتهم؟ يقول سميح القاسم في الموقف العربي السلبي في قصيدة (حتى الموت):

- أتبكي؟!

- ناقلات النفط مازالت على البحر

وجدي لم يزل يقرأ ديوانا من الشعر

- أتبكي؟!

وأمي تحت أرجلهم !! ألا تفهم؟ مقتولة

¹ السويدان، طارق محمد: فلسطين التاريخ المصور. ط3. الكويت: مطابع الخط. 2004. ص264-269.

وجدي يضغط الشمس على تمباك أرجيلة

ألا تفهم؟ مقتولة!¹

بينما كان الشعب الفلسطيني يمارس بحقه أبشع الجرائم كانت القوات العربية تنتظر انسحاب بريطانيا من الأراضي الفلسطينية حتى ترسل قواتها المجهزة لملاقاة القوات اليهودية، يظهر الشاعر في المقطع السابق حال الفلسطينيين ممثلين بأمة المقتولة، وحال العرب المستعدين بناقلات النفط- وهي قوة لا يستهان بها- تنتظر، وحال الشارع العربي- ممثلا بالمخاطب في الحوار الشعري السابق وفي شخصية الجد- لا حول له ولا قوة أمام الأنظمة العربية إلا بالبكاء والتغني بأمجاد الماضي. وفي ذلك أيضا يقول في قصيدة (أنا ضمير المتكلم الذي التحم بالفعل الماضي الناقص):

منذ أدمى جبهتي عام وراء الأربعين.

أيها العالم، صارت رثتي

كير حداد حزين

واستحالت لغتي

جمرة، سوطا فدائيا.كمين

أيها العالم، هل تسمع؟

صارت زنبقاتي

زنبقاتي - آخ- أبواقا تدوي

لاحتراقي في خيام اللاجئين²

يوضح المقطع السابق وضع الفلسطيني في ذلك الوقت، فهو لاجئ مقاوم في حين كان العالم ينظر ويستمتع دون أن يحرك ساكنا (فعلا ماضيا ناقصا)، كما هو حاله في كل وقت.

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 1، ص 159

² المصدر نفسه. مج 1. ص 398

وجد سميح الفلسطيني نفسه وحيدا في مواجهة الاحتلال الصهيوني ورأى أن العرب خونة يريدون تسليمهم للأعداء، فتهللت لديه رايات الحق والعزة العربية أمام ما يحدث في بلاده

يقول الشاعر في قصيدة (الأعلام):

أنزلوا مهزلة الألوان عن شم القلاع

واغسلوها بدموع الأمهات

والصبايا الوالهات

بعد أن ودعن أحبابا

مضوا للحرب أمالا..وغادروا ذكريات.

اغسلوها..علها تبيض تبيض..وترتد شعاعا أو شراعا

ينقذ الأحياء من نكبة ميناء وحيد يتداعى¹

يبدأ الشاعر ساخرا محتقرا لرايات العرب التي ترفرف عالية دون أن يكون لها فائدة، ويرى فيها مهزلة فهذه الرايات الملونة بألوان ذات معان وقيم لا يجدر بها أن تكون على قمم عالية لكنها فارغة، ثم يستهض همهم بدموع المرأة الفلسطينية الأم والحبيرة على رجال غادروا بأمل إلى المعركة لكنهم لم يعدوا وبقوا ذكريات، لذا يطلب الشاعر منهم أن يوحدوا صفوفهم ويكرسوا طاقاتهم لرد الظلم عن فلسطين وإنقاذ الفلسطيني من التشرد والضياع.

ومع أعمال الاحتلال الإرهابية اشتعلت المظاهرات في العالم العربي والإسلامي، وتحت هذا الضغط بدأت قوات الإنقاذ العربية بالزحف إلى فلسطين تدريجيا بعد انسحاب القوات البريطانية ولكنها كانت ضعيفة التنسيق فيما بينها ومتخلفة في سلاحها المتهترئ الصدى الذي كان ينفجر في وجوههم.

كانت معركة غير متكافئة فجاءت الهزيمة لتزلزل كيان الشاعر بعد أن ملأ الأمل نفسه لتدخل القوات العربية، وظن أنها السبيل إلى نصر سيخلد في التاريخ، لكن هذه الفرحة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، ص 194

التي احتوته لم تدم طويلا بخيانة الأصدقاء وانهزامهم، يقول الشاعر في قصيدة (البيت الحزين):

وغداة رفت رايتي الحمراء في وهج المعارك

وهتفت بارك خطوتي للفجر

يا تاريخ بارك

غاصت بظهري حربة من أصدقائي الخاذلين¹

كانت الهزيمة حربة طويلة نافذة قاسية غاصت في ظهره. وتوحي دلالة (غاصت) إلى عمق الأثر الذي خلفته الهزيمة في نفس الشاعر الذي يمثل كل فلسطيني في تلك اللحظة كما توحي دلالة (الظهر) إلى كون الأمر غير متوقع منه سابقا، وهذا ما يظهره بداية المقطع الشعري حين كان يهتف بمباركة الرايات.

هذه الضربة العميقة التي ألزمت الشاعر بيته حزينا جعلته يعاني من الموت البطيء حيث يقول في قصيدة (تعالى لمرسم معا قوس قزح):

نازلا كنت، على سلم أحزان الهزيمة

نازلا.. يمتصني موت بطيء²

حتى وإن كان الموت في ساحة المعركة قاسيا موجعا فهو أهون من الموت كل يوم بأحزان الهزيمة، يمتص روحه وقواه ولفظة (يتمصني) توحي بالمبالغة في الموت حزنا.

بث الشاعر في قصائده عوامل الهزيمة منكرا مستكرا لها. يقول في قصيدة (التعاويد المضادة للطائرات) والتي من خلال عنوانها الساخر يمكن استشفاف أحد هذه العوامل وهو التفكير الرجعي الخاطئ:

عسكر "الاتقاذ" يا عار الرجال

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 1، ص 314

² المصدر نفسه. ص 449

أقبل الفاتح يا أبناء رامة

أقبل الفاتح يا ناس

فلوذوا بالسلامة..

ما الذي تجديكم الآن أناشيد الكرامة؟

صوبوا كل التعاويذ بوجه الطائرات

واقذفوها بالوصايا العشر

والجفر

وآيات السماء البيّنات¹

يفصح الشاعر بأسلوب ساخر من خلال قصيدته عن أهم أسباب الهزيمة، وهي مواقف الأنظمة ممثلة بعسكر الإنقاذ إضافة إلى تحالف الكيان الصهيوني مع عدد من الدول الكبرى لتثبيت وجوده على الأرض المحتلة وعقلية الإنسان المنكوب التي تواجه الحرب والهزيمة بالأفكار الرجعية حاله كحال مواطن العالم الثالث، ويقول في موضع آخر من القصيدة ذاتها:

إنني أركل قاذورات ذلي وانكساري

للتكايا وال دراويش

وأقزام الكراسي النابحين²

لذا ينصب الشاعر نفسه إلها ويحكم عليهم بالموت لأنهم شوهوا التاريخ العربي الحافل بالانتصارات القديمة ولم يبلغوا مبلغ الأبطال الرجال.

إنني أصرخ من قعر جحيمي

يا وحولا لصقت في نعل تاريخي العظيم

إنني أحكم بالموت عليك

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 1، ص 311، 312

² المصدر نفسه، ص 313-314

فأعدي كفنا من جلد أنصاف الرجال¹

"وجاءت الانكسارات والنكسات المتتالية مثل: انفصال الوحدة السورية المصرية وانتكاسة الثورة العراقية والردة الرجعية في العالم العربي سنوات الستين الأولى وعجز العالم العربي أمام جبروت إسرائيل وإصرارها على تحويل مياه نهر الأردن - وقد حولته فعلا - ونكسة حزيران"²

فأعلنت الدول العربية استعدادها لمعركة المصير وتحرير فلسطين واستنفرت الجيوش العربية لتتدخل حرب الخامس من حزيران عام 1967، وبالرغم من أن إذاعة صوت العرب في الأيام الستة الأولى كانت تذيع أخبار انتصارات الجيوش العربية وأخبار إسقاط الطائرات الإسرائيلية بالمئات، إلا أن الجيوش العربية في تلك الليلة كانت تعيش ليلة أنس وسهر³، وفي ذلك يقول سميح القاسم حزينا ساخرا في قصيدة (من هنا تعبر النسور):

افتح المذيع.. كالعادة في كل الليالي

أم كلثوم.. تغني: "إنها قصة حبي".

وأغني: إنها قصة حزني !

وأغني.. وأغني.. وأغني

أم كلثوم اطمئني

يصبح الحزن - متى غنيت - حزنين اطمئني⁴

باغت الطيران الإسرائيلي، ودمر الطائرات المصرية وهي ما زالت في مدرجاتها، ثم تتالت الخسائر العسكرية الكبيرة، والاندحار العسكري المروع، وبعد انتهاء الأيام الستة ظهرت الكارثة وتكشفت المعركة عن هزيمة نكراء، تحنل فيها إسرائيل الضفة الغربية وغزة كما احتلت سيناء ومرتفعات الجولان.⁵

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، ص 313، 314

² القاسم، نبيه: سميح القاسم مبدع لا يستأذن أحدا. ط1. دار الهدى للطباعة والنشر كريم. ص 113

³ انظر السويدان، طارق: فلسطين التاريخ المصور. ص 299

⁴ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج 1. ص 150

⁵ السويدان، طارق: تاريخ فلسطين المصور. ص 299

كان حدث النكسة مأساويا، إذ ترك أثرا بالغاً في نفس الشعب الفلسطيني، وفي نفس الشاعر لما أصاب الشعب العربي من خيبة وفجيعة، وألم وتقهر، وقد نظم الشاعر قصائد عدة مما يدل على معاناته المريرة بما يشبه الموت والشعور بالخيبة والفشل وأثر النكبة.

يقول ساخرا من كل الذين كانوا سببا في ضياع الضفة وتأبينها في قصيدة (مزامير 5-67 في الذكرى الأخيرة):

مزمور لرئيس الديوان الملكي

النائم في ركن الغرفة

خجلا من حزن المندوب العكي

في حفلة تأبين الضفة:¹

ويواصل سخريته في موضع آخر من القصيدة قائلا:

أعداء الله ورسل الله وكل القديسين

وصموني بالجبن، وكانت غارتهم

غادرة تحت جناح الليل

وكانت نفاثاتي نائمة في طهر حمامات السلام

وصموني بالجبن

وكانت دبباتي تعبت لاهية في الطين²

يقف العالم من بعيد يرقب الأحداث الدامية هناك دون أن يتدخل ويعمل جاهدا ليلقى محافظا على علاقته بإسرائيل وبذلك يكشف عن حقيقة قناعه تاركا الإنسان الفلسطيني يواجه مصيره وحده، يقول الشاعر في قصيدة (سقوط الأفعنة):

سقطت جميع الأفعنة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة مج 1 ص 614

² المصدر نفسه مج 1، ص 616، 617

سقطت. فإما رايتي تبقى وكأسي المترعة

أو جثتي والزوبعة

سقطت جميع الأفعنة

سقطت قشور الماس عن عينيك

يا رجلا يصول بلا رجولة

يا سائقا للموت أحلام القبيلة¹

نجد الشاعر يميل "إلى تكرار مقطع بعينه ليؤكد المعنى المتصل بعنوان القصيدة في ذهن المتلقي من زاوية، وليحدث الإيقاع الذي يدخل في تعداد ألوان الموسيقى الداخلية لديه، من زاوية أخرى وتغدو هذه الموسيقى صورة نفسية يتفاعل معها المتلقي مفيدا من المعنى ومستمتعا بموسيقاها"²

عندها يتمنى الشاعر - وقد تصور نفسه عاجزا في ذلك الوقت - أن يتحول عار الهزيمة طاعونا يصيب المتخاذلين، وحزنه أفعوانا يلتف حول أعناقهم، فيقول في قصيدة (إلى جميع الرجال الأنيقين):

وليكن عاري طاعونا وحزني أفعوان

أيها الأحذية اللامعة السوداء.. من كل مكان

نقمتي أكبر من صوتي.. والعصر جبان

وأنا.. ما لي يدان!!³

يستجير الشاعر بالضمائر العربية ولا مجبر، وعلى سبيل التحقير والتقليل من الشأن خاطبهم بوصفهم الأحذية اللامعة، حينها يسقط ضحية ليأسه الواهم ويتمنى رصاصة الرحمة ليرتاح من هذا الألم المستمر، يقول الشاعر:

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، ص 361

² يونس، جمال: لغة الشعر عند سميح القاسم. ط1. دمشق: مؤسسة النوري. 1991. ص 230

³ المرجع نفسه، ص 144

طلقة الرحمة قداسي الأخير

أنا ناديت

أجيروني أجيروني

ولكن لامجير

سقطت طائرة الروح على بادية الوهم

وضاعت في خفايا القاع

ومرساة الضمير

طلقة الرحمة... آ..آ..خ¹!

تقطيع الشاعر لحروف لفظة (آخ) وتكرار الهمزة الممدودة، يجعل المتلقي شريكا له في الألم ولحظات الموت.

ثم جاءت حرب أكتوبر التي بدأت بانتصار، وانتهت بانكسار جديد ضاعت على إثره المزيد من الأراضي العربية وسفكت الكثير من الدماء يقول سميح القاسم في قصيدة (عزيزي ايفان ألكيبفتش أكتوبر):

جيني مثقل بالوحل، يا ايفان

وقلبي غاب أياما وراء وكالة الأنباء

وعاد لي محمولا مع الجرحى

على حمالة حمراء !

وراياتي التي كانت تمد الريح بالنخوة

مهللة: هلا مرحى ! هلا مرحى !

وتخفق وهي مزهوه

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج 3، ص 272

على نبض الملايين الربى الضوء والآلات والقمحا

غدت يا صاحبي ايفان

لقتلانا الوجدناهم..غدت أكفان!¹

فرح الشاعر مع من فرح بأخبار الانتصار الأولى التي كانت تبثها وكالات الأنباء، يحدوه الأمل موصولاً بنخوة العرب وأمجادهم الغابرة، فاستخدم عبارة (هلا يا مرحبا) الشعبية، وألفاظ (الضوء-القمح -النخوة) ليعزز هذا الأمل الذي سرعان ما يقتل وتبدل الأكفان بالرايات، (جيبني مثقل بالوحل) عاد الشاعر ليستخدم لفظة الوحل وما فيها من ذل وهوان لكن هذه المرة لم تلق فيه الأسلحة بل مرغ جيبين الشاعر العربي فيه ليزيد من دلالة الهوان.

وقف الشاعر حزينا حد الموت من واقع العرب البائس في أكثر من مقطوعة، مصورا واقعه المر المرعب ومواقفهم السلبية:

أيتها الشقيه

قتلتني..قتلتني

يا أمة الشبهة والتقيه

ويخط على صخرة قبري

بالحرف الكوفي:

مات شهيدا بالحزن العربي²

ثم إن أحداث بيروت عام 1988 وما سبقها ولحقها من غزو القوات الإسرائيلية للبنان وحصار بيروت، ومطاردة المقاتلين الفلسطينيين وترحيلهم عن لبنان، إضافة إلى مجازر صبرا وشتيلا. كل هذه الأحداث تركت أثرها البارز والحزين في شعر سميح القاسم:

أما من عجيبة؟

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج1. ص 322، 323

² القاسم، سميح: كولا ج 3. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2012. ص 45

شعوب تنام

طوابير أسرى وقتلى

وتصحو

جماهير قتلى وأسرى

هنا يقذف " العالم الحر "

كيس النفايات

هذا ملاك الجريمة

آت على متن " حاملة الطائرات ¹

يصور الشاعر جملة من التناقضات الموجودة في العالم العربي والعالم كله، فبينما ينام الشعب ويصحو على ممارسات الاحتلال البشعة من قتل وأسر، يتغنى العالم بشعارات الحرية الكاذبة وتمثيلها من جهة، ويمد الاحتلال بأسلحة تمعن في القتل والدمار من جهة أخرى، ليصبح القتلى بالألوف تحتاج إلى خنادق لدفنها كما دفنت الأسلحة العربية فيها من قبل، كل هذا ولم يكن هناك أية ردة فعل عربية سوى الصمت القاتل، يقول:

الريح تصفر في خواء عروقتنا وتئن: موتوا..في

فراش الصمت موتوا !

برج الجنون إلى سقوط في هزيم الرعد..بخذله سكون ²

استمرت الأوضاع مقلوبة في العالم العربي الصامت، حتى أصبحت الشعوب نتيجة له كالقطعان التي تسمن بخنوع ليضحى بها لولائم العيد، حيث يقول:

شعوب مسمنة للولائم في العيد

ومن عاش يخسر سر الحياة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج 4، ص 234

² القاسم، سميح: ملك أتلانتس وسرديات أخرى. ط1. الدار العربية للعلوم. 2005. ص 65

ومن مات بات على الموت حرا وحيا

وما كان بالأمس عارا محالا

هو اليوم شأن صغير وجائز¹

بات القتل في هذا الوضع المقلوب شأنًا صغيرا وجائزا، بعد أن كان عارا يستدعي
الخل بل المقاومة والثورة. كما أصبح الموت حياة تعتق بها رقاب القطيع، لأن الحياة تحت
وطأة ظلم يتفشى ويتناسخ أصبحت كالموت، يقول الشاعر:

نحن نتابع أشياءنا

ميتين كما شاء حق (يراد

به باطل !)

واقفين نرمم سيماءنا

في المرايا النهايات

في قول حق (يراد به الحق !)

في باطل يتناسخ²

في المرايا فقط نقول الحق، ولكن المرايا تظهر الصورة معكوسة فالحق الذي حدثنا عنه
المرايا هو الباطل المنتشر أصلا والباطل يصغر ليكبر ضمن هذه الحائق المقلوبة.

تجار القضية المتخاذلون في كل مكان والملوك ورؤساء المنظمات الدولية ومنتهزو
الفرص أصبحوا كمصاصي الدماء، يمتصون دماء الشعوب وحياتهم لتحقيق مصالحهم الشخصية
غير آبهين بشيء، يقول في قصيدة (الفامبير) وقد عنون القصيدة باللغة الأجنبية لتكون موجهة
للجناة في كل مكان:

وهنا الطغاة. هنا الغزاة. هنا اللصوص العمي

¹ القاسم، سميح: ملك أتلانتس وسرديات أخرى، ص 39

² القاسم، سميح: الكتب السبعة. ط1. لبنان- بيروت: دار الجديد. 1994. ص 12، 13

مصاصو الدماء الغير والقناصة الأغرار.رايتهم تؤول إلى كفن

هم يشترون دمارنا

وهلاكنا العبثي والفوضى. وندفع.نحن ندفع

ما تكسد من ثمن

وصديقنا مسخ العدو.عدونا مسخ الصديق

ومن الجحيم إلى الجحيم¹

الهزائم والانكسارات والصمت العربي والإنساني المخيم على أجواء القضية الفلسطينية والقضايا الإنسانية بشكل عام، كانت بمثابة الموت الذي يمتص روح سميح القاسم الشاعر الفلسطيني الملتزم بقضايا وطنه وهموم أمته وروح كل مواطن عربي شريف.

المجازر والموت

مارس الكيان الصهيوني ومنذ اللحظة الأولى لاحتلال الأراضي الفلسطينية، وما نتج عنها من نكبة تبعثها نكسات أبشع أنواع القمع والتكيل من قتل وتشريد ومصادرة للأراضي والحريات وذلك بشكل مبرمج ومخطط له لتطهير فلسطين من سكانها العرب، فشنت حملات مكثفة من العنف والإرهاب والمجازر التي شكلت إحدى الأسباب الرئيسة لهجرة عرب فلسطين من قراهم ومدنهم.

كما رافقت العمليات العسكرية سياسة الحرب النفسية من خلال تسريب أخبار على نطاق محلي كي تصل أنباء القتل الجماعي والاعتصاب والهدم إلى الفلسطينيين، وذلك كي تزرع في نفوس السكان حالة من الهلع والذعر ليخلوا قراهم ومدنهم حفاظا على أرواحهم وأعراضهم.

جاءت المجازر وسيلة لقلع الإنسان العربي من جذوره وذلك بمصادرة القرى العربية وهدمها لإخلائها وإنشاء مستوطنات صهيونية على أنقاضها.

¹ القاسم، سميح: بغض النظر. ص 99

فالأرض هي الهدف الأساس في عملية الصراع" وما صور الاضطهاد المتعددة إلا ركائز ومقدمات نحو الغرض الرئيس، فالكيان الصهيوني يعي جيدا أن أرض فلسطين لا تتسع للمعتدي والمعتدى عليه، ويعرف جيدا أن مقولة التعايش السلمي بين العرب واليهود في الأرض المحتلة ما هي إلا الحبوب المسكنة التي تساهم في رسم مسلسلات الإجرام، وتنفيذها بأيسر ما يمكن"¹

ومن هنا كان جهده المستمر في قطع الروابط المتينة التي تربط العربي بالأرض، وذلك بنسف عشرات القرى العربية بكاملها كمجزرة دير ياسين و مجزرة كفر قاسم.

عبر الشاعر مكتويا بألم الحزن ونار الفجيرة عن مجزرة كفر قاسم² في قصيدة "كفر قاسم" وقصيدة "كفر قاسم إلى دهر الداهرين"، وقصيدة "ليد ظلت تقاوم" وفيها يقول الشاعر:

وعلى قارعة الدرب وعاءات نحاس

أيقظت بضع رصاصات

وألقت في جفون الأخوة القتلى النعاس

وعلى روث المواشي

بقع حمر

وفي الدور تعديد مآتم:

كفر قاسم

كفر قاسم وزهيرات من البرقوق في صدر امرأة

وعيون مطفأة

وعويل غارق في رهبة المأساة عائم!³

¹ يونس، جمال: لغة الشعر عند سميح القاسم. ص 52

² وقعت مجزرة كفر قاسم في التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين حيث قتل فيها ثمانية وأربعون مدنيا من بينهم نساء وثلاثة وعشرون طفلا.

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج.1. ص 101

برع الشاعر في إعادة رسم مشهد الموت واستحضاره إلى ذهن المتلقي صوتاً وصورة، فقد حفل المشهد بأصوات مختلفة، بداية صوت الرصاص ثم صوت عويل النساء العائم في هدوء الموت المخيم على المكان، و صورة مستقطعة لآثار الجريمة النكراء، صور للقتلى من رجال ونساء انتشرت دماؤهم في كل مكان، كما استطاع الشاعر أن يرصد في أرض الحدث تفاصيل دقيقة كبقع الدماء على (روث المواشي)، وهذا يدل على شدة تأثر الشاعر بأحداث المجزرة، و"كأنما بالشاعر، حينئذ، يرثي المدينة (كفر قاسم) ويعدد مناقبها- حتى وإن لم يذكر تلك المناقب صراحة - ذلك أن تكرار اسمها في حد ذاته هو من باب الثناء عليها والتحسر على ماضيها والتألم لحاضرها، فتستحيل عنده أشبه بكائن حي يبكيه فراقه ويسعده حضوره"¹ ولكن وبالرغم من مأساوية الحدث إلا أنه يقدم الموت بصورة رقيقة فما الموت إلا نعاس في عيون القتلى وما مواضع الرصاص في صدر المرأة إلا زهيرات برقوق تزيدها جمالا، وبذلك يمهد لموقفه في المقطع التالي أنه إله لا يساوم على الأرض مهما حدث:

وأنا ريشة نسر

في مهب الحزن والغيب

إله لا يساوم!²

ويقول سميح القاسم في قصيدة (كفر قاسم إلى دهر الداهرين) مشيراً إلى الأمر العسكري الإسرائيلي بإطلاق النار على شهداء كفر قاسم:

"أحصدوهم

أحصدوهم

حصدوا!"

وتلوت كفر قاسم³

¹ السيارى، مبروك: المنزع الواقعي في شعر سميح القاسم. تلك جمجمة الشنفري (قيمة الجمال وجمال القيمة في شعر سميح القاسم) تحرير إبراهيم طه. ط1. كفر قرع: دار الهدى. 2011. / ص 196

² المرجع نفسه ص 102

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 2. ص 195

جاء تكرار لفظة (أحصدهم) للتأكيد ولتكرار صداها في نفس المتلقي وهو يدل على الشمولية في الموت بحيث لا يترك أحدا حيا، كما جاء الفعل المضعف تلوت ليوحي بهول المجزرة، حيث شخص كفر قاسم بإنسان يتلوى من شدة الألم قبل الموت.

ويمضي سميح القاسم في وصف حي وغنائي للبرج الذي بناه القتل الذين جندلهم العدوان، يقول الشاعر في موضع آخر من القصيدة نفسها ملتصقا بالأمل بالخلاص:

ونهب القتل لتوهم

وبدأت مهمتهم الشاقة:

من أين نأتي ولو بزهرة واحدة لكفر قاسم؟

القتلى يتمتعون بذكاء حاد وبصيرة نافذة

فراحوا يتصاعدون

واحدا على عنق الآخر

ويومها

شاهد عابرو السبيل المبكرون الى أشغالهم

برجا عظيما يتبدد فيه البصر¹

ذبحت كفر قاسم بعد أن تلوت، ولم يستطع الشاعر الفلسطيني أن يفعل لها شيئا إلا إن يصرخ ويتكلم عن أوجاعها، فانهزام العرب في سيناء أصاب المواطن العربي بالعجز، يقول سميح:

كفر قاسم

أعطيتني فما.. فلا تكلم

ولأصرخ من شدة حبي وحسرتي

واغفري لي.. لي أماسيك الباهظة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 2. ص 195

ان لم أوسد عنقك المذبوح، بذراعي

(ذراعي طارت مع قذيفة في سيناء)¹

وقدم للمحاكمة صاحب الأمر الأول (يسخار شدمي) في المذبحة وكانت عقوبته التوبيخ ودفع غرامة مقدارها قرش إسرائيلي واحد² وعنه يقول القاسم "ولك أن تستذكر أصداء المحكمة المحكمة السادية والمهابة المصطنعة، وأقنعة القضاة لحظة النطق بالحكم: "يغرم المتهم بقرش" وتضحك دمعتك الصلبة مثل ماسة نقية:

عش لعدل لا يضاهي

أيها القيصر عش

ثمن الخمسين قرش؟

ويصبح "قرش" ماركة مسجلة لعدل الناجين من برائن النازية.. وتصبح أنت ماركة مسجلة لشهوة التمثيل بالجنث من أيدي القنلة والجزارين وهواة الصيد البشري من جميع شعوب الأرض"³

إن هذا الموقف الجاد والحاد لدى الشاعر جعله يتوجه وهو يخاطب الخصم إلى اللهجة الساخرة وهو يفضح سلوكياته الدموية ويكشف عنصريته التي تتجدد في كل وقت بتجدد المتخاذلين الصامتين كصمت الأموات، يقول سميح في قصيدة (ودم الشهيد رسالة نبوية):

ما غاب "شدمي" والزمان شهيدنا في كل يوم سافل يتشدم

والقاتلون شهية مفتوحة وبكل أفق قاتل مستحكم⁴

ويقول:

الموت صمتا حين ألف جريمة تنهال: "يا أهل القبور تكلموا"⁵

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، ص 197

² موسوعة ويكبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki/مذبحة_كفر_قاسم

³ القاسم، سميح: مقالة قوس قزح في لوحة سريالية. مجلة الشعراء. تحرير المتوكل طه. ص 113

⁴ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج 2. ص 415

⁵ المصدر نفسه، ص 413

ويقول سميح في قصيدة (كفر قاسم) مشيراً إلى عار العروبة العاجزة عن اتخاذ أية ردة فعل أو إجراء مهما كان بسيطاً:

لا نصب.. لا زهرة.. لا تذكر

لا بيت شعر يؤنس القتلى ولا أستار

لا خرقة مخضوبة بالدم من قميص

كان على إختنا الأبرار

لا حجر خطت به أسماؤهم

لا شيء.. يا للعار !!

أشباحهم ما برحت تدور

تنبش في أنقاض كفر قاسم القبور¹

لاحق الموت الفلسطيني في كل مكان يتوجه إليه، فلم يقتصر فعل القتل الجماعي على الكيان الإسرائيلي داخل الأراضي الفلسطينية فحسب، بل لاحق الفلسطيني الفدائي إلى خارج الأراضي الفلسطينية وعلى أيد عربية خالصة، وهذا ما أثار حفيظة سميح القاسم الشاعر القومي الذي طالما تغنى بالأمجاد العربية، فقد ضاق الملك حسين ذرعاً بالعمل الفدائي الفلسطيني، وما جره على الأردن من مصائب فقرّر إنهاء الوجود الفلسطيني المسلح في الأردن ووقعت أحداث سبتمبر والمشهورة بأيلول الأسود حيث حدث صدام مسلح بين الجيش الأردني والقوات الفدائية الفلسطينية راح ضحيته ثلاثة آلاف فلسطيني وتدمير مخيمات اللاجئين وإغلاق معسكرات الفدائيين وخروج العمل الفدائي من أهم ساحاته من الأردن²، يقول سميح القاسم في (القصيدة العمانية):

يا قاتلي وأخي. عذابي أنني موتي وموتك هيجاً أشجاني

موتي وموتك يا أخي. يا قاتل لم ينعماً بطهارة الأكفان

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج1، ص 48

² انظر، السويدان، طارق: تاريخ فلسطين المصور، ص302

أرخصة فينا الدماء مباحة ومن الهوان مصيرنا لهوان؟
عين اليقين شكوكنا. وبقيننا عين الشكوك. فأنت كيف تراني
يا قاتلي. وأخي وموتي أنا موتي وموتك في الوري سيان¹

يؤكد الشاعر أخوة الشعبين الأردني والفلسطيني بتكرار كلمة (أخي)، فهما شعبان شقيقان تربطهما وشائج قوية من لغة ودين وتاريخ واحد وحتى مصير مشترك (موتي وموتك في الوري سيان) فكيف يصدر منه ما صدر بحق من طالب بحقه ضد المحتلين وهو حق مشروع حضت عليه رسالة النبي العربي، يستنكر الشاعر بأسلوب الاستفهام استباحة الشعوب الأجنبية والعربية للدماء الفلسطينية وملاحقة الهوان لهم في كل مكان.

تكثر مشاهد القتل والموت والدمار في شعر سميح القاسم لتنتشر بين دواوينه جنباً لجنب في الأحداث الدموية التي يعيشها الشعب الفلسطيني في كل مكان، وتكاد تكون عناصر هذه المشاهد واحدة فيها تزيد أو تنقص تبرز فيها: أشلاء القتلى، ألعاب الأطفال المترامية، الأطفال القتلى وهم صورة أساسية في مشاهد القتل، الأم، وحطام البيت وأثاثه، بالإضافة إلى أداة القتل في بعض الأحيان لتكتمل اللوحة الملحمية لصورة الموت الفظيعة التي خلفها الاحتلال بدم بارد.

وقد وصف القاسم مشهد للموت إثر قصف جوي في قصيدة (في ظلال طائرة إسرائيلية)، حيث يشكل الظلال في عنوان القصيدة انعكاس فعل الطائرة بعد انسحابها فيقول:

طابة

خيز مبعثر

وفم الطفل المدور

نزعت للتو من حلمة الأم القتيلة

وذراع

وجديلة

أحرف عبرية

¹ القاسم، سميح: بغداد وقصائد أخرى. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2008. ص 131

قنبلة موقوتة

جمر دخان وشظايا

كتل الاسمنت

أسمال سناج¹

يجمد الشاعر في قصيدته لحظة زمنية هي لحظة ما بعد القصف ليأخذ لها صورة دقيقة ترصد مشهد الموت المخيم على المكان، حيث يسوده الدخان مصحوبا بالنعيب وتنتشر في أرجائه شظايا القنبلة الإسرائيلية الموسومة بالأحرف العبرية متحدية العالم في وضح النهار، دمرت أساس البيت الإسمنتي فوق أصحابه المسالمين ونثرت أشلائهم إلى جانب أثاثه المحطم في كل مكان. الخبز المنثور وألعاب الأطفال بل الرضيع الذي فطم قسرا بمقتله وأمه يدل على أن البيت لم يكن هدفا عسكري، وإنما استهدفه قصدا لقتل شعب وهدم حضارة. كل تفصيل في القصيدة كان يعكس جانبا من حياة مضت تشكل في مجموعها حكاية شعب تندثر يوميا.

وفي مثل ذلك يقول أيضا في وصف مشهد الموت في سربية (عجائب قانا الجديدة)²:

على مسكب الورد جثة أم جديدة

وفي الرحم جثة حلم جديد

وفي ساحة البيت ما تنثر الريح

من ورق الورد بين اصطفاق الغسيل

ومن صفحات الجريدة

وجثة زوج جديد

وصرخة بنت وحيدة.³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج 3. ، ص 9

² حدثت أثناء العدوان الإسرائيلي على بيروت في تموز عام ألفين وستة سقط جرائها حوالي 55 شخصا، عدد كبير منهم من الأطفال الصغار الذين كانوا في مبنى مكون من ثلاث طبقات في بلدة قانا حيث انتشلت جثة 27 طفلا من بين الضحايا الذين لجؤوا إلى البلدة بعد أن نزحوا من قرى مجاورة تتعرض للقصف. انظر

https://ar.wikipedia.org/wiki/مجزرة_قانا_2006 _2-7

³ القاسم، سميح: سربية عجائب قانا الجديدة. . الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2006. ص 15-16

تفاصيل دقيقة متناقضة بين ما كان وما صار ليعكس بشاعة جرائم الاحتلال غير الإنسانية، ويقول في سربية (الصحراء) ليصف مشهد القتل في قرية مدمرة هذه المرة:

تلاشى دخان المعارك فجرا

وما من أذان مع الفجر

يا أيها الميتون

انهضوا صدفة للصلاة

مؤذنكم مات نسكا وقتصا

مع الفجر شاهدت جثته

عند باب المخيم

طرحت السلام على ما تناثر من جسمه

قام، صلى، وسلم¹

في هذا المقطع الشعري لم يصور الشاعر مشهد القتل في البيت المدمر، بل في باب المخيم المدمر، يخاطب فيه الأموات ليدعوهم إلى صلاة الفجر المستحقة في ذلك الوقت ولكن ما من أذان فالمؤذن أيضا ميت إلا أن الشاعر يظهره بصورة الإمام الملتزم الحريص على صلاته، فقد قام من موته ليصلي وعاد ليموت مطمئنا فيما يشبه النوم ليؤذن داعيا بصمت من قبره لعكا وحيفا.

تبقى القرى والمدن طوال فترة الاحتلال تتربع الموت بين قصف وآخر، ولا تنعم بالراحة أو الهدوء خوفا أن يكون هذا الهدوء الذي يسبق العاصفة، يقول القاسم:

إنها لحظة رائعة

بين قاذفة تتأهب للقصف فجرا..

ودبابة راجعة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 4. ص 268

إنها لحظة رائعة

تتوسد أحلامها قرية

فوق جرف الردى هاجعه..¹

تكرار مشاهد القتل وتكرار عناصرها لدى الشاعر ما هو إلا نتيجة تكرار أفعال
الاحتلال الدموية في تحد واضح تجاه المستضعفين من الشعب دون أي رادع لهم:

هنا يكشف الموت أوراقه في وضوح الحياه

هنا تتعري الجهات

ويجتهد الوقت كي يبدأ

بعيدا عن الخطب الموسمية والصيغ المنتقاة

هنا يفتح الموت أبوابه ليطل اليتامى على يتمهم في الحياة

ويكتشفوا أفقها المطفأ..

هنا تستعير الجريمة وجه البطولة

وأطفالنا يكبرون إذا ولدوا، يكبرون بأسرع مما تشاء الطفولة²

¹ القاسم، سميح: ملك اتلاتس وسريبات أخرى. . ص 87

² المصدر نفسه. . ص 94

المبحث الثاني

الأطفال والموت

على الرغم من أن كل الموثيق والأعراف الإنسانية تتأى بالأطفال عن الحروب والعمليات العسكرية، إلا أن تاريخ الاحتلال الإسرائيلي يظهر أن الكيان الصهيوني تجاهل كل هذه الموثيق وخرقها، حيث تعمد على مدى سنوات عدة استهداف الأطفال العزل فسحقهم تحت أقدام المعارك وطحنهم في رعى المجازر فكانوا قرابين كنعانية قدمت لآلهة الموت، فكم من مجزرة راح ضحيتها عشرات الأطفال ظلما وجورا، وهذا ما لم يغفله سميح القاسم فنراه منتشرًا بين صفحات دواينه المختلفة.

لم يتخذ موت الأطفال في أشعار سميح القاسم منهجا واحدا، ففي بعض الأحيان، شكل الأطفال جزءا من صورة الموت الكلية التي شملت عناصر البيئة الفلسطينية بكل مكوناتها وتفصيلها، لتكون شاهدة العصر على جرائم الاحتلال، يقول الشاعر في (سربية أنا متأسف):

شبابيك ورد ودفلى

تطل من ساحة المذبحة

وأشلاء قتلى

والعاب طفل ذبيح تبعثرها الريح بين الركام

ومرآة باب الخزانة مثقوبة بالرصاص الأنيق

وطاولة الأكل جاع عليها الغبار النظيف

وغطى الصحنون النظيفة.لف الملاعق والمملحة

وعكاز شيخ عجوز تهاوى بصمت.وأطراف حبلى

وأنقاض بيت ورؤيا

وأنت تطل على مشهد الموت.¹

¹ القاسم سميح: سربية أنا متأسف. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2009. ص 41، 42

وأحيانا أخرى كان الأطفال العنصر الأساس والأبرز في مشهد الموت كما في مجزرة (وادي الصليب)¹، حيث سلط الشاعر الضوء عليهم وحدهم وعلى واقعهم المؤلم المناقض لواقع الأطفال الآخرين، ليثير قضيتهم للعالم ويستثير عواطفهم، بجعلهم أبطال المشهد أبطال المجزرة، الذين سقطوا من شرفاتهم العالية في الفضاء المنير، حيث الآمال والأحلام، إلى قعر الهاوية المعتم، نار المجزرة، يقول الشاعر في قصيدة السجل (الرابع والعشرون):

(ويسقط طفل من الشرفة العالية

إلى عتمة الهاوية)

لأطفال " وادي الصليب "

سلام تصعد من أزل لا يزال

إلى حجر واقع.. أو خيال²

وكثيرا ما أبرز الشاعر في مشاهد قتل الأطفال حقوقهم المهدورة، وهي حقوق إنسانية طبيعية لا تحتاج إلى " اليونيسيف " لإقرارها، حقوق أصغر الكيان الإسرائيلي على سلبهم إياها أينما كانوا. ومن هذه الحقوق حق الطفل في التعليم كما ورد في نهاية القصيدة السابقة:

(وفي الإبط كراسة مدرسية

وأجمل ما أعطت الأبجدية

حروف: س. ل. ا. م)

¹ كان وادي صليباً شاهداً مهماً على كبرى الجرائم اليهودية، حيث يعد أكبر تجمع سكاني ومؤسسي في حيفا، وهو أقرب نقطة سكنية من مينائها. فمع بداية الهجمات الصهيونية على حيفا عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، ساعد السكان اليهود ذاتهم قوات "الهجاناه"، في إخلاء هذا الحي السكاني من سكانه العرب، فتحول إلى مرمى للقنصاة اليهود من الهدار وأحياء سوق "التليبات" ونصب عصابات الهجاناه مدفعياتها على تلال الهدار الأعلى وكرمل وبدأت بالتحرك من أعلى إلى أسفل وحاصرت الأحياء العربية من كلا الاتجاهين، وعندما كان سكانها هاربين من مدافعها وقفت قوات الجيش البريطاني تشير إليهم: نحو الميناء انظر، /www.arab48.com/محليات/دراسات. . . /حيفا: وادي-الصليب-شاهد-على-التطهير-العربي 6-28

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 3. ص 482-483

لم يقترب الطفل الفلسطيني ذنباً ليعاقب عليه، فقد كانت أكبر مسؤولياته التعليم والبحث من خلاله عن بيئة آمنة حالمة، فغدت الدراسة والمدرسة وما يتعلق بهما من دفاتر جزءاً من لوحة قتل الأطفال في شعر سميح القاسم، وذلك لأن المدارس هي المكان الطبيعي للأطفال في مثل هذا العمر، ولربما ركز عليها أيضاً لشعوره بأهمية الدراسة والتعليم في خلق جيل واع يرفض المعتقدات والخرافات البالية التي كانت من أسباب هزائم العرب، يقول سميح القاسم في سربية (برق الأبجدية رعد السكون):

فاجعا كان موت الفتى

عندليباً حزينا يصلي على ساحة المدرسه

فاجأت حلمه طلقة

نثرت دمه بين أوراق دفتري¹

لكن الاحتلال وبدم بارد يصر على سلب الأطفال هذا الحق، حتى غدت المدارس وطرقها هدفاً رئيساً لقذائفهم في كل مرة يغتال فيها الأطفال وأحلامهم:

لم يذهب الولد الأخير إلى دراسته

الأخير لم يحترس

لم يحترس

قطعت عليه طريقه

قطعان نمل مفترس²

عمد الشاعر إلى تصوير قوات الاحتلال التي تتربص بالأطفال وتقطع عليهم الطريق إلى مدارسهم، بقطعان نمل مفترس وهي صورة تخالف القوانين الطبيعية، إذ النمل مخلوقات ضعيفة تسير في أسراب، لكن الشاعر هنا صورها بأنها قطيع من الحيوانات المفترسة التي أوحى لنا ضمناً - وذلك بعدم ذهاب الطفل إلى المدرسة - أنها افترسته، أراد الشاعر من خلال

¹ القاسم سميح: ملك أتلانتس وسريبات أخرى. ص 81-82

² القاسم سميح: الأعمال الكاملة، مج3، ص 513، 514

هذه الصورة أن يشير إلى القضية اللامنتطقية التي يعيشها الطفل الفلسطيني المسالم فقد هجر
بداية ثم قتل.

وقد أصبح الموت منهاجا يدرسه الاحتلال لهؤلاء الأطفال، يقول الشاعر في سرية
(الصحراء):

وجوه صفائح تقلبها الرياح

أرصفة

لقتنها القذائف درسا

مناهجها الموت

لا وقت يا وقت

هل يهدأ القنص والقصف

هل ينضج الخوف

هل تبدأ الحصاة القادمة¹

وكما أن الاحتلال الصهيوني قد حرم الأطفال من حقهم في الدراسة، فقد حرّمهم من
حقهم في اللعب، وهو من أقوى الأساليب لتعلم الخلق والإبداع عند الأطفال إذ إنه يكسبهم
المهارات المختلفة ويوسع خيالهم وقدرتهم على الابتكار على بساطته، لذا صور الشاعر الأطفال
القتلى في مشاهد عدة مقترنين بألعابهم ودمائهم في أرض المجزرة، يقول في قصيدة (أدفع):

القصف برا وجوا وبحرا

بيانات الاحتجاج والإدانة

دمى الأطفال

وجماجمهم المتناثرة

تحت جنازير الدبابة المتقنة²

¹ القاسم سميح: الأعمال الكاملة، ص 252، 253

² المصدر نفسه، ص 11

ويقول في قصيدة (ليالي العشر في الرميّة):

بين قنبلة نسفتنا. وقنبلة قذفتنا –

دمى طفلة

تتناثر أشلاؤها في حفائنا الغائرة¹

شغلت الدمى حيزا كبيرا من تفكير الأطفال ومشاعرهم، وبالتالي كانت عنصرا لافتا تنبّه له القاسم ووظفه في مشاهد موتهم، حتى إنه عمد في أحد المقاطع الشعرية إلى قلب الأدوار بين الطفلة والدمية، لينفي قدرة الطفلة عن الشكوى بل ويسلبها الحياة فعليا، وهكذا يناسب الشاعر بين أسلوبه في القصيدة والأوضاع المقلوبة في ذلك الوقت، فقد قدم لنا صورة معكوسة صور فيها الدمية مخلوقة حية ترقد تحت الركاب إلى جوار صديقتها، يسيل دمها وتنبث الشكوى لهذه الصديقة، التي لا تموت ولا تجيب. يقول الشاعر على لسان دمية فقدت صاحبها في سربية (عجائب قانا الجديدة):

أنا دمية ضائعة

يسيل دمي في الخراب

ولا أستطيع الكلام وشكوى العذاب

لصاحبتي الطفلة الحلوة الرائعة

وها أنذا أستغيث وما من جواب

أنادي. لأنّي فقدت صوابي

أنادي. وصاحبتي لا ترد. تقولون ماتت

وصاحبتي لا تموت. هي الآن تحت الركاب

بقربي. فيا ليتها سامعه²

¹ القاسم سميح: الأعمال الكاملة، مج3، ص 602

² القاسم سميح: سربية عجائب قانا الجديدة، ص 6، 7

جاءت هذه الصورة المتداخلة المعكوسة لتظهر قوة الارتباط بين الطفلة ودميتها، فهي صديقتها والناطقة بحالها، رفيقتها في كل مكان حتى إلى القبر، كما أنها تظهر عجز الأطفال وضعفهم عن الدفاع عن أنفسهم.

ولا تقتصر ألعاب الأطفال على الدمى، فالأرجوحة كان لها مكانتها في نفس الطفل، وبعد الموت أصبح لها مكانا آخر في الغيم، يقول سميح القاسم في (قصيدة العنقودية):

أرجوحة في الغيم

الموت في الأرياض

وظفلة غارقة في الدم

تريد أرجوحتها

وترفض الأنقاض¹

إضافة إلى الطائرة الورقية التي طالما ربطت بين الأطفال وسماء الوطن الساحرة، لكنها باتت جارة للموت، لطائرة عسكرية هدمت بقذائفها المكان، ليضحي الطفلين تحت الردم، تترد صدى أغنيتهم من هناك، ويشي بمكانهما خيط الطائرة الذي غدا خيط دم امتد بينهما وبين الله العالم بحالهم يقول سميح القاسم في (قصيدة القبر الجماعي):

ولدان تحت الشمس

أغنيتان للنعناع

خيط لا نهائي

وطائرة الورق..

ولدان من ورق²

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج 3، ص 45

² المصدر نفسه، مج 2، ص 720-721

وسط الموت المخيم على المكان لا يفتأ الأطفال بالفطرة يبحثون عن فرصة للعب، خالقين لهم عالما بعيدا عن المجازر والحروب التي سرعان ما تخرجهم من عالمهم الافتراضي الممتع إلى العالم الحقيقي المرعب بقذيفة تفتت أشلاءهم، يقول سميح القاسم:

أنا ولد من ضواحي الجنوب

يدرب قلبه

لينجز في غلة الموت لعبه

ويعبر في ساعة القصف رعبه¹

وقبل أن يسلب الاحتلال أطفال فلسطين حقهم في التعليم وحقهم في اللعب، سلبتهم حق الحياة التي لم يكادوا يتذوقونها، يقول سميح في قصيدة (حيث صار الموت عادة) وقد كتبها "بعد لقاء مع الأطفال الفلسطينيين اللاجئين والأطفال الجرحى من مدرسة بحر البقر² كان لقاءنا في بوتسدام وهناك تقاسمنا الدموع والحلم..³":

بيدي هذه

بأصابع كفي هذه

سبلت جفونا لم أبصر روعتها قبل الموت

وشددت زنودا لم ألمس روعتها قبل الموت

سبلت جفون أحيائي وشددت زنود أحيائي⁴

¹ القاسم، سميح: **سريبة قانا الجديدة**، ص 11، 12

² مجزرة بحر البقر هجوم شنته القوات الجوية الإسرائيلية في صباح الثامن من إبريل عام ألف وتسعمائة وسبعين، حيث قصفت طائراتهم مدرسة بحر البقر في قرية بحر البقر في مصر بحجة أنها هدف عسكري وضع فيها الأطفال للتمويه، أدت هذه الغارة إلى مقتل ثلاثين طفلا وإصابة خمسين آخرين وتدمير مبنى المدرسة. انظر،

https://ar.wikipedia.org/wiki/مجزرة_بحر_البقر، 2016-6-28

³ القاسم، سميح: **الأعمال الكاملة**، مج2. ص 30

⁴ المصدر نفسه، ص 37

يبين الشاعر أن الموت زاد الأطفال جمالا، وقد اختار الشاعر لفظة (رقاد) ليصف موتهم، فالموت على حتميته لفظ كبير في وصف الأطفال أما الرقاد فلفظ مناسب وغير بعيد كون النوم ما هو إلا الموت الأصغر الذي يليق بصغرهم.

يقول سميح القاسم في ذلك أيضا، في قصيدة معجم الشهداء:

نم بالهنا

يا ولدي نم بالهنا

لا.ن تطول غيبتني عنك

فلا تقلق¹

لاستخدام الشاعر العبارات الشعبية مثل (نوم الهنا) حضوره الخاص لأنه يمكنه من الوصول إلى قلب الجماهير، كذلك يشكل له الطريق الجديد الذي يسلكه في قيام عملية التفاعل بين المتلقي والنص الشعري بأسلوب تعبيرى جديد يتجنب المباشرة²

كما أن رقادهم ما هو إلا قربان لنهوض الشعب، حيث كان الفينيقيون إذا أصابهم أمر جلل يضحون بأطفالهم قربانا لبعل، فكان الآباء يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زينتهم كأنهم في يوم عيد، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تطغى على صراخهم وهم يحترقون في حجر الآلهة، وأحيانا كانت تفتدى حياة الطفل بغلفته³، يقول سميح القاسم:

رقدوا حتى أنهض من موتى السابق

وأنا أبصرهم

منتصبين وراء الأشجار الوعرية

ووراء صخور الوديان البنية

أبصرهم

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 3. ص 525

² انظر، يونس، جمال: لغة الشعر عند سميح القاسم. ص 77

³ انظر، معدي الحسيني الحسيني: أساطير الشعوب حول خلق الكون. ص 239، 240

أعينهم تلمع كمرايا سرية

تنقل للجبل الصاعد

من قعر الليل الراكد

أسرار الميلاد...إشارات الميلاد ! ¹

قضية الاحتلال الإسرائيلي هي أكثر المصائب جلا، راح ضحيتها أطفال كثر بين حرق وقتل وتشويه، بينما كان صوت الصواريخ العالية يطغي على أصوات بكائهم فلا يستجيب لهم أحد ولا يرق لهم قلب أحد ليتوالى سقوطهم نكبة إثر نكبة.

إن حياة الطفل الفلسطيني ومسيرته تختلف عن حياة ومسيرة أي طفل آخر، فمنذ النكبة حمل المسؤولية صغيرا واتخذ له موقعا في المقاومة والثورة، لذا استهدفه الاحتلال الصهيوني خشية من مستقبله الواعد، فهو مقاتل المستقبل الذي سيستعيد انتصارات العرب الأولى. فترصده وقتله حتى وهو جنين في بطن أمه، ، وذلك ما عبر عنه القاسم في قوله:

(وبعد قنبلة الغاز!)

ناديت:يا أهلي الطيبين

أنا..هذا الجنين

جئت "هذا الجنين"

جئت باسمي، وجاء

فالرجاء الرجاء

اكتبوه على حجر من بلادي اكتبوه واقدفوه في ظلام السنين

جئت باسم الوليد الجديد

جئت باسم "الشهيد" ²

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 38

² المصدر نفسه، مج 3، ص 530، 531

كما أنهم استهدفوا الطفلة الأنثى كيف لا وهي مصنع لهؤلاء المقاتلين الأبطال، هي سر الخصب وسر البعث والتجدد، لذلك كانت الهدف الأخير الذي لاحقته القوات لصهيونية بعد أن قصفت كل شيء لكي تقضي على حياة الفلسطينيين من أصولها، يقول الشاعر في قصيدة (الهدف الأخير):

الصليب الأحمر

الهلال الأحمر

نجمة داود

(بالأزرق والأبيض طبعاً !)

تنقض مع الطائرة المغيرة من جديد

باتجاه الهدف الأخير

الطفلة الشريرة التي نجت

من الغارة السابقة

قبل لحظات..¹

لم تساعد المؤسسات الإنسانية العاجزة في وقف العدوان الهمجي بل كان عجزها شريكاً للاحتلال الذي عاد من قواعده قبل لحظات ليلحق الفتاة التي فرت كيف لا وفي داخلها تكمن منابع الحياة التي تستحق من وجهة الاحتلال أن يعود للقضاء عليها.

تتكرر مشاهد قتل الطفلة والأطفال بشكل عام على مرأى من العالم حتى بات قتلهم كالأغنية لتكراره، ينقلها لهم مذيعة البرامج الإخبارية في التلفزيونات بابتسامة وادعة مجردة من أية إنسانية تفصل العمل عن المشاعر يشغله ماكياج المذيعة وأخبار الأميرة المرفهة عن بؤس هؤلاء الأطفال، يقول الشاعر في قصيدة (S.O.S):

فجأة طوحت يدها في فضاء الردى

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 37، 38

انقبضت قسّمات الحديد على غيظها

انفجرت وردة ناسفة

لم تعد خائفة

أخاف من الموت ميت؟¹

شكل الموت الملجأ الآمن للفتاة من الموت، كانت تفرمنه ممثلاً لها بالقذائف الإسرائيلية خائفة صارخة حتى جاءت اللحظة التي توحدت فيها معه ولم تعد تخافه، بينما يشاهدها الناس في دموع صامتة وكلمات رثاء مختصرة لينسحبوا إلى حياتهم اليومية دون فعل أي شيء يخلص هؤلاء الأطفال مما هم فيه ويرد كيد المحتل عنهم:

شاهدوها على شاشة التلفزيون في كل بيت

غضبوا..دون صوت

سكبوا دمعين على دمها

أتقنوا كلمات الرثاء الوجيزة

وانسحبوا²

لكن مشاهد قتل الأطفال تفرع الشاعر العربي الإنسان وتقض مضجعه، خوفاً من أن يواجه أبناؤه المصير ذاته يوماً ما، فيرى في الطفلة وغيرها وجه ابنه "محمد" ويهوله المنظر ويرعبه، ولكنه ينسب خوفه لوضاح ليبدو متمالكا نفسه، يقول الشاعر في (تغريبة إلى محمود درويش):

على شاشة التلفزيون

في ضوء قنبلة مشمس

وكانت بقربك جثة طفله

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. ص 538، 539

² المصدر نفسه. ص 538، 539

على وجهها وجه حبي "محمد"

و"وضاح" يزعم رعبا

على شاشة التلفزيون

يزعم رعبا

ويجذب زئد "عمر"

لعل ملاذا ببعض الحفر¹

إن صمت العرب وعجزهم تجاه مأساة الأطفال يقابله تفاخر وتباه عند الجنرالات، حتى غدا الأطفال الضحايا نجوما لرتبهم تزين أكتافهم وتزداد وتعلو بازدياد أعدادهم، وأزهارا تزين مكاتبهم، يقول سميح في قصيدة (أملاك الجنرال (إلى أريك شارون)) المسؤول عن حرب لبنان ومذابح صبرا وشتيلا:

تحت الدبابة طفل في الخامسة

ووردة

على كتف الجنرال خمس نجومات وطفل

في مزهريته خمسة أطفال ووردة

تحت دبابته

خمس وردات وخمسة أطفال

للدبابة فوهات لا تحصى²

وقد اختار الشاعر تكرار العدد (خمس) في إشارة إلى "جراحات السيد الخمسة" وقد يدل على "طقوس وذبائح أمر بها الرب" في الديانة المسيحية.³

¹ القاسم سميح: الأعمال الكاملة. مج2، ص 693

² المصدر نفسه. مج3، ص 130

³ www.orthodoxonline. المقدس، على هامش الكتاب > org المنتدى > الكتاب، دلالات الأعداد والأرقام في الكتاب

يحاجج سميح القاسم الجنرال الإسرائيلي بقتل الأطفال ويوضح له أنه مهزوم لا غالب
حيث لا مقارنة بين القوى، قائلاً:

لماذا تقص الجديدة

لتجدل مشنقة تتدلى عليها رقاب الطفولة

وتسمل عنين حالمتين بنور قليل

يجوب السماء القليلة

أغلب عينا سملت. وتغلب ساقا بترت

أغلب؟ لا. أنت تهزم

وتذوي وتهرم¹

يبين سميح القاسم للجنرال الفرق بين تعامله مع أطفال المحتل وتعامل المحتل العنيف مع
أطفال الشاعر لإقناعه، حيث يقول:

صغارك حولي

يجوبون أرجاء بيتي وغرفة نومي وحقلي

أمسد شقرة شعرهم الفوضوي

وأطعمهم خبز صباحي وكعكة أهلي

لماذا تداعب بالنار و الغاز طفلي²

فالشاعر إنسان متسامح لا يفرق بين الأطفال ولا يرضى لأي منهم الأذى مهما كانت
دياناتهم أو جنسياتهم فهم في النهاية أطفال لا يختلفون عن بعضهم البعض:

متى نكتشف أنهم متشابهون تمام؟

وأني لأتحداكم أيها الأغبياء

¹ القاسم، سميح: سربية أنا متأسف. ص 57، 58

² المصدر نفسه ص 65، 66

أن تميزوا بينهم من زعيق اعدامهم هذا

لا..لا قبل لي بكل هذه القسوة ¹

ويبين في موضع آخر إلام يؤول التفريق بين أيتام المحتل والأيتام الفلسطينيين فيقول:

يوزع القناصة

حلوى

على أيتام قتلهم

(تعود الشمس)

والخلاصة:

طفل يتيم

يشترى بحجر

خلاصه

ويشتري خلاصه ²

تعامل العدوان الإسرائيلي غير المنصف والبعيد كل البعد عن العدل والإنسانية يدفع بالطفل الفلسطيني للبحث عن الخلاص والخلاص يتمثل بالحجر (المقاومة) فيسارع لاتخاذ موقعه فيها بسن صغير قد لا يطول فجيش الاحتلال يتربص به دائما، يقول الشاعر في قصيدة (معجم الشهداء):

ولد يرفع الأعلام على أعمدة الكهرباء

أقصر من عمرك

مسافة الموت

الذي يمتد

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 3، ص 152، 153

² المصدر نفسه، ص 447

من بنادق الجيش إلى ظهرك¹

وتاريخ المقاومة الفلسطينية حافل يشهد بكثرة هؤلاء المقاومين الصغار الشهداء:

يا لهفة النصل للغيظ

خذ جلد طفل ذبيح

ودون عليه كتاب الفجيرة والعنفوان²

لاحق الموت الطفل الفلسطيني في كل مكان يتواجد به في المدرسة والمشفى وأماكن لعبه، وتبدى له على صور مختلفة من صواريخ ورصاص وذبح، وكأنه خلق ليموت، يقول الشاعر:

قلت لي:

بين رائحة الطفل في مهده الخشبي

ورائحة المقبرة

لحظة مضمرة³

وفي قصيدة (الأطفال..وأطفالي) يوضح القاسم مستكراً الفرق بين حياة الطفل الفلسطيني البائس وأطفال العالم من جنسيات أخرى، فليس مقدراً له أن يعيش كباقي أطفال العالم طالما يعيش تحت ظلال الموت الإسرائيلي قائلاً:

يولد أطفالي

تولد معهم قنابلهم الفسفورية

بأضوائها المدهشة

مثل الألعاب النارية

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج 3. ص 531

² المصدر نفسه، مج 4. ص 244

³ القاسم، سميح: الكتب السبعة. ص 179

في الكرنفال

يولد أطفالي

مع نعوشهم الصغيرة¹

ركز سميح القاسم على الأطفال كثيرا في أشعاره مبديا تعاطفه معهم مبرزاً للعالم
قضيتهم فصورهم مابين قتل وجريح وميتم ومقاوم، وتتبعهم في كل مراحل الاحتلال لفلسطين
وجنوب لبنان.

¹ القاسم، سميح، الأعمال الكاملة، ص 111-113

المبحث الثالث

المرأة والموت

"تطرح قضية المرأة عند سميح القاسم في علاقة بمنزعه الواقعي الاشتراكي من ناحية وخدمة للقضية الفلسطينية وتأكيدها على مطلب المشاركة الفعلية لها في النضال ضد الغزاة من ناحية ثانية. حينئذ تتجلى صورة المرأة منشدة إلى هذا المبدأ، لا تكاد تخرج عن إطار معاناة النساء أحران الثكالي ونواح الأرامل، ولكنها امرأة مهما أنهكتها المآسي. تظل صامدة أما كانت أو أختا أو زوجة أو بنتا أو صديقة " ¹

وبهذا تعددت صور موت المرأة في شعر سميح القاسم بتعدد أدوارها في الحياة، وأول ما يطالع المتلقي من هذه الصور، صورة موت المرأة الأم، حيث استهدفها الاحتلال بممارساته الهمجية لاجتثاث الفلسطيني من أصوله العميقة الضاربة في رحم الأم الأرض، يقول القاسم:

أخاطب أرصفة المدن الميتة

وأسألها كيف لا تغضبين

وأوقف قافلة الهمج الزاحفين

لأسألها كيف لا تخجلين

بإعدام سيدة حامل

لقتل الجنين ²

كان الجاهليون يخلعون أوصاف الإلهة الأم على المرأة إذ تتبدى قداسة المرأة في قوتها الخارقة وقدرتها على بعث الحياة في الموتى إذا أسندتهم إلى صدرها وغذتهم بلبن الحياة من ثديها، كما ربطوا الخصب بها وعلقوا بقاءهم في المكان بوجودها فيه لأنها تهبه الحياة وتملؤه بهجة وحيوية، وإذا رحلت رحلوا، ورحيلها يحيل المكان إلى طلل مقفر يسكنه الموت ³، وهذا ما

¹ اليساري، مبروك: المنزع الواعي في شعر سميح القاسم. تلك جمجمة الشنفري. تحرير إبراهيم طه. دار الهدى للطباعة والنشر كريم 2011. ص 192

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج 3، ص 135

³ انظر، الديك، إحسان: صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي. مجمع القاسمي للغة العربية. 2013. ص 18

تشبعت به ثقافة القاسم فراح يعززه في لوحات الموت لينتصر لحياة الشعب، فيقول في قصيدة (الطفل الذي ضحك لأمه المقتولة):

وشد رداءها

ورؤاه، دغدغة وأرجوحه

وردد عاتبا: أم — — — ا ! "

ولم تسمع !

وظلت في جوار السور مطروحه

وظلت بض أزهار

تنز دما

على صدر جميع عراه مفتوحة

تصيح: "تعال يا ولدي"¹

يبين الشاعر علاقة الأم الوطنية بطفلها والتي لا تقطع بالموت، فهي هنا الأم الشهيدة التي تحرص على غذاء ابنها فلا تفتأ تناديه للرضاعة "تعال يا ولدي تعال ارضع"، وكأنها تريد أن تهيب حليب الحياة التي حرمت منها، كرمز لتجدد الشعب وبعثه من جديد وهذا ما يفيد استمرارية الفعل المضارع (تصيح)، حيث جاءت جميع الأفعال ماضية في هذه القصيدة باستثناءه وباستثناء الفعل (تنز) في إشارة من الشاعر لاستمرار الفعل الدموي الذي تمارسه إسرائيل على المرأة والشعب المستضعف، وقد تحيل أزهار القتيلة المتلقي إلى أزهار أدونيس، عندما انبثقت من قطرات دمه المتساقطة على التراب أزهار شقائق النعمان الحمراء وذلك عندما صرعه خنزير بري في جبل لبنان² لتوحي هي أيضا بتجدد الشعب ممثلا بالطفل وبعثه من جديد.

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج1، ص 280

² انظر السواح، فراس: لغز الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة. ص 301

ولا يقتصر موت المرأة الأم على سلب روحها الذاتية، وإنما يسلبها طفلها فلذة كبدها، وامتدادها فيتركها جثة هامة إلى جوار قبره تنوح عليه، يقول سميح القاسم في قصيدة (الحصار):

أنحني إجلالاً لتنوينة الأطفال

التي ما فتئت تردد دينها

على مسمع القبور الصغيرة

أطفالك المقتولين حديثاً¹

أو يتركها تبحث عن جثثهم باكية فزعة تحت الأنقاض، يقول في قصيدة (قطر الندى):

دم في دروب المخيم وصرخة أم

تلوب على لحم أبنائها

تحت أنقاض بيت مهدم وتبحث

عن بعض أسمائها

بين أنقاض قلب تحطم²

حينها يتجلى الوجه الآخر للمرأة للإلهة، وجه الأم والزوجة المحاربة التي تتحدى الموت

باتخاذها الاتجاه الصحيح:

لحظات مع الحسرة الشائره

فرحة غامرة

أقبلت آلة الموت

(يا موت أن لها الآن أن تستريح)

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 2، ص 645، 646

² المصدر نفسه. ص 705، 706

أخذت الاتجاه الصحيح إلى موتها¹

عدت المرأة التي فقدت جميع أفراد أسرتها نفسها كالأموات، ورأت بيتها ضريحا لا قيمة لحياتها فيه، فكان الموت هو الفرحة الكبيرة والراحة الكبرى بلحاقها بهم فلا خير في حياة لم يكونوا بها.

لقد أظهر القاسم الموت هنا بثلاث صور مختلفة فهو المكان الذي يقصد، وهو الشخص الذي يحاور ويستشار وهو الآلة التي تقبض الأرواح. ولا عجب أن يكون الموت هو الاتجاه الصحيح الذي يختاره أبناء هذا الشعب طوعا عندما لا يكون هناك خيار آخر في الخلاص في ظل الأحداث المتصاعدة، وهي لا تنتظر محطات السلامة عندما تمتد أيدي الموت لتتطال زوجها شريكها في الخصب، فتحت الخطى بثقة نحو الموت يقول سميح القاسم في قصيدة (أطفال رفح):

واشترت تذكرة حمراء،

من سوق الغضب

واستعاضت عن قطار في محطات السلامة

بقطار،

صاعد عبر محطات الذهب²

وفي المقطع السابق تتجلى لنا صورة موت المرأة الزوجة حين يدفعها فقد زوجها إلى رحاب الموت لإكمال مسيرته، فهي لا تقل عنه بطولة وشجاعة، يقول في قصيدة (انسلاخ):

لم أجدها في كومة اللحم

قالوا

أبصروها في أول القصف

كانت خلف كيس الرمل الأخير

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 3. ص 521، 522

² المصدر نفسه. مج 2، ص 106، 107

وقالوا

وأبصروها في خندق من بعيد

تتشظى وكان بين يديها وجه طفل

وقيل كانت تقاتل¹

ولا تغيب صورة موت المرأة الحبيبة عن أشعاره، فنراها حاضرة في قوله:

مقطوعة الضفائر

في الوحل، يا حبيبتي،

في الشوك، في الحفائر

مقطوعة الوريد، يا حبيبتي،

فضيحة القاتل.. بعد ليلة الخناجر..²

يصور الشاعر المرأة الفلسطينية العربية وقد هدرت كرامتها ومن ثم قتلت، قرن الشاعر بين ضفائر حبيبته وأوردتها في فعل القطع، فالمرأة العربية حيايتها وكرامتها وعزتها في شعرها، وجاءت الألفاظ (الوحل، الشوك، الحفائر) لتوحي ببؤس الحياة التي تعيشها هذه المرأة الفلسطينية الذي أودى بحياتها.

ويقول متحسرا على حبيبته القتيلة:

فكيف أغني

لحب النساء

ومحبوتي جثة هامدة³

ويرى أنها لا بد عائدة، لتحبيه كعشتار:

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 3. ص 260، 261

² المصدر نفسه. مج 1. ص 414، 415

³ القاسم، سميح: سربية أنا متأسف، ص 47

أنا سأغني

لمحبيبتي العائده

من الموت في الموت بالموت..محبيبتي الواحدة¹

وفي قصيدة (في ساعات الليل المتأخرة..)تظهر صورة موت المرأة الابنة، وفيها يقول:

قتلوا

فاطمة

بين أبيها والحقيبة²

ولا تكاد تظهر صورة موت المرأة الأخت إلا في إشارة بسيطة حين يستتكر موتها
وموت المرأة الأم:

وأين المروءة؟ أين الرجولة

على لحم طفل تنثر بين رماد الجديدة

وفحم العظام

وأشلاء أم وأخت قتيله³

¹ القاسم، سميح: سريية أنا متأسف، ص 48

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 1. ، ص 514

³ القاسم، سميح: سريية أنا متأسف، ص 35-36

المبحث الرابع

الغربة والموت

خسر الفلسطينيون أرضهم وأموالهم وهويتهم الوطنية، بعد أن لم يجدوا سنداً قوياً من إخوانهم العرب يعيد لهم ما فقدوه نتيجة المؤامرة التي نفذتها أطراف عدة أدت إلى ضياع أرض فلسطين بعد قتل أهلها وتشريدهم.

وبقيت مخلفات النكبة تطارد الشعب الفلسطيني وتجر الولايات عليه في أرضه ومنافيه فلم تقتصر صور القهر البشري التي يقوم بها الكيان الصهيوني على إذلال الإنسان الفلسطيني في وطنه بل تجاوزت هذا الحد لكي تقتلعه من جذوره في محاولة تبييسه وتئييسه ومن ثم خلعه من بلاده، فضيقت الخناق عليه في طرق شتى، مما دفعه إلى أن يهيم على وجهه في أصقاع الأرض.

وقد أتى سميح القاسم على ذكر الغربة في غير قصيدة من دواوينه الشعرية، وعد خروج الإنسان من فلسطين موتاً له، يقول في قصيدة (إليك هناك حيث تموت):

أخي الغالي!

إليك هناك في بيروت

إليك هناك.. حيث تموت

كزنبقة بلا جذر

كنهر ضيع المنبع

كأغنية بلا مطلع

وعاصفة بلا عمر¹

جاءت هذه الرسائل بين الإنسان العربي في الداخل وأخيه في الخارج لتفجر بالحوار موضوع البقاء في الأرض المحتلة أو الخروج منها، والقصيدة تثير مستويين من الصراع:

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج. 1. ص 109

الصراع العربي الصهيوني من جهة، والصراع الإنسان مع رفيق دربه المهاجر من جهة أخرى¹، وجاءت الصور المتلاحقة في نهاية المقطع الشعري لتبين رفض الشاعر لعملية خروج الفلسطيني من أرضه، فموت الإنسان خارج أرضه كشيء انتزع أصل وجوده وأساسه الذي يستند إليه، وهذا ما يحمل في طيات الرسالة ألما يخز قلب الشاعر ووجهه كالشوك المؤلم.

وقد ساوى الشاعر بين الغربة والنابالم في الفعل والتأثير فكلاهما قاتل وهذا ما يعيه الاحتلال الصهيوني الذي يسعى دؤوبا لإبادة الفلسطينيين، فيقول في قصيدة (الرجل الأخير):

تزدحم أجهزة التلّكس

بالصّحاحات المطالبة بإعدامك

رميا بالغربة أو " بالنابالم "

ويرسم في السجل السادس رحلة تشرد وضياح وموت الفلسطيني بعيدا عن الوطن، غريبا يغرق في مياه أنهار أوروبا، لا أحد يعير جنته أي اهتمام فيقول:

تطفو على السطح

في التيمز

جثة مغترب آسيوي

ثقوب الرصاص يمر بها السمك الميت

في التيمز²

يظهر الشاعر سميح القاسم الغربة من خلال أشعاره أنها متعبة مرهقة يعيش فيها الأحياء المغتربون كالأموات تمر عليهم سنوات العمر وهم على حالهم لا يزدادون إلا يأسا، فيقول في قصيدة (الموت في الغربة):

يمر القطار بركابه المتعبين

¹ انظر، يونس جمال: لغة الشعر عند سميح القاسم، ص 192

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 431

يمر بأحماله المرهقة

يمر

يمر

يمر

ونافذة الميت المغلقة

تؤدي تقاريرها للمستائر¹

عادة ما تكون النوافذ رمزا للأمل والنور ولكنها هنا مغلقة دلالة على حال المغترب اليائس، وقد جاء تكرار الفعل المضارع (يمر) ليؤكد مضي الوقت على نفس الحال.

إن مغادرة محمود درويش لفلسطين كان سبب خلافه الجدي مع سميح القاسم الذي صدم وغضب جدا حتى تدخل أبو عمار وأنهى الخلاف بينهما²، يقول سميح القاسم في قصيدة (تغريبة إلى محمود درويش) يصف فيه المغتربين بالقتلى الخالين من المشاعر:

يفرقنا العالم العربي

ويجمعنا العالم الأجنبي

ونبقى أجانِب في العالمين

ويبقى الرحيل

مع الريح، من منزل في الجليل

إلى الريح

في فندق غامض

يعانق فيه القتل القتل..

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة، مج2، ص 43

² انظر pdf www.alkarmelj.org/userfiles/file/issue3/171-214-2012.pdf أفنيت عمري في خدمة القصيدة (علاء حليحل)

بدون سلام

بدون كلام تقبل في عنقي قلب أمك¹

تتشابه أحوال المغتربين في كل مكان ويجمعهم الشوق والحنين إلى العروبة، وفرحهم بمكاتيب أهلهم وحلمهم بالعودة إلى بلادهم ولو أمواتا محملين في توابيت:

اشتبهوا صيحة ال"يا هلا ! " فرحوا بمكاتيب

أحبابهم وبكوا حالمين بعودتهم في التوابيت أو

مشرعين لمجد السموات والأرض راياتهم

وعلى قلق الحب والحلم والموت والمعرفة

أتقنوا كل لهجاتهم مثلما أتقنوا لهجة الأرصفة.²

إن كان واقع التشريد والغربة قد فرض على الفلسطينيين، فالشاعر يرفض الموت فيها:

في المطارات ولدنا.

نعرف القصة،

لكن..لن نموت

في الموانئ!³

ويفضل العودة إلى بلاده حتى ولو كان الموت هو الثمن:

وسأعبر الجسر الجديد إليك يا أمي سأعبر

وليكن موتي وراء الجسر تذكرتي إليك..⁴

لأن الموت بين يدي أمه وفي بلاده وبيته أحلى من الحياة في الغربة:

-الموت في بيتي

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2، ص 685

² المصدر نفسه. مج1، ص 109، 110

³ المصدر نفسه، ص 440

⁴ المصدر نفسه. مج2، ص 157

وبين يديك يا أمي الحبيبة

أحلى من الحياة

في صرح أرصفة غريبة!¹

لذا يحرص اللاجئ الفلسطيني إن لم يستطع العودة كل الحرص على عودة أهله وأبنائه،
لأنه يؤمن بأن الإنسان في الغربة ميت بلا قبر يضمه و يأويه ولا كفن يستره ويحميه، يقول
سميح القاسم على لسان محمد العابد²:

خذي المفتاح

وعودي أنت للبيت

وخليني هنا جسدا

مسجى خارج الوقت

بلا قبر. بلا كفن

سوى ما شاء لي موتي

وما شأنت وكالة غوثهم من ضجة الصمت

وما شأنت جنازة غربتي³

عارض سميح القاسم وبقوة الخروج من أرض الوطن، فصرح في مقابلة تلفزيونية
أجراها معه إبراهيم ملحم قائلا: "حتى لو فرض علي أن أدمغ بنجمة داود على جبيني مقابل
بقائي في الوطن فسأفتح جبيني لنجمة داود...بلادي جميلة قريتي جميلة وزوجتي وأبنائي وأهل
قريتي جديرون بأن أدفع هذه الضريبة مقابل أن أنتمي للبلد " ⁴

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج4، ص 76

² "شاعر شعبي فلسطيني من قرية البعنة الجليلية نسبت إليه أرجال كثيرة تبدأ بالقول "يا صاح محمد العابد " دون تأكد مما
إذا كانت له أو لسواه. وهكذا تجسدت في هذا الشاعر الشعبي شخصية "الراوية" الفلكلورية متداخلة بشخصية الشاعر نفسه

"سميح القاسم: سأخرج من صورتي ذات يوم ص31

³ القاسم، سميح: سأخرج من صورتي ذات يوم. ص 135، 136

⁴ برنامج خارج النص - سميح القاسم الجزء الثاني إبراهيم ملحم 15-11-2016

الفصل الثالث

موت الأنا

المبحث الأول

الحوادث والموت

تحدث الشاعر كثيرا في قصائده ودواوينه الأولى عن الموت وحتميته وقيمته لاستمرارية الحياة وبنائها ورفاهية أهلها، وواجهه وتغنى به واتخذ غاية ثورية مفجرة لطاقات البطل الثوري والفدائي ليكون استشهادا في أرض القتال والمواجهة درب النصر وتحقيق الآمال.

أما في كولاج سميح القاسم فقد جاء الحديث عن الموت ليتخذ منحى آخر تلاشت به كل تلك الدلالات والرموز والهالات التي أحاطت بالموت، وقد كان حادث الطرق الذي تعرض له عام ألفين واثنين وموت العديد من الأشقاء والأهل والأصدقاء والزملاء والمعارف ثم إصابته بمرض السرطان، نقطة التحول في تعامل الشاعر مع الموت.¹

وقد جاء الشاعر في مجموعات كولاج وفي سيرته "إنها مجرد منفضة" على الحوادث التي تعرض لها وواجه فيها الموت حيث كانت مفصلا حقيقيا في موقفه منه.

إن سر "جمالية قصائد الموت في كولاج سميح القاسم أنها ليست كالقصائد القديمة التي عرفناها لدى الشاعر، قد تكون أقل منها فنية وإثارة وشاعرية، ولكنها تمتلك خصوصية مميزة أن الشاعر يتحدث فيها عن موته هو، عن الأيام والأسابيع والأشهر التي عايش فيها الموت وتوقعه في كل لحظة، عن دموع الأهل التي لم يستطع رؤيتها، وعن القبر الذي انشغل في الترتيب له وتحديد مكانه وشكله، وعن الوصية التي اهتم أن تكون جاهزة".²

وللوقوف على موقف الكاتب من الموت الذاتي، لابد من الوقوف عند هذه الحوادث التي تجلى فيها الموت للشاعر في صورته الكريهة.

حوادث الاغتيال

على متن القطار العائد من الأردن في غمرة الحرب العالمية الثانية ونظام التعتيم، كانت أولى مواجهات الشاعر مع الموت، فقد دعر ركاب القطار عندما بكى سميح طفلا صغيرا فخافوا

¹ انظر، القاسم، نبیه: سمیح القاسم مبدع لا يستأن أحدًا. ط1. دار الهدى للطباعة والنشر كـريم. 2013. ص 246،

271

² المصدر نفسه، ص 272

أن تهتدي إليهم الطائرات الألمانية، وقد بلغ بهم الذعر درجة التهديد بقتله إن لم يسكت مما اضطر والده إلى إشهار مسدسه في وجوههم لردعهم مستكراً: "يا حمقى يا جهلة يا بهائم أتخشون أن يسمع الطيارون الألمان صوت بكاء طفل و لا تخشون أن يسمعو هدير قطار بحاله"¹.

أحزنه هذه القصة كثيراً ودفعته إلى التشبث بحقه في الحياة، من خلال مطالبته المحتل بالجلء عن بلده وتشجيع أبناء بلده على الثورة، كما دفعته إلى الإصرار على إبداء رأيه الحر وعدم الخضوع والسكوت تحت أي ضغط كان ولو كان التهديد بالموت: "حسننا لقد حاولوا إخراسي منذ الطفولة سأريهم سأتكلم متى أشاء وفي أي وقت وبأعلى صوت، لن يقوى أحد على إسكاتي".²

كبر الشاعر وكبرت مسؤولياته وقد علا صوته حتى أسمع العالم الذي حاول اغتياله من جديد، عندما اختطفته شرطة مكافحة الإرهاب البريطانية بقوة السلاح من أمام المصعد في فندق في (لندن) وقد عبروا به في موكب من سيارات الشرطة عبر غابة، وفي تلك اللحظة ظن سميح القاسم أنهم سوف يصفونه جسدياً هناك وسيقذفون بجثته في نهر (التايمز)، وفي خضم هذا الموقف المرعب يتحفز خيال الشاعر الساخر ويرسم لموته لوحة ساخرة غير عادية بفكر شاعر يسعى دوماً لتخطي كل ما هو مألوف: "وأكثر من ذلك فقد تخيلت جثتك طافية على التايمز، ورأيت بعض الأسماك الصغيرة الملونة تدخل من ثقب في جسدك وتخرج من الثقب المقابل"³

يشوب هذه اللوحة حس من السخرية رافقه في جميع مواقفه مع الموت: "لا يجوز إنكار إعجابك بذلك المشهد الافتراضي، ولا بأس عليك إذا أنت اعترفت بأنك أحببت الأسماك الملونة الصغيرة وأحسست بدغدغة زعانفها الناعمة لجدران جرحك المفتوح مثل فم صارخ في برية الكون المنغلق عن همومك والأفق المسدود عن جراحك وغضبك وهو أجسك"⁴

¹ القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة، ط1. حيفا: دار راية للنشر. 2011. ص 39

² القاسم، سميح: كولا ج 4. فلسطين: دار الرعاة للدراسات والنشر 2014. ص 9

³ القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص335

⁴ المصدر نفسه، ص 335

أما في بيت الصحفيين (سوكولوف) في تل أبيب، فقد أشهر أحد محرري الصحف مسدسه باتجاه سميح القاسم لأنه ناقش رئيس المخابرات "إيسر هرنيل" وهاجم الاحتلال وفظائعه¹، وقد وصف سميح المشهد لصديقه راشد حسين حيث قال: "ولم يكن على السفح من طلقة الرحمة سوى رحمة الله وصحفي من بني إسرائيل الذين تاهوا ولم يتيهوا"²

تعرض سميح القاسم للعديد من محاولات الاغتيال التي تعرض لها وأتى على ذكرها في سيرته "وكتلة الاسمنت التي هشت زجاج سيارتك في نيويورك، يوم كنت في ضيافة النادي العربي وفوهة البندقية المغروزة في خاصرتك على برج اللقلق المقدسي، والموقوتة التي هدد اليمينيون الصهاينة بتفجيرك بها في ندوة يافاوية، وسواها من ذكريات الترهيب والتخريب والشدة والرضا التي رافقتك وما زالت ترافقتك ويبدو أنها سترافقتك إلى يومك الأخير"³

كانت محاولات اغتياله تباغته في أي مكان أي زمان حتى ولو كان في منزل أقرب الناس إلى قلبه، منزل صديقه اليهودية التي فقدت والدها في المعسكرات النازية ونجت مع والدتها المصابة بمرض نفسي فعدت تتأرجح بين العقل والجنون الذي دفعها لمحاولة قتل سميح بالسكين التي طلبتها لتقطيع كعكة عيد ميلاد ابنتها، لتصحو في آخر لحظة من نوبة الجنون المفاجئة لتتقض عليه عناقا وتقبيلا وبكاء واعتذارا، لكن ابنتها صديقة الشاعر، لم تجد حلا لعلاقتها المركبة والمعقدة سوى قيادتها سيارتها الصغيرة بسرعة جنونية والارتطام بدبابة في استعراض عيد الاستقلال الإسرائيلي لتتحول سيارتها والدبابة إلى كتل نارية هائلة، أشعلت أحزان الشاعر وأسفه⁴.

كما وصلته مئات الرسائل والمكالمات التليفونية والفاكسات المشبعة بتهديدات متعددة الأشكال والألوان، ويظل الموت واحد⁵.

¹ انظر، القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة، ص 137

² القاسم، سميح: رماد الورد دخان الأغنية. حيفا: مكتبة كل شيء. 1990، ص 7

³ القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 137

⁴ انظر، المصدر نفسه. ص 282

⁵ انظر، المصدر نفسه، ص 137

غرفة الموتى

عندما رفض سميح التجنيد الإجباري للجيش الإسرائيلي، أودع السجن الانفرادي عقابا له، ولكن ذلك العقاب بكل ما فيه من قسوة، لم يرض المحتل الإسرائيلي الذي راح يبحث عن عقاب آخر أشد قسوة من عزل الشاعر عن الآخرين، لذا أرادوا أن يزلزلوا دعائم روحه المتمردة ويخضعوها بسياط الخوف والرعبة. فأرسلوه للعمل بغرفة الموتى في مستشفى "رمبام" في حيفا حيث وجد نفسه مرة أخرى في مواجهة الموت، وإن لم يهدده هذه المرة مباشرة وشخصيا، إنما رآه يتجلى في جثث الموتى الساكنة في تلك الغرفة، فقد كان كما وصفه عملا مضنيا مرعبا¹، ولم يجد مهربا منه إلا بأن يصادق أطباء التشريح والموتى، الذين كانت جثثهم تهمس في إذنه تطلب منه إيصال سلامها للأهل:

كنت أسيرا في سجن الغربية والوحدة والريح

وعقابا لي.. شغلني الجيش الإسرائيلي

في غرفة موتى مستشفى رம்பام

صادقت الموتى. وأطباء التشريح

وسأذكر طول العمر المختصر سأذكر همسة جثته:

"بلغ للأهل سلامي.. لا تنس.. سميح ! "

وتطاردني طول العمر المختصر مرارة غضبي..

لم أعرف أهل الجثة !²

حوادث الطرق

لطالما كان طريق عودة الشاعر إلى الرامة محفوقا بالمكاره فقد تعرض غير مرة لحوادث سير تركت بصمتها الواضحة في حياته وجسده، فقد تعرض سميح في أوائل الستينات لحادث سير في طريق عودته من معسكر (فران) إلى الرامة، بعد انفجار إحدى العجلتين

¹ انظر، القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 125

² القاسم، سميح: كولا ج 2. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2005. ص 141

الأماميتين للسيارة العسكرية التي يقودها ابن بلده الضابط حافظ حنا، حيث تدرجت السيارة عدة مرات في واد قرب بئر السبع، وبعد أن توقفت سحب القاسم نفسه سالما وساعد سائر الركاب على الخروج من السيارة ثم استوقف سيارة باتجاه حيفا وعاد إلى أهله ورامته وأصدقائه¹.

وصف سميح القاسم الحادث بعد فترة طويلة متأملا في تلك اللحظة التي لا تفتأ تقفز إلى ذاكرته بين الفينة والأخرى، قائلا: "انتظار واع وهادئ للموت في سيارة تدرج بي من الشارع العام شمالي بئر السبع إلى سطح لا تثبت عليه سوى رحمة الله وبضع شجيرات هشة"²، تذكر الشاعر هذه الحادثة في (كولاج 3)، فيقول:

أيها الأخوة الطيبون الكرام

ربما تذكرون، فمن قبل خمسين عام

قال لي الموت الزوام

إنه يشتهيني فتيا،

فلا تخذلوه إذا مت شيخا عجوزا،

وقولوا له: أيها الموت

مات على دين شيخ.. غلام..³

اقتضت رحمته تعالى أن يخرج سميح القاسم من هذه الحادثة سالما معافى لم يصب بسوء، وقد ظهر بمظهر الإنسان المتماسك والبطل المنقذ.

تعرض الشاعر مرة أخرى لحادث سير بعد ظهر يوم الأربعاء الحادي عشر من كانون الثاني عام 2002، في طريق عودته من الناصرة إلى الرامة، لكن هذه المرة كاد الحادث أن يودي بحياته فعلا.

¹ انظر، القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 126

² القاسم، سميح: رماد الوردية دخان الأغنية. ص 7

³ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 8

دخل الشاعر على إثر هذه الحادثة في غيبوبة لتسع ساعات سيطرت فيها مشاعر الخوف والهلع على أهله وأقربائه، وفور استيقاظه رحب به الطبيب قائلا له: " أهلا وسهلا بعودتك إلى الحياة فقد كنت في عداد الموتى طيلة تسع ساعات" ليجيبه سميح بهدوء: " الذي له مدة لا تقتله شدة، والأعمار بيد الله يا حضرة الطبيب"¹.

إن "حديث الشاعر عن الموت ليس كمعايشته ساعة وقوعه، فالساعات التسع التي غاب فيها عن الوعي في رحلة الموت، وانقطع عن كل ما يحيط به، كان شبح الموت يتجسد أمامه بكل مهابته وبشاعته وخطره، وهاله بعد عودته من رحلة الغياب، أن يرى الفرع في عيون الأهل، والخوف يكسو ملامح الجميع، والدموع تتقافز من عيونهم"² فتألم وتوسل:

عربات العمر تنأى

وخيل الموت تدنو

لا تتوحوا³

لم يعد الموت مجرد شبح يتغنى به بل تجسد له بقوته وجبروته، ذلك المفترس الذي حاول اصطياده من قبل ولكنه لم ينجح، فأعاد الكرة من جديد حاملا إياه بعيدا عن الحياة وكل ما فيها وكأنه ضفة أخرى وبعد آخر، زاره وعاد سالما فلم يكن مقدرا له المكوث به هذه المرة أيضا، فعاد مشرعا يديه للحياة طالبا مباركتها، يقول الشاعر:

سالما . غانما

عدت من أبعد من حياتي

ولتبارك خطاي الجهات

ريثما

إنما

¹ القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 241

² القاسم، نبيه: سميح القاسم مبدع لا يستأذن أحدا. ص 247

³ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 24

ربما¹

لكن هذه العودة مشروطة بمقدار مهلة من الزمن (ريثما وإنما وربما)، وكأنه يتساءل: سالما إلى متى؟

تعرف الشاعر على الموت بصورة أكثر قربا، وكون فلسفته الجديدة الخاصة عنه، حيث وصفه لامرأة سألته إن كان قد مر في نفق أسود هائل في أثناء موته القصير فأجابها مباشرة: "لا يا سيدتي العزيرة لا أنفاق ولا يحزنون، والحقيقة أن الموت أشد بساطة مما يقول الناس، وأعتقد أن ساعات الموت التسع تلك كانت أجمل ساعات حياتي، فلا صراعات مع البشر، ولا وجع أسنان ولا نشرات أخبار مقززة، ولا ضجيج ولا آلام، ولا شيء سوى هدوء الحياة وطمأنينتها، وصدق الذين أطلقوا على صاحبنا الموت لقب "الراحة الأبدية"²، وفي مقام آخر وصف بساطة الموت قائلا: "إن الموت أهون بكثير من وجع الأسنان وإنه ليس بالسوء الذي يوصف به"³

وجد القاسم في الموت بساطة لا متناهية وملذا آمنا هادئا بعيدا عن صراعات البشر وضجيج الحياة، وكأنه في الجنة حيث لا يقولون إلا سلاما، ومن هنا جاء تقبله واستعداده له، حيث يقول:

ذراعي مبسوطتان..خذوني

إلى ضجعة الموت،

حيا خذوني

ولا تخذلوني !

إن عبارة (ذراعي مبسوطتان) تدل على استعداد الشاعر الكامل لمقابلة الموت، فقد رأى فيه الراحة التامة على مخمل التابوت وحريره، حيث لا وجع أسنان ولا مرض سكر، فيقول:

أود كم أود لو أموت

¹ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 125، 126

² القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 241

³ مقابلة ابتهاج زبيدات: سميح القاسم: أطالب بالعودة إلى الخلافة الفاطمية شرط أن تتم مبايعتي خليفة للعرب حديث «شيطنة» بعد شفائه من مضاعفات حادث السيارة المروع. 17-11-2015

بصحة جيدة..لا وجع الأسنان

يخلع ضرر العقل من رأسي.ولا

يطبخني السكر بالكولسترول المر

في طنجرة الدهون والأعصاب والريقان

أريد.كم أريد أن أموت

بصحة جيدة

يحضنني الحرير والمخمل في التابوت

أريد أن أموت¹

لذا فهو يستعد لهذه الرحلة ويعد حقيبته الصغيرة لها، فليس هناك الكثير ليأخذه:

حقيبتي الصغيرة

جاهزة يا موت

برهتي في الوقت

تكفي صلاة الرحلة القصيرة

والقبلة الأخيرة²

لم يعد هناك وقت أمامه، فهو يرى أنه لم يتبق له من العمر إلا القليل الكافي لصلاة أخيره وقبلة وداع أخيرة.لكن هذا الملاذ الآمن سرعان ما تلاشى بعد أن رأى مدى الضرر الكبير الذي قيد حرية القاسم وحركته، فقد كسرت كتفه وهشمت كعب قدمه، وارتبط بما تبقى له من أيام العمر بمقبض العكاز الذي غدا له رجلا ثالثة تعترضها الحواجز العالية وتعيقه عن هوايته المفضلة ألا وهي الرقص، فيقول:

ونى قدمي على خبطة الأرض باد

¹ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 101

² المصدر نفسه. ص 26، 27

تراجعت عن دبكة العنقوان الشمالية التفت

من قدم هشمته صروف الزمان

على الشارع العام ما بين حزني وحزني¹

إن مرور سميح بهذه التجربة لم تعقده ولم تحبطه بالرغم من محدودية القدرة على التحرك، وهي مزعجة بلا شك، لكن أفقه الروحي الرحب ظل عزاءه الكبير، وتظل قناعاته هي الكنز الذي لا يفنى "لا يعقل أن يحصل الإنسان على كل ما يريد في أي وقت يريد، فالنيل المطلق والأخذ اللا محدود مفسدة"²، فهامو لم يتمكن من رفض الدعوة لأداء الرقصة الأخيرة، فيرقص بالرغم من كل شي:

همست: "هيا يا ملك التانغو

أدعوك إلى آخر رقصه .."

لا أعرف كيف نهت إليها

بالقدم المسحوقة في حادث طرق بائس

والكتف المكسورة³

كان الشاعر قنوعا بما قسمه الله مرحبا بقضائه متسامحا فيه" لم أفعل في حياتي ما يغضب الله لذلك فأنا أحبه ولا أخافه" إن محبة الله تجعله يرحب ببلقائه في أي وقت، يقول:

بكل الجلال وكل الوقار وكل الجمال..سنتاتي

لأنك موتي

ولن تشبه الموت في أي شيء

لأنك موتي الخصوصي.موتي الفريد الوحيد

صفاتك بعض صفاتي

¹ القاسم، سميح: سربية أنا متأسف. ص 105

² مقابلة ابتهاج زبيدات

³ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 127

وسمك سمتي¹

يؤمن الشاعر أن الموت قادم لا محالة فهو القدر المحتوم والمصير الأزلي لكل كائن حي فهو يؤمن بقوله تعالى: " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ " ²، ولكن تبقى الحيرة في وقته ومكان حضوره، " وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ " ³ لكن موته سيكون مختلفا عن موت الآخرين، لا عجب فلطالما كان مختلفا عن الآخرين لذلك اختار لموته صورة تناسبه فموته يتجلى بصورة جميلة مشرقه تناسب روحه الجليلية المتميزة، سيأتي حاملًا له الزهور الجليلية وهي توحى بارتباطه ببلاده حتى بعد مماته، وكذلك الزيت الذي يضيء في جبين الموت، سيأتي بكل جلاله وجماله وهيبته التي تليق بالشاعر ومكانته، لن يكون مشابها للموت العادي الذي تفرع من ملكه الملائكة أشد الفزع، رأسه في السماء ورجلاه في الأرض ⁴، سيكون موته الخصوصي الفريد.

وقد أعطته تجربته مع الموت فرصة أخرى ليتأمل حياته بتمعن ليعيد أوراقه من جديد قبل ان يفوت الأوان، حيث يقول: " إن المرور بتجربة الموت تدفعنا إلى إعادة ترتيب أوراقنا بشكل أكثر عدالة بحيث نعطي ما لقيصر لقيصر، ونعطي ما لله لله، ونعطي الأسرة والأحباء ما لهم علينا من حق " ⁵ وحيث يقول أيضا (في كولا ج 2):

قليل من الموت يكفي

لترتيب أوراقنا المهملة

وتبقى شهادة ميلادنا في ملف الوفاة

ويبقى قليل من الذكريات

وتمضي الملفات. كل الملفات تمضي

إلى المزبلة ⁶

¹ القاسم، سميح: كولا ج 2. ص 106، 107

² سورة آل عمران، آية 185

³ سورة لقمان، آية 34

⁴ انظر، التذكرة في أحوال الموتى. ص 20

⁵ مقابلة ابتهاج زبيدات

⁶ القاسم، سميح: كولا ج 2. ص 13، 14

إن كانت هذه الحادثة جعلته يقيم علاقته بالأهل وبمن حوله من جديد، فقد جعلته أيضا يدرك أهمية الوقت ويحرص على استغلاله جيدا "والتنبيه لأهمية الوقت والمكان، لذلك أصبحت أكثر نشاطا في الكتابة مثلا، وأتجول في العالم للقراءات الشعرية بقدرة أقل لكن بحماس أكبر وأجدي¹ كما يقول:

فجأة. في آخر العمر انتبهت

كل ما ينقصني في الوقت. وقت

وقبل البت في الحل، وقبل الحل..مت !

حسب الوقت..ولكن ما حسبت !!²

يمضي الوقت دون أن ينتبه الإنسان إلى عمره الذي يمضي، ولا يدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، والمقطع الشعري السابق يظهر الإنسان عاجزا أمام الوقت.

وقد رأى أن في تجربة الموت لساعات هي من قبيل الموعظة، فازداد قربا من الله، وفي الوقت نفسه جعل هذا الحادث الأشياء تبدو أقل أهمية مما كانت "حتى الحياة نفسها أصبحت بنظري أقل أهمية مما كنت أتوهم"، فيقول:

أين تفاحتي وكأس نبيذ **وكفافي من خبز حزني اللذيذ؟**

أين ناري وشمعتي وورودي **وصلاة الوداع والتعويذ؟**

للرحيل الأخير هيات نفسي **ولدى الله ساعته التنفيذ!³**

ألزمت هذه الحادثة سميح القاسم البيت سنتين، قضى منهما ستة شهور على كرسي متحرك، ولكنها لم تنته عن رسالته السامية فاستغل الأمر لكتابة الكثير، مثل سربيات جديدة، أو ما يعرف بالمطولات الشعرية، وديوان ملك أتلانتس "صرت أكتب بنهم وبحب أكبر، لكنني لا

¹ مقابلة ابتهاج زبيدات

² القاسم، سميح: كولاج 2. ص 117

³ المصدر نفسه. ص 23

أنشر بنفس الغزارة، بقائي في الحياة هو بإرادة ربانية، ويجب ألا أخذل الله، وألا أخيب آماله في، وعلي أن أنجز أكبر قدر ممكن، بما يرضى الله ويبرر بقائي قيد الحياة"¹

وقد كان الشاعر قبل هذا الحادث يحب الاقتراب من الموت وملامسة أطراف أصابعه على حد قوله: "أفعل ذلك في الشعر وأفعله أثناء قيادة سيارتي أعتقد أنني أثير الرعب في قلوب سائقي السيارات الذين يصادفونني على الطريق العام، لأنني أورطهم في مواقف الاقتراب من الموت إلى مسافة الثانية الزمنية"²، ويقول الشاعر:

أيها الموت لا أخافك

سأمسح بك الأرض

مرتجفا هلعا

وأجعلك عبرة للأموات!³

نجح الشاعر في ملامسة أطراف الموت، بل والتعرف عليه شخصيا وبصورة أقرب مما كان يظن، وإن لم يمت فقد ذاق طعم التجربة بما يكفي لتكوين فكرته الفلسفية الخاصة عنه.

بات الشاعر يكره السيارات ويحتقرها، وقد كان يتنقل بوساطة أصدقائه وبعض العاملين في الجريدة "لكن مشكلتي عندما أجلس إلى جانب السائقين أرى أخطاءهم في السياقة فلا أعطيهم أي ملاحظة لأنني أخشى أن يفهموا بأنني أخاف الموت والحقيقة أنني غير خائف من الموت بقدر ما أنا خائف من عكاز إضافي، ولو أنني أضمن أن حادث الطرق يقضي علي فانا موافق، أما عكاز فلا، أنا غير مستعد لتكرار هذه التجربة الصعبة"⁴

ظل سميح القاسم تحت تأثير حادث السيارة الفظيع يتوكأ على عكاز وبقايا حلم يعتقد أنه غير قابل للانكسار والانهيار - حلم الثالوث المقدس - الحرية والوحدة والاشتراكية⁵، وأصبح

¹ مقابلة ابتهاج زبيدات

² المصدر نفسه

³ القاسم، سميح: كولا ج 2، ص 103، 104

⁴ مقابلة ابتهاج زبيدات

⁵ المصدر نفسه

يهجس بحوادث الطرق ليس البرية منها فقط بل الجوية أيضا، فقد كان يتوقع عند إنهائه لجولته العربية الأوروبية التي قام بها بعد الحادث أن تسقط به الطائرة بل راح يتمنى ذلك: " لم تسقط بك الطائرة كما كنت تتوقع أو تتمنى"¹:

وحيدا..حزينا تسافر في رحلة نادرة

وتسقط طائرة في الهزيع الأخير من الليل

ركابها يسلمون جميعا وينجو من الموت طاقمها.أنت وحدك

مشفقة.. تحوم الملائكة البيض حولك

تتساءل في سر موتك:لكن ماذا أنا دون غيري

أموت؟ وتهمس أعماقك الخاسرة:

ولم تعرف الطائرة

ولم تصنع الطائرة

وما أنت فيها ولست عليها،

سوى ذرة في المدى عابره²

قد تكون هذه الطائرة هي هذه الحياة التي تعرض فيها لهذا الحادث حيث لم يتضرر به إلا هو في هزيع الليل وما هو إلا المرحلة العمرية التي يعيشها الشاعر، وقد تساءل لماذا هو؟ ليأتي الجواب من داخله بتوضيح علاقته بهذا الكون فهو الغريب في هذه الحياة وما هو فيها إلا ذرة عابرة في هذا المدى العابر وما سر دخوله هذه التجربة إلا ليكتشف هذه العلاقة.

ثم تضافرتا العديد من العوامل المتآمرة على الشاعر مع اليأس "حادثة الطرق التي ربطت ما تبقى لك من أيام العمر بمقبض العكاز، وحوادث التاريخ التي افترست حلمك الشاب الأبدي بشيخوخة دوريان غراي، والاحتكاك ذو الوتيرة المزعجة والمقززة بين أصابع تفاؤلك الطويلة وجدران اليأس الرخامية السوداء الباردة، والحوازر الكثيفة الصلبة العالية التي تعترض حركة

¹ القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 171

² القاسم، سميح: اتلاتس وسرديات أخرى. ص 58، 59

جسدك وحركة حلمك كل هذه العوامل المتداخلة والمتراكمة تجعلك أقل تشبثاً بالحياة، وها أنت تستحضر في هواجسك وفي جلساتك العامة جملة من الآيات والمفاهيم والمقولات الدينية الإلهية الغيبية، أجل الغيبية"¹، كما أن الساعات والأسابيع والأشهر التي لازم الشاعر فيها السرير مرغماً بعد تعرضه لحادث الطرق، وضعته أمام واقع جديد لم يعهده سابقاً، واقع الوحدة والملل وقضاء الساعات أمام التلفزيون وقراءة الصحف والاستماع إلى الراديو ولعب المحبوسة واحتساء القهوة وتدخين السجائر"²، فيقول في تصوير حاله البائس:

أن ينسحب الملح الأبيض من الخبز الباقي

أن ترحل عنك عصافير الخروبه

أن تفقد طعم الكبة والنعناع

وتنسى رائحة المقلوبة

أن يبتعد النرجس عنك وينأى زوارك

أن تتضاءل أخبارك

المعنى في المعنى

أن حياتك ما عادت مطلوبة

(غود باي، ماي فرند. غود باي..³)

لم يعد يجد الشاعر مذاقاً للطعام فقد فرض عليه الابتعاد عن الأطعمة التي يحبها وتناول الطعام المخصص لحالته الصحية حيث لاملح. كما يجد الشاعر نفسه وحيداً رهين البيت لا خروج ولا زوار ولا جيران، وقد انشغل الجميع عنه في عملهم كسنة الحياة، ورأى أن حياته لم تعد مطلوبة فودعها ساخراً يائساً باللغة الانجليزية (غود باي، ماي فرند. غود باي)، وفي الوقت الذي تمنعه فيه من التدخين خوفاً على صحته، يجد في سجائره عزاءه الوحيد وطرقه الأكيد نحو الموت، ففيها الموت الكثير البطيء الفاخر، يقول:

¹ القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 171

² القاسم، نبيه: سميح القاسم مبدع لا يستأذن أحداً. ص 252

³ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 144، 145

كثير من التبغ يعني قليلا من الوقت

دخن ببطء إذا شئت موتا سريعا

ودخن كثيرا إذا شئت موتا كثيرا

ومت في سجائرك الباهرة

إذا شئت موتا وثيرا¹

وبالرغم من المخاطر الناجمة عن التدخين، يخلي الشاعر شركات التبغ من مسؤولية مرضه ثم موته، فيقول:

التهاب اللثة المزمن. رنتجن. تصلب الشرايين.

الأوداج. الجهاز التنفسي الموصد، النوبة القلبية

الحادة. يسمونه الداء الخبيث واسمه السرطان.

لن أقاضي شركات التبغ. ليس لدي من

أقاضيه سوى.. موتي، الدخن الهادئ²

وبين غيوم اليأس يظهر خيط من السخرية المشوب بالألم يعزف على حادثة السيارة، عندما وصف السيارة مستهزئاً مستحقراً لها: "ماذا يعني أن قطعة من الحديد تفعل ما فعلته بإنسان؟"³، وقوله: "عندما أقود سيارتي داخل البلد أخاف أن يراني الناس صرت اخجل من أن يقولوا: "واضع عقله بعقل قطعة حيد فارغة وبلهاء كسرتة وما زال يتعامل معها"⁴

ثم عندما استحضر في ذهنه بعد الحادث الشاعر الاسباني (رفائيل ألبرتي) في موقف مماثل لما كان عليه ومات بعد زيارة سميح له في المشفى، داعب القاسم نفسه قائلاً: "من يدري إذا زارني شاعر اسباني وأنا على هذه الحال فقد يعني ذلك أن نهايتي قد دنت، وتضحك وأنت

¹ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 93، 94

² المصدر نفسه، ص 73

³ مقابلة ابتهاج زبيدات

⁴ المصدر نفسه.

تتخيل نفسك متمشياً في حدائق الجنة متكئاً على عصاك وإلى جانبك(رفائيل ألبرتي)المتشبه
بعصاه هو الآخر"¹

لعل هذه السخرية تخفف من وطأة المصيبة التي ألمت به، أو لعله كبرياء الشاعر أمام
رهبة الموت، فيقول وقد وجد فائدة لموته:

نموت وندفن تحت التراب بحكم الأجل

ونصبح نفطاً

تنقب عنه جميع الشعوب وكل الدول

سنصبح نفطاً

لماذا إذا يا صديقي الخجل²

ويقول ساخراً ممتعظاً الحر الشديد وكونه وقتاً غير مناسب للموت:

الحر شديد جداً

لو مت الآن

فسأفطس حراً في التابوت

الأفضل لي لو كنت أموت

في طقس أفضل

يا موت اتركني الآن.تفضل

وارحل³

ثم تأتي نبوءة الشاعر، وحاسته السادسة بإصابته بمرض السرطان، فيقول:

وحين يقول الطبيب: "أصبت بداء عضال"

¹ القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 180

² القاسم، سميح: كولاج 2 ص. 103

³ المصدر نفسه، ص 125

سأحزن لا شك.

لكنني لا أطيل السؤال

عن الداء والأدوية

سأرحل في قارب حالم لا يزال

على شاطئ القلب.. والأغنية!¹

لذا يتعلق الشاعر بالحياة من جديد، فيشخص الموت ويبين عدم ترحيبه به:

ولن تتوقع مني انتظارك في باب بيتي

ولن تتوقع "أهلا وسهلا.تفضل

على الرحب.نورت يا صاحبي كيف حالك؟

شرفت.يا مرحبا زارني في الصلاة النبي.

وهل هلاك.أنت تأخرت أنت تخليت عني طويلا.

هلا.يا هلا بالصديق العزيز ".

فلست صديقا.ولست عزيزا. ولكن ستأتي²

ثم يعلن كراهيته له وعدم الخوف منه بشكل صريح، فالموت يتناهى صغرا أمام إرادته:

أنا لا أحبك يا موت!

لكنني لا أخافك !

وأنت صغير علي

وبحري تضيق عليه ضفافك

وحين يكون مهيبا له سوف يتوحد معه بكل شجاعة:

¹ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 97، 98

² المصدر نفسه. ص 108

وسوف تموت اشتياقا إلي

سريك جسمي وروحي لحافك

تفضل..أنا..لا..أخافك

أنا..لا..أخافك ! ¹

¹ القاسم، سميح: كولا ج 2. ص 158، 159

المبحث الثاني

المرض والموت

مرض السرطان

راود هاجس السرطان الشاعر في أوائل الستينات، حين لاحظ ورما في سبافته اليمنى، وعندها أطلع صديقه أيام الدراسة في كلية تيراسانطه (انتونيو بلاتسولو) عليه، وقد خاف هذا الصديق الايطالي من أن يكون الورم خبيثا لذا أصر على سميح أن يذهب إلى والده الذي كان موظفا إداريا في المستشفى الايطالي بحيفا، ليعرضه على أطبائه، فحص الورم في سبابة سميح، ثم طمأنه إلى أنه ورم دهني قد يكون ناجما عن لعبة شد الحبل المدرسية، وقد ارتأى الطبيب أن تجري عملية استئصال لهذا الورم القبيح، وهذا ما تم فعلا¹.

كانت هذه الحادثة جرس إنذار كاذب تشبث سميح القاسم على إثره بالحياة وأبدع في رسم خطواته الخاصة فيها، ولكن هواجس هذا المرض عادت من جديد تدق بابه ليخضع مرة أخرى للفحوصات الطبية، وقبل أن تظهر نتائج الفحوصات صرح صديقه عصام خوري عند إصابته بتوقعه الصحي وأنه يخشى أن تكون نتيجة الفحوصات أوراما سرطانية، وعندها غضب منه عصام لهذا القول فأردف سميح قائلا: "وهل المزاح ممنوع؟"، تكرر مزاح سميح مع عصام خوري في هذا الموضوع مرارا²، إلى أن تم تشخيص المرض في الثاني عشر من تموز عام 2011. في البداية لم يصارحه الطبيب العربي بمرضه بنفسه، وإنما بمساعدة الطبيب اليهودي الذي قال له بعد تردد: "نشك أن لديك ورم فقلت يعني سرطان؟ فأجاب نشك لكن غير مؤكد! فسألته سرطان؟ فقال مرتبكا: نشك"³، وهنا يأتي رد الشاعر بسخريته المعتادة الخارقة للمألوف "السرطان من ثمار البحر ولا أحب ثمار البحر، احضر سمكة، ففوجئ وقال هذه أول مرة أسمع هكذا رد فعل"⁴

¹ انظر، القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 168

² خوري عصام: ليزر إلى سميح القاسم. شهادات في الشاعر الكبير سميح القاسم. حفل تأبين. جامعة النجاح الوطنية.

2014 ص 36

³ مقابلة وديع عواودة: سميح القاسم اقول للمرض: أنا لا أحبك يا موت لكني لا أخافك www.alquds.com

⁴ المصدر نفسه.

ثم يبرر الشاعر ردة فعله بمنطلق عقلاني متفهم: "لدي إيمان فكل نفس ذائقة الموت،
وسأموت كبقية الناس، إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فهذه قناعة إيمانية منذ
طفولتي ورثتها من جدي وأمي ووالدي وراض بها"¹:

آخر الذكريات

أول الذكريات

فاذكروا

كل من عاش مات²

واجه الشاعر مرضه ومصيره المحتم بشجاعة وثبات مستمدان من إيمانه بحتمية
الموت: "لا أدعي البطولة، ولكن لي أنا قناعاتي وإيماني، قناعاتي أنه لا يوجد إنسان يحق له أن
يقول "لا هذا يحدث مع غيري ولا يحدث معي" الإنسان معرض لكل شيء"³، وهو واقعي في
قوله: "كل شخص ثالث في البلاد إما مريض بالسرطان أو معرض له، وأنا أعيش هنا وجزء
من هنا يجب أن آخذ الأمور بروح رياضية وبواقعية ومن دون جبن، ليس عيباً أن أقول أنني
لست جباناً، لم أكن جباناً في حياتي ولا أريد أن أصير في نهاية عمري جباناً"⁴، وبالتالي سيمشي
جريئاً واثقاً معه:

وإن جئتنى سوف أمشي معك

ولن أردعك

سأمشي بساقين لا من قصب

ولا من تعب

ولا من خشب

¹ مقابلة وديع عواودة: سميح القاسم أقول للمرض: أنا لا أحبك يا موت لكني لا أخافك.

² القاسم، سميح: كولاج 3، ص 58

³ حليحل، علاء: مقابلة خاصة سميح القاسم أفنيت عمري في خدمة الكرمل الجديد www.alkarmel.org

⁴ المرجع نفسه.

⁷ المرجع نفسه.

سأمضي وراءك¹

وتطفو اللهجة الساخرة المتحدية للموت على لسان الشاعر من جديد قائلاً: "أنا لا أحب الموت لأنني أحب أن أعيش، ولكن إذا "أجا:طرز عليه" ولا أخاف منه إن جاء فأهلاً وسهلاً وركبتي لن ترتجفاً هلعاً، أفضل ألا يأتي ولكن إن أجا ف "طرز عليه" لا تستطيع أن تهرب فكل نفس ذائقة الموت"²، ويظهر القاسم في مظهر الند المشاكس للموت:

يشاكسني الموت،

في لعبة الموت،

لا بأس فالموت يعلم

أني صديق مشاكس

ويفقه أن طريق الحياة،

طريقي الطويل العريض..المعاكس³

كما قال أيضاً: "بدون شك ضايقتني المرض لكن بطبيعتي وأنا من برج الثور العنيد جداً، قلت في لحظة بدعابة"⁴:

إشرب فنجان القهوة،

يا مرض السرطان

كي أقرأ بختك في الفنجان

إشرب !⁵

وقد أقر القاسم بأن تأثير مرض السرطان على حياة الإنسان يتوقف على الإنسان المريض نفسه وعلى معنوياته وإيمانه "لست خائفاً أنا لا اعرف حتى أسماء الأدوية، لولا

¹ القاسم، سميح: بغض النظر. منشورات إضاءات. 2012. ص 86-87

² حليحل، علاء: مقابلة خاصة سميح القاسم افنيت عمري في خدمة الكرمل الجديد

³ القاسم، سميح: كولا ج 3. ص 5

⁴ حليحل، علاء: مقابلة خاصة سميح القاسم افنيت عمري في خدمة الكرمل الجديد

⁵ القاسم، سميح: كولا ج 3. ص 85

زوجتي لا اعرف شيئاً ولا آخذ الأدوية، ولا أذهب إلى مواعيد الفحص لولاها¹ ويقول معترفاً
بفضلها عليه ودعمها المستمر له في مسيرة حياته ومرضه:

وأنا أدرك الآن كم أنت متعبة متعبة

بدوائي ودائي وفحص الأطباء والخوف مما يقال

على صحتي وارتفاع الحرارة ما بين حين وحين

تقلقين كثيراً على حالتي تقلقين

وعلى صحتي تسهرين

مثل أم على طفلها تسهرين

آخ يا زوجتي الطيبة

لا أحب الكلام عن اللحظة المرعبة..²

كما أن بطولة الشاعر لا تنفي حقيقة أن المرض خطير، ويهدد حياة الإنسان مهما بلغت
مقاومته، فيقول:

أرهقني السير على الأشواك وفوق الجمر

وطال الدرب

وتلاشى هذا القلب

في داء الحزن وداء الشوق وداء الحب

خذ بيدي..في آخر خطواتي

خذ بيدي..يا رب!³

¹ حليجل، علاء: مقابلة خاصة مع سميح القاسم أفنيت عمري في خدمة الكرمل الجديد

² القاسم، سميح: كولاج 4. ص 108

³ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 84

يسيطر اليأس على الشاعر في كثير من الأوقات، ولكنه يعود ليتماسك من جديد، ويلوح الأمل في حياته ليصارح به الموت، فيقول:

أوبخ اليأس: لا تطمع، فبي أمل يصارع الموت في صمتي وضوضائي
ولي الحياة بما أعطت وما أخذت ولعبة الموت تبقى بعض أشيائي
أصد سطوتها عني بما قدرت روحي و أسخر بالبداني من النائي
ولا أخاف سوى أعباء إبطائي¹

"مرض خطير كالسرطان يهدد الحياة تهديدا مباشرا ولدي مشاريع كتابة، أحفاد، بناء، وسفر"²، فلم يقل القاسم كلمته الأخيرة بعد "ولأنك لا تدعي العصمة ولا تزعم الكمال، فإنك تترك تترك الجزء الأخير من هذا البوح العفوي وغير المقولب واللامحوسب، مجالا لكلمة أخيرة. ولن تكون تلك كلمة أخيرة لأنه ما من كلمة أخيرة على الإطلاق، فلا قمقم يتسع لرياحك ولا شاطئ يحصي أمواجك.. أنت حبة الرمل وذرة التراب وقطرة الماء التي أرادت بلا هودة أن تتقمص البشرية وتخترن العالم وتمتلئ بالكون"³ لذلك يدعو الله أن يديم عليه نعمة العقل السديد في زمن زمن يكثر فيه الخرف، فلا حياة ولا ممات بدونه يقول:

أسأل الله أن أعيش بعقلي كل عمري.. وأن أموت بعقلي
لا تقل لي عش كيف كان فإن العيش حلو مذاقه. لا تقل لي
ما حياة - بدون عقل - وموت يا إلهي رفقا بنفسي.. وأهلي !⁴

كما يطلب منه طول العمر، لينجز أشغاله الكثيرة و ليكتب قصيدته المهمة:

يا خالقي لا تختصر أيامي

شغل كثير لا يزال أمامي

ما زلت مسكونا بحمي هاجس

¹ القاسم، سميح: كولاج 4. ص 104

² حليجل، علاء: مقابلة خاصة سميح القاسم أفنيت عمري في خدمة الكرمل الجديد

³ القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 357

⁴ القاسم، سميح: العنقاء وقصائد أخرى. منشورات إضاءات. 2012. ص 77

أم القصائد، مطلعاً لختامي !¹

لذلك يطلب من الموت ألا يأتي إليه بسرعة فالشاعر كسول في استقباله، ويستجير بالله منه، ثم يقابله بألف "لا" رافضة:

ألا يا موت لا تقبل نشيطة فنحن إذا رغبت بنا كسالى
ولا تهجم علينا مستشيطة فخط دفاعنا المولى تعالى
ألا يا موت صرت بنا محيطا ولا "نعم" هنا.. بل ألف لا.. لا..
أجل ما زلت عريدا سليطا ونحن نزيد من صبر جمالا²

كما يقول في ذلك أيضا: "لم أنكسر لكن التوى في شيء ما، بلا شك أنا من كنت دائم السفر، اعتذر الآن عن الدعوات، هناك التواء... لكن داخلي لم ينكسر"³

وفي لحظات الضعف الإنساني كان يستذكر صديقه محمود درويش، لا عجب فهو صديقه ورفيق دربه، وقد مر بهذه التجربة (معاناته مع مرض القلب)، وقد توفي قبله، فكان يسأل عصام خوري: "هل تريد أن ترسل إلى أخيك محمود شيئاً"⁴، فيدرك عصام أن سميح يشعر بشوق جارف إليه بفرح وحزن عارمين:

يغادرني أصدقائي القدامى،

بلا موعد للوداع

وتندس قطة حزني الوديعة تحت لحافي

وتلحق قلبي بخوف،

ولا تستكين وتهداً،

إن لم تحطها ذراعي..⁵

¹ سميح القاسم: كولاج 2. ص 115

² القاسم، سميح: كولاج 3. ص 67، 68

³ حليحل، علاء: مقابلة خاصة سميح القاسم افنيت عمري في خدمة الكرمل الجديد

⁴ الخوري، عصام: ليزر إلى سميح القاسم. شهادات في الشاعر الكبير سميح القاسم ص 37

⁵ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 76

كان سميح القاسم يذهب لتلقي العلاج برفقة زوجته أم وطن واثنين من أنجاله في مدينة صفد الجليلية، بمعنويات عالية وإيمان عميق وشجاعة كبيرة، أحبه الطاقم الطبي وتعلق به، حتى إن البروفيسور، وصف أيام علاج سميح بالمشفى بأنها "أياماً مميزة، فقد كان سميح خلال العلاج الذي يستمر عدة ساعات يمازح المرضى والزوار والأطباء والممرضات، بينما تقدم لهم أم وطن القهوة والكحك الراموي الذي حضرته بيدها، وقد أطلق مرة على نفسه اسم (سميح الكيماوي) نسبة للعلاج الكيماوي"¹.

كان يسأل طبيبه وصديقه جمال عن أمور أكثر مما يسأله الطبيب عن مرضه، اقتنع سميح بالعلاج الذي بدونه ما كان ليعيش ثلاثة أشهر بشهادة جمال زيدان الذي حرص على أن يقدم لسميح أرقى علاج في العالم فقد أحضروا له أدوية من اليابان وأوروبا ولكن دون فائدة فهذه المرة يبدو أن القدر مصر على رأيه،² كما يبدو سميح واقعياً في تقبله لقدره، فيقول:

ينبغي أن أكون

واقعياً مع الداء معترفاً بدنو الأجل

دونما هلع أو وجل³

قاوم سميح القاسم المرض فحول بأمله والتزامه بالدواء الشهور الثلاثة التي أعلن عنها الأطباء بأنها فترة حياته المتبقية إلى ثلاث سنوات ونصف، يقول عصام خوري في قوة سميح، " لكن ما لم أستطع أن أعرفه أبداً هو: من أين أتيت بكل هذه القوة وهذه العزيمة وهذا الشموخ المرتفع فوق غيوم السماء لتقف جانبنا وتسندنا في محنتك يا صاحبي"⁴، فقد كان سميح القاسم يكابر فيخفي آلامه وأوجاعه حتى لا يشعر من حوله بأي قلق من أنه لم يعد الكثير من الوقت لانتهاء الرحلة.⁵

¹ زيدان، جمال: الشاعر سميح القاسم. شهادات في الشاعر الكبير سميح القاسم، ص 29

² انظر، المصدر نفسه. ص 37

³ القاسم، سميح: كولا ج 4. ص 120

⁴ خوري، عصام: لئير إلى سميح القاسم. شهادات في الشاعر الكبير سميح القاسم ص 37

⁵ انظر القاسم، وطن سميح: كل هذا الحب. شهادات في الشاعر الكبير المرحوم سميح القاسم. ص 24

وقد كان يتحدث عن مرضه وكأنه مرض شخص آخر يقيم بداخله، فلم يكن يظهر أي أسى أو انفعال حين يتحدث بشكل تفصيلي محايد عن هذا التحول البشع الذي انتابه، وما كان يسمح للمرض أن يطغى على الكتابة، أو الحياة بالرغم من تعامله الجاد مع المرض، وكانت لديه رغبة حقيقية في عيش الحياة كما اعتادها وأحبها.¹

حاول أهله وأصدقاؤه تقديم موعد زواج ابنه في محاولة منهم لإدخال الفرح في قلبه، وقد كان الحفل قد تأخر بسبب مرضه ولكنه رفض ذلك وأصر وهو مملوء بالأمل على أن يتم حفل الزفاف في نهاية الصيف التالي أي بعد عام وقد شاء له أن يتم له ما أراد، وبعد مضي عام آخر أنجب له ابنه حفيدا حمل اسمه "سميح"² ليكون امتداده في هذه الحياة وسر سعادته الأبدية. يقول مخاطبا الصيف معتقدا أنه الأخير:

أيها الصيف يا صيف عامي الأخير

كنت كم كنت محتقنا بالدواء

بالحبوب والمصل. والكيمياء

وببعض الكلام الخطير

عن صباح وما من مساء

كان صيف الشاعر مشبعا بأجواء المرض والدواء، ويخيم عليه انتظار الموت حيث وصفه بالكلام الخطير، يسائل الشاعر الصيف عما إذا كان موته سيكون في فصل الخريف، وبذلك تكتمل صورة موته غير الاعتيادية.

يقرن في القصيدة نفسها سميح بين فصل الخريف والموت، وتساقط أوراق الشجر مع تساقط شعره الرمادي وهي صورة مأساوية توحى باليأس المسيطر على ذات الشاعر فالخريف آخر العام، وقد يكون آخر فصل للشاعر في حياته، وبه تتساقط أوراق الشجر وتذبل النباتات، وهي صورة قريبة من جسد الشاعر المتآكل بالخلايا السرطانية:

¹ انظر، خوري، عصام: *لنيزر إلى سميح القاسم*. شهادات في الشاعر الكبير سميح القاسم ص 37

² انظر. المصدر نفسه. ص 37

أيها الصيف قل لي (وكن صادقاً) هل يكون الخريف

مشهداً لتساقط شعري الرماد الخفيف

في تساقط أوراق عريي وعري الشجر

أم تضيق حدود الخطر

ويضيق الكلام المخيف

عن هبوب رياحي وريح السفر¹

وقد يكون الموت أسرع من ذلك التساقط، فيختار لنفسه صباحاً نظيفاً ومطراً خفيفاً وفي كل الأحوال يخبرنا أنه جاهز للرحيل ويؤكد لنا ذلك بالتكرار (جاهز للرحيل) فقد زوج ابنه وأدرك خصوبة الحياة المتجددة:

آنذا جاهز للسفر

في صباح نظيف

برذاذ المطر

ونسيم وديع لطيف

وليكن ما يشاء الخريف

آنذا جاهز للسفر

غير مستعجل، فأنا مولع بالحياه²

وفي الوقت الذي كان فيه الشاعر يناضل ضد المرض والموت، كان يتابع نضاله من أجل القضايا العربية، وإن كان يتألم مرة واحدة من المرض كان يتألم ألف مرة من معاناة أبناء شعبه الفلسطيني، ومن المآسي التي تجتاح العالم العربي، فسميح إن مات جسداً ألماً لم يمت روحاً.

¹ القاسم، سميح: كولاج 4. ص 103، 104

² المصدر نفسه، ص 104

ولم يثن هاجس الموت سميحا عن تعلقه بالحياة التي أحبها ولا عن رسالته التي كان أميناً عليها وحريصاً على أن يتمها حتى آخر رفق لديه، فقد استثمر الوقت المتبقي له، فألف بعد مرضه نحو اثني عشر كتاباً منها سيرته الذاتية "إنها مجرد منفضة" التي وسمها بـ "الجزء قبل الأخير" على أمل أن يكتب الجزء الأخير مستقبلاً، فيقول:

لم يزل قلّمي جاهزاً للكتابة

وعلى مكتبي ورق لا يحب الكآبه

وعلى شفّتي نحلة

وهي تلسعني مرة

ومرارا لها لسعات بلا رحمة

لهواة الأناشيد أسرى الخطابة¹

على الرغم من مضي العمر إلا أن دافعية سميح القاسم نحو الكتابة تظل جامحة وأفكاره نحل يلسعه ليسرع في كتابتها، كما أن كل ما في مكتبه يستدعيه للكتابة: قلمه المستعد وأوراقه المشاكسة التي لا تحب الكآبة. وإن طغت على هذه الكتابات روح الموت، يقول:

للموت رائحتي الجديدة

بين القصيدة والقصيدة²

هكذا ظل سميح القاسم طوال عمره يعلنها صريحة "لم أقل كلمتي الأخيرة بعد والكلمة الأخيرة يجب أن تكون مختلفة عن التي سبقتها".³

ألا أيها الأفول

لا تحت خطاك إلي

لم يزل في فمي ما أقول

¹ القاسم، سميح: بغض النظر. ص 41

² القاسم، سميح: كولاج 3. ص 68

³ القسم، نبويه: سميح القاسم مبدع لا يستأذن أحدا. ص 12

وأبل به شفتي¹

كان الشاعر قد طلب من الموت ألا يسرع ولكن عندما أصبح قريبا منه وبات لصيقا بحياته مهددا لها، فقد رتب أوراقه وعاد ليدعو الموت للإسراع إليه إن شاء اصطحابه فهو جاهز وفي انتظاره:

رتبت أوراقى فلا تعبث معي أسرع إذا شئت اصطحابي، أسرع
هو ذا قطارك في المحطة جاهز وأنا هناك حملت سلة أضلعي
ولنا رصيف للرحيل وموعد وقصيدي يا موت تكتب مطلعي²

إن قصائد الشاعر وأدبه هي طريق الشاعر نحو خلوده، حاله كحال جلامش الذي استعاض عن خلوده، بإعمار مدينته (أورك)، ومن هنا كانت قصائده تكتب مطلعها، ويعلن بدأ الحياة منها:

بكل الهدوء المواتي

أرتب أوراق موتي

وأعلن بدأ الحياة..³

وفي الوقت ذاته وعلى الصعيد الاجتماعي، كان مشغولا عن نفسه بغيره ممن هم حوله، لا يفتأ يسألهم عن أحوالهم وأبنائهم وأعمالهم كنوع من التحدي والمقاومة وكجانب إنساني لا يفصل عنه مهما حدث.

يروى يحيى يخلف في شهادته عن زيارته لسميح في المشفى قائلاً: "دخلت المستشفى وضعت على أنفي الكمامة التي يتعين وضعها لدى زيارة مريض يفتقر إلى المناعة، دخلت عليه وانحنيت لكي أقبل جبينه، فمد يده وأنزل الكمامة عن وجهي، وأصر على أن يقبلني، كنت أشعر في داخلي أن هذا اللقاء ربما الأخير وأن حلاوة روحه هذه ناجمة عن مقاومته للموت"⁴. وفي

¹ القاسم، سميح: كولاج 3، ص 69

² القاسم، سميح: كولاج 4، ص 109

³ القاسم، سميح: كولاج 3، ص 32

⁴ يخلف، يحيى: وداعا سميح القاسم. شهادات في الشاعر الكبير المرحوم سميح القاسم. ص 40

ذلك قال ابنه وطن "وترك سيجارته في منفضة الدنيا لكن ليس قبل أن يطمئن علينا "كل شيء تمام معك ومع أخوتك ياباه"¹، ولا ينسى أن يوصيه بوالدته: "ديروا بالكو على أمك فش زيها هاي المره"².

ولأن الموت بات وشيكا وليس له من رادع كان لابد للشاعر من أن يتأمل ما مضى من حياته ويصفي حساباته معها:

ينبغي أن أواجه موتي..أجل

بحساب رصين

لائق بستار الختام على مسرح من سنين

كان رضا الشاعر بقضاء الله وقدره على رأس أولوياته في تصفية حساباته مع الدنيا، وقد جعله الاعتراف الأول لأهميته، فقد ابتدأ حياته راضيا واختتم حياته راضيا، إذن ابتدأ من حيث ينتهي وقد كرره مرتين للتأكيد على هذا الرضا:

أولا: يعلم الله أنني قضيت الحياه

راضيا برضاه

وقد يلح المتلقي أن الشاعر يؤكد أداءه لواجباته تجاه العالم والشعب والبيت والذات منطلقا من العام إلى الخاص، فقد أفنى حياته مدافعا عن شعبه وبيته وكل البشر، منطلقا في ذلك من تفاؤله وإيجابيته، ثم بين بعد ذلك أنه زوج مخلص وأب محب:

باذلا ما استطعت لشعبي وبيتي وكل البشر

مؤمنا بالولادات مستبشرا بالمطر

ليأتي بعد ذلك على الاعتراف بعدم إساءته لأي أحد في الوقت الذي لم يرضخ فيه لظلم أي أحد:

¹ القاسم، وطن سميح: كل هذا الحب. شهادات في الشاعر الكبير المرحوم سميح القاسم. ص 24

² المرجع نفسه . ص 24

أولا: لم أسيء لأحد

إنما لم أطأئ جيبني لظلم. وفي غضبي

ثورة حدها دون حد

أزلا في أبد

من وعيد ووعد

كما يقر بأن أشعاره وآثاره الأدبية كانت من وحي إبداعه (جمرتي بنت ناري) لم يسرقها من أي شخص آخر، وأنه قد شاب على الطريق نفسه الذي اختاره شابا:

أولا: جمرتي بنت ناري.. ولم

أستعر جمرة من سواي

وطريقي طريقي،

عليها وفيها خطاي

ودبيب عصاي

وفي آخر الاعترافات التي جاءت هي أيضا تحت باب (أولا) - وما جاءت الاعترافات وتصفية الحسابات تحت باب أولا إلا دلالة على أهمية جميع الأمور التي ذكرها في حياته - جاء اعترافه الواقعي بأنه سيموت حتما، لكن الميادين والبيوت ستخلد ذكره وبهذا ينتصر على الموت من جديد كما انتصر جلجامش عليه. ختم الشاعر القصيدة من حيث ابتدأ أنه قانعا وراضيا بقضاء الله وقدره وإن كان الموت، ثم يأتي السكوت ليخيم على المقطوعة الشعرية كما يخيم الموت على نفس الشاعر:

أولا: سأموت أجل سأموت

إنما.. لا أموت

الميادين تذكرني والبيوت

فلأكن واقعا إذا.. سأموت

ويجوز السكوت

سكوت!¹

فهو يسمع صوت الآخرة تناديه كأُم حانية ليرتاح في حضنها:

وأسمع صوتاً جميلاً رقيقاً ينادي بحب وشوق

"أنا الآخرة "

تعال إلي حبيبي تعال. أنا الآخرة

أنا الأم والحضن والراحة الطاهرة²

بدأت الآخرة وهي تنادي الشاعر بصوتها الجميل العذب للموت، كالسريانا التي تنادي وتغني للبحارة بصوتها الجميل العذب ليضطربوا ومن ثم يرتطمون بالصخور ويموتون، وحينها يجد الشاعر بالضريح راحته:

يوم تختلي جثتي بالضريح

وأرى وردتي

يومها أستريح³

ربما يكون الموت راحة للشاعر بسبب ثقل الهموم الإنسانية المتزايدة وثقل هموم قضيته الفلسطينية المعقدة حتى بات الموت حلاً، أو ربما كان الموت راحة من مرضه المستعصي:

سأختصر الوقت والأمكنه

وأهرب بالموت من علتي المزمه⁴

وقبل رحيله يوصي زوجته بأن تشيد بمناقبه وخصاله بصدق ودون تجن:

بعد موتي سيسألونك عني فأجيبني حقاً ودون تجن

¹ القاسم، سميح: كولاج 4. ص 121، 122

² القاسم، سميح: بغض النظر. ص 85-86

³ القاسم، سميح: الكتب السبعة. ص 117

⁴ القاسم، سميح: كولاج 4. 106

واشهدي لي بما عرفت بصدق لا ادعاء بما يخيب ظني
اهدي لي بالخير يا نور عيني اشهدي لي والله يشهد أني
أنصفيني بما يبرر حبي وحناني وما تمنى التمني
كنت فظا يوما وكنت رقيقا ألف يوم مابين إنس وجن
كنت ما كنت عاشقا لا يضاهاى وفنون الغرام من بعض فني
بعد موتي أعود فانتظريني لن تجود الدنيا بأحسن مني !!

ومن خلال وصيته لها يبرز بعض صفاته التي قد تكون متناقضة وذلك لا يمنع كونه عاشقا لها يتمنى أن تنتظره فهو عائد وفق معتقد الدروز، ولن تجد أحسن منه في هذه الدنيا، وذلك ما سيكتشفه الناس ولذا سيذكرونه دائما بعد موته ولن ينسوه فلطالما أحيا الأموات بشعره في هذه الحياة، لذلك سيحيا في عالم الأموات:

بعد موتي ستذكرون حياتي ويعود الماضي على وقع آت
في بلاد الأحياء أحييت موتى وسأحيا في عالم الأموات!¹
حتى في موت الشاعر ثمار وفائدة للأحياء، ففي صبرهم على فقد خير الجزاء فهو يستوحي قوله تعالى: "وجزاها بما صبروا جنة وحريرا"²، فيقول:

لأشجار موتي ثمار

يقيضها الله للصابرين

على شجر الوعد في جنة الخالدين..³

إن شجاعة سميح القاسم في تقبل مصيره نابعة من إيمانه العميق بحتمية الموت، ورضاه عما قدمه في حياته، وقد جعله مرض السرطان مؤهلا لاستقبال الموت برحابة صد، فهو يقول: "لو جاءني اليوم ملاك الموت سوف اذهب دون أن أندم على شيء، ولن انظر إلى الوراء، أنا أو من أن لكل أجل كتابا، وأن العمر ينتهي وما من إنسان مخلص السؤال كيف يموت الإنسان؟

¹ القاسم، سميح: كولاج 4. ص 54

² سورة الإنسان، آية 12

³ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 46

أعتقد أنني أستطيع الآن أن أموت قرير العين ببساطة ما أستطيع إذا بقي شيء من العمر سأحاول إضافة معينة، لن أخشاه طبعاً" ¹

ومن الأمور التي تتبادر في ذهن إنسان يحتضر، ويتساءل عنها بفضول: ردة فعل الآخرين إزاء موته، ومشاعرهم في تلك اللحظة كيف ستكون؟ فهو يعايش موت الآخرين ويحزن لفقدانهم بينما يتأمل ردة فعل الآخرين المشاركين له في مصابه الجلل، لكن موته الشخصي فهذا ما يفوته كما يفوته أيضا رؤيته للآخرين كيف يعايشون تلك اللحظة وذلك الخبر- خبر وفاته الشخصي- وقد أثار هذا الأمر فضول سميح القاسم وبين رأييه فيه عندما كتب (رماد الوردية دخان الأغنية) لراشد الحسين أن يخبره عن مهرجانات تأبينه وقد قال فيها "على الأقل فإنه لا ضرر من أن يتابع الموتى أبناء نعيمهم ومهرجانات تأبينهم. بعضهم يسخر إلى درجة الضحك وهو يقارن بين سلوك نفر من الناس تجاههم أحياء وأموات، وبعضهم يسخر حتى البكاء. وقلة قليلة هم الموتى الذين يعثرون على قدر من الانسجام بين ردود الفعل المتصلة بهم في حياتهم كما في موتهم. وهؤلاء على الغالب هم الموتى العاديون" ²، ويحاول سميح أن يتخيل لجنازته الشخصية ومواقف المشيعين في دخان سيجارته الكاشف للغيب المستور، فيقول:

قبيل ذهابي إلى النوم تظهر أسماؤهم في الدخان وأشكر
سيجارتتي. أنها تكشف السر عبر الدخان الكثيف. فميمة
أصدقائي بأسمائهم دون لبس. وميسرة أصدقاء الخرافة. هذا
تمنى لي الموت في كل يوم. وهذا تمنى امحائي من الكون
باسمي ورسمي. وهذا أراد حياتي وصلّى لطول حياتي لأن عذابي
شديد. وهذا تمنى لهذا. وتظهر أمنيّتي في دخاني. وأشكر سيجارتتي
بالسعال الشديد قبيل ذهابي إلى الموت.. شكرا وشكرا جزيلا ³

¹ سميح القاسم زيارة خاصة (سميح القاسم والموت) جزء
<http://www.aljazeera.net/programs/privatevisit/2008/12/233212> زيارة خاصة 27-8 سامي كليب

² القاسم، سميح: رماد الوردية دخان الأغنية. ص 8

³ القاسم، سميح: كولا ج 3. ص 43، 44

وهو هنا يقسم أصدقائه ومعارفه والمحيطين به إلى قسمين: الأول أصدقاؤه الحقيقيون الذين يحبونه ويحزنون لفراقه وهم أصحاب الميمنة، والثاني المزيفون من الأصدقاء والمعارف من يظهرون غير ما يخفون وهو رغبتهم في زوال الشاعر أو موته البطيء لأن فيه عذابه وهم أصحاب الميسرة، وهو بهذا التقسيم يستوحي تقسيم الناس في اليوم الآخر "فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ"¹، وهكذا سبق الشاعر الزمن وولج عالم الموت والبرزخ ليصنع لنفسه يوما آخر ويصنف فيه الناس لحسابهم، وتلج عليه الفكرة فتراوده في سيرته الذاتية وفيها يقول: "وسواء رغبت أم كرهت فإن أشخاصا ما، ممن يحبونك أولا يحبونك، ينتظرون رحيلك بأسى أو بفارغ صبر، ليكتبوا هم ما يشاؤون من قصصك الواقعية والخيالية، الصادقة والكاذبة"².

كل مشاعر المشيعين على تناقضها لن تؤثر عليه حينما يكون ميتا لذا لا يعد الأمر أكثر من كونه فضولا "الموتى أشد رصانة وتعقلا من أن تثيرهم أحداث عابرة غير ذات بال. ولا يعنيه في شيء ما يقال عن حياتهم وعن موتهم معا"³، لذا لم يبق له سوى الأمنيات وقد صرح بأمنيته الأخيرة:

أنا "لانسليوت "

وأحلم بالعيش في "شانغري لا"

وبالموت في ظل زيتونتي الخالدة⁴

يتقمص الشاعر شخصية الفارس (لانسليوت)⁵ ويحلم بأن يعيش في "شانغري لا"⁶. وفي ذلك دلالة على اهتمام الشاعر بالخلود وحرصه عليه أينما كان، إلا أن ذلك لم يغنه عن بلده فهو

¹ سورة الواقعة، أية 8-9

² القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 58

³ القاسم، سميح: رماد الورد دخان الأغنية. ص 8

⁴ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 66

⁵ لانسليوت: وهو أحد فرسان المائدة المستديرة وأهم أتباع الملك آرثر المخلصين، وقد أصبح مثالا للشخصية الخيالية فكان ذا قوة وحجم هائلين ولم يجار في قتال، كما كان وسيما وحساسا وشهما وهي صفات الفرسان في العصور الوسطى.

وهو منحدر من نسل الملك داود وهو بهذا قريب المسيح. انظر <https://ar.wikipedia.org/wiki/لانسليوت> 7-27

⁶ شانغري لا: هو اسم الفردوس التبتية الخيالية المذكور برواية الأفق المفقود عام 1933 للكاتب الإنجليزي جيمس هيلتون. وقد أصبح اسم شانغري لا مرادفا لاسم أي جنة أرضية وبالأخص المدينة الأسطورية الفاضلة بجبال الهيمالايا وهي أرض سعيدة بشكل دائم، معزولة عن العالم الخارجي. في رواية الأفق المفقود، ويتصف سكان شانغري لا تقريبا بالخلود، ويعيشون سنوات تتعدى العمر الطبيعي للإنسان ويشيخون ببطء شديد في المظهر فقط انظر <https://ar.wikipedia.org/wiki/شانغري-لا> 7-27

يتمنى الموت في ظل زيتونة في بلاده وهي أيضا خالدة كما وصفها في شعره وفي الحقيقة فـشجر الزيتون يوصف بالشجر المعمر، خاصة وأن الرامة تنتشر حولها كروم الزيتون التي يعود إلى أكثر من ألفي عام¹، وبذلك كل ما في وصيته يوحى برغبته الدفينة بالخلود. لذلك وفي ظل ظروفه الصحية المتردية بات القاسم يبحث عن قبر ملائم له ليستريح فيه.

القبر

جاء حادث السير المروع الذي تعرض له القاسم ليكشف له حقيقة أنه لم يعد نفسه بشكل لائق لموت حتمي، وبات من الضروري الاستعداد للموت كالاستعداد للحياة، فيقول: "أجل" وما تدري نفس بأي أرض تموت "صدق الله العظيم واسمحوا للعربي الفلسطيني أن يضيف في فضاء الآية الكريمة "وما يدري جثمان بأي أرض يدفن"².

ومثلما أرهقه موقعه في الحياة يرهقه موقعه في الموت، وقد كان يتساءل بلا رحمة عما إذا كان ما تبقى من تراب الوطن سيمنحه قبراً مؤهلاً للسكينة في ظلال الضحايا والشهداء والموتى والمجهولين على أرصفة الغرب³.

يصعد القاسم جادا إلى جبل حيدر إلى مطالع خلة خير ليختار موقعا لقبره، ويبحث في حنايا الجبل مليا عن مكان ملائم لمثواه الأخير، ولكن محاولاته الأولى باءت بالفشل ثلاث مرات: أحضرفي المحاولة الأولى جرافة وعمالا إلى الموقع ليعدوا له القبر اكتشف لاحقا أن الموقع معرض للانجرافات الترابية في فصول الشتاء القاسية، وفي الثانية وبعد أن أصبح الموقع جاهزا، يكتشف القاسم أنه يعرقل مسار الشارع المستقبلي.

أما في المرة الثالثة والأخيرة، فقد اختار سميح قبراً عند زيتونة يزعم أنه قابل الرسول العربي في ظلالها، ولكنه يكتشف أن الموقع عسير على ناقلي جثمانه.⁴ يقول في وصف حيرته في اختيار موقع القبر:

¹ انظر <https://ar.wikipedia.org/wiki/الرامة> عكا

² القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2009. ص 5

³ انظر القاسم، سميح: مقالة قوس قزح لوحة سريالية. مجلة الشعراء ص 112

⁴ انظر، إنها مجرد منفضة. ص 357، 358

واحك عن حيرة القبر

من موقع أنت مهدته

ثم بدلته

ثم غيرته

ثم حيرته

وإلى موقع مضمر لم يزل

في مكان جميل

عند سفح الجبل

من أعالي الجليل

حسنًا. هكذا. آن أن تستريح¹

وقد شارك سميح أصدقاءه في اختياره لمثواه الأخير بل خير البعض منهم بين مكانين ومنهم عصام خوري، وهذا ما يعكس إيمانه بضرورة إيجاد قبر مناسب لساعة لا مفر منها ومحبته لأصدقائه.

لم اختار الشاعر قمة جبل حيدر مكانا لقبره؟ وهل جاء الاختيار عشوائيا؟ هل أراد أن يكون إلها يربض فوق هذا الجبل يحرس المدن الفلسطينية من عليائه بعينه التي لا تنام خاصة أنه يمكن رؤية جميع أرجاء الجليل الأسفل تقريبًا من قمة هذا الجبل، من جبال الفقوعة حتى البحر الأبيض المتوسط بسبب ارتفاعه²، أم أراد الشاعر أن يتوحد مع الأرض التي حملت له الكثير من الذكريات مع والده، عندما كان يرافقه إلى هناك فيرقب من فوقه قريته التي تصبح كلوحة في إطار أخضر لا نهائي، ويحتضن من هناك قريته بيتا بيتا شارعًا شارعًا، هل أراد أن

¹ القاسم، سميح: كولاج 3. ص 25، 24

² انظر https://ar.wikipedia.org/wiki/جبل_حيدر

يدفن بين آثار يدي جده في الأرض التي رباها وعلمها أن تحنو على الإنسان¹. كان سميح القاسم يؤمن أن من يسكن على جبل حيدر لن يكون لديه الرغبة في العودة للحياة.

يستطيع المتلقي أن يلمح فيما سبق أن موضوع الموت في شعر سميح القاسم قد مر بمرحلتين مختلفتين: في المرحلة الأولى ساد الموت دواوين الشاعر الأولى محكوما بالظروف السياسية الصعبة المتلاحقة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني، ولذا كان ينطلق من منظور جماعي تنظر إليه ذات الشاعر بوصفها جزءا ملتصقا بالكل. وتعدده استراتيجية ضرورية لاسترجاع الأرض والهوية وبرزخا نحو حياة فضلى بعيدة عن القتل والتشريد.

أما في المرحلة الثانية التي شملت دواوين الشاعر المتأخرة فقد بدا موتا ذاتيا يخضع للرؤية الفردية المدعومة بتجربة مرض السرطان وحادثة السير من قبله، الأمر الذي جعله في مواجهة شخصية حقيقية للموت، ظهر انعكاسها الواضح والمميز في شعره، وقد اتخذ فيها الشاعر أسلوبا مغايرا للحديث عن الموت الذاتي، لجأ فيه إلى الاستهزاء بالموت والتقليل من شأنه بأسلوب ساخر ولهجة متحدية لم يألّفها المتلقي في شعر المرحلة الأولى حين كان الموت مخلصا لا بد منه للجماعة للتغلب على أوجاع الحياة.

وقد تكون رغبة الشاعر في التخفيف من شدة القلق والتوتر حيال موته المميز والفريد - كما وصفه - هي أحد الأسباب التي دفعت الشاعر نحو هذه اللهجة التي ميزت أشعار المرحلة الثانية، وبقيت تتراوح في شعره بين مد وجزر بحكم الأمل والألم. ومما كان يخفف من قلقه وتخوفه من الموت إيمانه الكبير بأن قصائده هي التي ستحقق له البعث والخلود، كما كان موت الجماعة بعثا لهم.

¹ انظر، القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 6. ص 14

الفصل الرابع

موت الآخر

المبحث الأول

موت الآخر الصديق

أدرك الإنسان فعل الموت وأثره من خلال الآخر ومنه حاول التعرف على ماهيته، وذلك أمر بدهي فهو لن يمر بهذا الأثر حيا حتى يدرك هويته ويعيش موته الذاتي، ففي الوقت الذي حاول فيه التعرف على الموت عايش أثره في نفسه شخصا إن كان للآخر الميت حضور قوي في حياته، بحيث يشكل غيابه ألما كبيرا وفراغا واسعا.

وفي هذا الغياب يعلن الغائب حضوره، غير أن هذا الحضور يظل حضور الغائب، ويستمر هذا الحضور في الصديق الحي بأشكال متعددة: بالدموع، بالتذكر، بممارسة الطقوس الدينية، حتى يسيطر في بعض الحالات على وجوده، فيؤدي بالأخير إما إلى الغياب وإما إلى الاكتئاب¹.

وسميح القاسم بعيدا عن الموت السياسي وقريبا منه، أتعبه هذا الغياب، غياب الأصدقاء والأحبة تباعا وحتى غياب بعض الرموز السياسية المهمة أمام ناظريه. يرحلون ويبقون له الحزن والدموع فيقول:

أصدقائي الذين على رسلهم يرحلون

واضحون

صدقهم اضح

والتواءاتهم واضحة

وانكفاءاتهم واضحة

وأنا أكتفي بدموع الوفاء

ضحكا أو بكاء

عندما أقرأ الفاتحة

¹ انظر رفقة، فؤاد: الشعر والموت. بيروت: دار النهار. 1973 ص 47

والحديث الرصين

" أذكروا "

وأنا واضح مثل دائي الخطير وقلبي الحزين

كم تمنيت للأخوة الراحلين

طول طول البقاء¹

يقرأ الشاعر الفاتحة دامعا على أرواح الأصدقاء الأوفياء الذين كانوا يشبهونه بالوضوح والصدق، ولا يذكر منهم إلا محاسنهم، عاملا بما جاء في الحديث الشريف " اذكروا محاسن موتاكم "، ويذكر كم كان يتمنى لهم طول العمر.

يبث الشاعر أصدقاءه الراحلين أشواقه الكبيرة، ومشاعر حزنه لبقائه وحيدا بعدهم في حياة لا جديد فيها سوى خيبات الأمل المتلاحقة، يقول الشاعر في قصيدة (مرثاة من برج الثور) التي رثى فيها مجموعة من الشعراء الأصدقاء عام 2009 وقد ألقاها في الناصرة، حين احتفت به مؤسسة توفيق زياد للثقافة الوطنية، ضمن إطار احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية:

لا جديد

بعد غيبتكم

غير شوقي إليكم. وحزني الشديد

لبقائي على كومة من ركام البقاء، وحيدا..وحيد

خذلتني الرهانات.ضل البعيد²

وقد دفع شعوره بالوحدة بنعت معين بالبخل، فكيف استأثر بالنعش وحده رغم أن هناك متسعا فيه؟ وكيف يرحل وحيدا دون أن يأخذه معه وهو القتل؟ كما يتعجب منه كيف لم ينتظره ليشاركه فرحه وحزنه ومن ثم يمضيان معا؟ يقول سميح:

¹ القاسم، سميح: سربية بغض النظر، ص 38، 39

² القاسم، سميح: غوانتنامو وقصائد أخرى، ص 68، 69

أيها النهم البخيل
في النعش متسع لصلوكين
كيف مضيت وحدك
دون صاحبك القليل؟!
زيتونة الطوفان في قلبي
تعاتب فيك بركان النخيل !
ماذا عليك لو انتظرت دقيقتين
وسكرتين¹

ثم يعتذر له عن استمراره في الحياة من بعده وكأنه أمر مسيء لشخص معين، فيقول:

حاولت أن آتيك
معتذرا لموتك عن حياتي²
كما يعتذر لأصدقائه الآخرين عن بقائه على قيد الحياة وقيد الشعر من بعدهم، وما بقاؤه
إلا بحكم القضاء والقدر:
اعذروا لي اعتذاري لأنني
بقيت على قيد شعري. وقيد الحياة،
بحكم العلي القدير³

إن رحيل أصدقاء الشاعر يدفعه للحزن على نفسه، بعد أن كان يحزن عليهم أحياء وهم
يعانون آلام المرض، يقول في (كولاج 2):

حزنت عليك كثيرا

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 187

² المصدر نفسه. ص 188، 189

³ القاسم، سميح: غوانتنامو وقصائد أخرى. ص 70

لأن عذابك حي

ويوم رحلت

حزنت كثيرا علي¹

ويعد محمود درويش من أصدقاء سميح القاسم الذين شكلت صداقتهم ظاهرة فريدة في حياته تستحق الوقوف عليها، فموته كان صدمة جعلت سميحاً يتقلب على جنبات الموت والحياة.

فقد توفي محمود درويش في الولايات المتحدة الأمريكية يوم السبت التاسع من آب عام 2008، بعد إجرائه لعملية القلب المفتوح في مركز تكساس الطبي في هيوستن، حيث دخل بعدها في غيبوبة أدت إلى وفاته بعد أن قرر الأطباء في مستشفى "ميموريال هيرمان" نزع أجهزة الإنعاش بناءً على توصيته.² و دفن في رام الله في القصر الثقافي الذي سمي على اسمه فيما بعد (قصر محمود درويش الثقافي).

ألقى القاسم كلمة في تأبين محمود درويش في رام الله قال فيها: ويا أبا لم تلده أمي، يا محمود درويش، كان لجثمان الشاعر الفارس الذي هو أنت، أن يطلب الراحة الأبدية، في مقبرة البروة الجليلية، إلى جوار الآباء والأجداد، ولكن المستوطنين الأعراب من الطارئين الأعراب، يصرون على تحويل مقبرة أجدادك في البروة الذبيح، إلى حظيرة عصرية لمواشيهم المستوردة كتاريخهم..إنهم يثأرون لأسطورتهم المنهارة تحت سماء قصيدتك الشاهقة..إنهم ينتقمون لعجز أسلحتهم، أسلحة التدمير الشامل عن مواجهة قصيدتك، قصيدة الحياة الشاملة لكل البشر ولكل الشعوب، تحت رايات الحرية والاستقلال والسلام والتقدم والإبداع³

أما العلاقة التي تربط الاثنين سميح القاسم ومحمود درويش، فقد لخصها الأخير بقوله في رسالة بعثها إلى سميح في عيد ميلاده الستين يقول فيها: "في كلام أحدا عن الآخر سهولة المشترك الرائج، منذ نهضنا معا من قاع النسيان إلى ذاكرة الجماعة، حتى اختلط الاسمان اسمك واسمي، في عفوية الأخطاء الشائعة..كأن ينسب إلى أحدا نص الآخر، دون أن يحدث

¹ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 104

² انظر https://ar.wikipedia.org/wiki/محمود_درويش

³ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود. ص 5

اضطراب في السياق، لأن النبع واحد، ولأن صداقتنا كانت أقوى من الحب"¹، وقد قال سميح عنه: محمود حكاية خاصة، فالعلاقة الإنسانية بيننا أقوى من الشعر بكثير. ففي واحدة من رسائله المتأخرة لي قال: «صداقتنا أقوى من الحب». علاقتي بمحمود ظاهرة إنسانية فريدة في الأدب العربي على الأقل، ومزيج من الحالة الإنسانية كفرد من العائلة كما كان راشد حسين من قبله كما كنت أنا لدى أسرتهما"².

في عام 2009 أصدر سميح القاسم كتابا بعنوان (مكالمة شخصية جدا مع محمود) ضمنه قصائد عن محمود و كلمة سميح في تأبينه، بالإضافة إلى قصيدة ورسالة من محمود إليه. ومن هذه القصائد ما كتب في مطلع الثمانينات أي قبل وفاة محمود وهي قصيدة (تغريبة) ومنها ما كتب بعد وفاته مثل قصيدة (ما من حوار معك بعد الآن.. إنه مجرد انفجار آخر!) وفيها يقول:

تخليت عن وزر حزني

ووزر حياتي

وحملتني وزر موتك،

أنت تركت الحصان وحيدا..؟

آثرت سهوة موتك أفقا،

وآثرت حزني ملاذا

أجبنني أجبنني.. لماذا؟

يعاتب فيها سميح صديقه الذي تخلى عنه رغم عمق العلاقة التي تربطهما، فقد سبقه محمود إلى الموت وتركه وحيدا وكأنهم في مسابقة نحو الموت لنلا يشعر أحدهم بحزن الآخر. جاء سؤال سميح ضاجا بالألم لرحيل صديقه طالبا منه جوابا مقنعا بتكرار فعل الأمر (أجبنني) وكأن قدر الموت ليس ذلك السبب المقنع. سئل سميح القاسم في إحدى المقابلات عما إذا

¹ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود، ص 59

² http://www.febrayer.com/70394.html 8-16 مقابلة: سميح القاسم: طيف درويش لا يفارقني وأقول للمرض

أنا لا أحبك ولكني لا أخاف الموت، مريمه مكريم، 20، يوليو 2014

كان هناك رسالة يود تبليغها لمحمود درويش فأجاب: "حقيقة فقط أريد أن أقول له إن بعض الحمقى والجهلة يستغربون أننا كنا نختلف أحيانا حول موقف سياسي أو لوحة تشكيلية أو امرأة أو قصيدة.. وأن من أسميهم عجائز زوربا الذين يسرقون الموتى ويسطون على أشيائهم وذكرهم، كثر اليوم، وكان سيضحك حين أقول له هذا الكلام ويقول: أعرفهم قبل رحيلي وبعد رحيلي."¹ وعن هؤلاء المتسلقين والانتهازيين وصيادي الفرص للظهور والحط من قدر كبار الشعراء، يقول سميح بمرارة وأسى:

وها هن يا صاحبي دون بابك

عجائز زوربا تراحمن فوق عذابك

تدافعن فحما وشمعا

تشممن موتك قبل معايشة الموت فيك

وفتشن بين ثيابي وبين ثيابك

عن الثروة الممكنة

عن السر. سر القصيدة²

إن الأوضاع السيئة التي عاشها سميح القاسم السياسية منها والصحية والاجتماعية المتمثلة بفقد الأصدقاء واحدا تلو الآخر، أوقعته في دوامة من الرفض والشك وحالة من الانهيار الذي يدق فكر الشاعر بالسؤال: لماذا؟ لماذا تركه درويش كما تركه معين من قبل وحيدا في مواجهة كل هذا الزيف وهذا الجور:

وتعلم يا صاحبي بأن جهنم ملئت جهنم

وعافت جهنم

لماذا تموت إذا. ولماذا أعيش إذا. ولماذا

نموت. نعيش. نموت. نموت

¹ <http://shamfm.fm/ar/article/19542> تحفظات الشاعر الفلسطيني على مسلسل في حضرة الغياب 8-11

² القاسم، سميح: مكالمات شخصية جدا. ص 78، 77

على هيئة الأمم الساخره

وعهر ملفاتها الفاجره¹

يجتر سميح ذكرياته الجميلة مع محمود درويش من خلال فعل الأمر (تذكر) الموجه
للفقيد محمود درويش، مفقدا ما بينهما من ود وصداقة:

تذكر رضا الوالده

لأمين في واحده

ونعمة كبتها.. زينة المائده

وطهر الرغبة المقمر²

وحينها تتداعى الذكريات المؤلمة فيحاول رفضها وطردها من لاوعيه بنهي محمود عن
التذكر (لا تتذكر):

فلا تتذكر

قيودا وسجنا وعسكر

وبيتا مدمر

وليل طويلا. وقهرا ثقيلًا وسطوا تكرر

ولا تتذكر³

وفي تداعيات الذكريات الجميلة منها والحزينة، يتذكر خلفه مع الراحل محمود ويحاول
تبريره بأن حياتهم لم تكن سهله، وقد كانت مليئة بالمصاعب والحزن، وأن هذا الخلاف لم يطل
فقد ردمته جسور من الرسائل المتبادلة بينهما، واليقين الثابت بأن العمر قصير والسنين تمر
بسرعة:

¹ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا، ص 89، 88.

² المصدر نفسه، ص 90

³ المصدر نفسه، ص 93، 92

لأنا صديقان في الأرض والشعب والعمر والشعر
نحن صريحان في الحب والموت..يوما غضبت عليك..

ويوما غضبت علي

وما كان شيء لديك.وما كان شيء لدي

سوى أننا من تراب عصي

ودمع سخي

نهارا كتبت إليك. وليلا كتبت إلي

وأعياد ميلادنا طالما أنذرتنا بسر خفي

وموت قريب..وسر خفي¹

يترك سميح الحديث عن الذكريات والرسائل التي ربطت درويش بفلسطين وربطت
سميح بدرويش، ليعالج قضية موت درويش فهناك من رآه حدثا مفاجئا على عكسه فقد كان يرى
أن محمودا كان يموت موتا بطيئا يعايشه يوميا من خلال ممارسات الاحتلال الجائرة بحقه وحق
شعبه وأرضه، وهي ممارسات يصعب العيش من خلالها على هذه الأرض:

ويقولون موتك كان غريبا..ووجه الغرابة أنك عشت

وأنني أعيش.وأنا نعيش.وتعلم.تعلم أنا

حكما بموت سريع يمر ببطء²

ثم يظهر سميح مدى العلاقة العميقة التي تربطهما معا حتى باتا عائلة واحدة تتشابك
أحزانها وتتوحد همومها ويعبر عن ذلك بلفظتي (أنا) و(أخوك)، فهاهي أم أحمد –أم الراحل –
تعانق سميحا جزعة و تسائله صارخة عن ابنها، وتظهرها كثرة الأسئلة منكرة وفاته حالها كحال
سميح غير مصدقين رحيله عنهما:

¹ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود درويش. ص 94، 93

² المصدر نفسه، ص 100

وتفتح كفين واهنتين موبختين.وتسأل صارخة

دون صوت.وتسأل أين أخوك؟أجب.لا تخبئ علي.

أجب أين محمود؟ أين أخوك؟

تزلزلي أنا بالسؤال؟ فماذا أقول لها؟¹

صراخ أم أحمد (دون صوت) فيه إقرار مبطن بموت درويش وقد يحوي حزنا عميقا على رحيله، وحزنها هذا يتساوى مع حزن سميح وهو ما يظهره بقوله (تزلزلي)، كيف لا وهو الأخ الذي تقاسم مع درويش المسرة والحزن والثقافة والموهبة والحلم ودرب النضال.هو الأعلم بعاداته وميوله وأسراره المخفية:

هل أقول مضى في الصباح ليأخذ قهوته بالحليب

على سحر أرصفة الشاترليزيه. أم أدعي

أنك الآن في جلسة طارئه

وهل أدعي أنك الآن في سهرة هادئة²

ولولا إيمان القاسم بقضاء الله، لطلب الرحيل مع صديقه ليكونا في دار الخلد معا،

قائلا:

ولولا اعتصامي بحبل من الله يدنو سريعا.ولكن ببطء..

لكنت زجرتك.خذني معك

وخذني معك

خذني معك..³

تكرار عبارة (خذني معك) ثلاث مرات بالزجر، تأكيد من سميح على الرغبة في مشاركة صديقه الأقدار جميعها الحلوة منها والمررة، ومشاركته الممات كما شاركه الحياة.

¹ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود درويش، ص 103

² المصدر نفسه، ص 103، 104

³ المصدر نفسه، ص 112، 113

تخبط سميح مابين تصديق لخبر وفاة محمود وإنكار له، وقد روى في إحدى المقابلات عن مدى تأثره بوفاة صديقه محمود درويش ورفض عقله الباطن لهذا الحدث، معتقدا أن محمودا يلعب معه لعبة التخفي في: "في حفل رأس السنة الأخير تذكرت أننا كنا نقضي معظم احتفالات رأس السنة معا.. وقد ضبطتتي زوجتي وأنا أطلب رقما، فقالت من تطلب؟ وأصرت على أن تعرف، فقلت لها أن محمود يلعب لعبة التخفي ولم يمت وخيل إلي أنني حين أطلبه سيرد وسيأتي ويسهر معنا ليلة رأس السنة، فصعقت زوجتي وتركتني في حالة بين الغيبوبة والوعي وبين الصحو والسكر الروحية، حقيقة يصعب علي كثيرا أن أستوعب رحيل محمود درويش".¹، وعليه فقد كتب قصيدة (مكالمة شخصية جدا) وكانت في (اليوم الأخير من العام ألفين وثمانية)، مبتدئا القصيدة بطلب رقم محمود الخلوي طالبا منه الرد على مكالمته، ليجيبه بدلا من محمود الرد الآلي بعدم إمكانية الوصول إلى الرقم المطلوب وإعادة الطلب فيما بعد:

059-9262600

هالو. محمود. أجب. رد. تكلم يا محمود...

(مرحبا

لا يمكن الوصول الى الرقم المطلوب حاليا

يرجى إعادة الطلب فيما بعد...)²

تأتي أفعال الأمر (أجب - رد - تكلم) كمحاولة استجداء يائسة من سميح للوصول إلى محمود ليصدمه الرد الآلي الذي يتكرر بتكرار اتصال سميح بالفقيد، وقد جاء هذا الرد مناسبا لحال الشاعر موافقا للا شعوره - إعادة الرقم من جديد - ولكن دون جدوى لتأتي شكواه بعد محاولات ثلاث لإعادة الرقم قائلا:

تلك معضلي المحزنة

كيف أحيا حياتي كما كنت تعرفها

كيف أدعوك للسهرة العائلية

¹ <http://shamfm.fm/ar/article/19542> تحفظات الشاعر الفلسطيني على مسلسل في حضرة الغياب 8-11

² القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود درويش. ص 115، 116

ليلة رأس السنة

تلك يا صاحبي ورطتي

ولدى الموت أسرارہ المزمنة¹

تکمن مشكلة الشاعر أنه لا يستطيع العيش بصورة طبيعية دون صديقه محمود، وقد اعتاد على مشاركته إياه سهراته العائلية كأى فرد من أفراد العائلة، (مشكلة - معضلة - ورطتي) ألفاظ تبين مدى حزن الشاعر على فراقه حتى بات هذا الفراق مشكلة تؤرق الشاعر، ويأتي إقراره (بأن للموت أسرارہ) ليهون عليه ويواسيه، فيعترف بأن ذلك القلق والاضطراب ما هو إلا اشتياق وحنين لأخيه الذي طالما شاركه حياته وهمومه وآلامه، فيقول:

واعترافي بسيط وصريح

يا أخي اشتقت

يا ابن الحلال تعبت من الوحدة القاحلة

وأنا..من أعالي صليبي أصبح

لقمتي مرة يا أخي

وكؤوس الأسى قاتلة

وأنا مرهق بالحنين إلى لعبة الطاولة

في مساء خيبتنا

ونهاراتنا الفاشلة²

أرهقت الشاعر الذكريات، وخيم عليه الصمت بالرغم من مشاعره الجياشة وحيرته القاتلة حول موعد اللقاء بالشاعر الراحل لعله يستريح عن طلب اللحاق بقافلة الأصدقاء والأحبة الراحلين، يقول سميح:

¹ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود درويش، ص118

² المصدر نفسه، ص199، 120

فمتى استريح برحمتها

ومتى سوف تأخذني معها القافلة؟

مرهق. مرهق. يا أخي..¹

وبعد كل هذه الاعترافات بالشوق والحنين والحيرى، يأتي الرد الآلي ليصدم الشاعر
ويختم القصيدة ويختم الديوان بعبثية محاولات القاسم وعدم وصول شكواه إلى صديقه:

(مرحبا

لا يمكن الوصول إلى الرقم المطلوب حاليا..)²

وعندها يشرب القاسم نخب ذكرى محمود درويش في ألم ومرارة:

لذكرائك محمود. أشرب كأسا

لأوقظ من نومها قرحتي

وأسكب كازا

على وردتي

لأشعل نارا جديده

بجمرة حزن..تسمى قصيده³

لم يتوقف رثاء سميح لمحمود درويش عند هاتين القصيدتين، فكيف تستقيم مرثاة برج
الثور إن لم يكن محمود أحد أعمدتها، وفيها ينفي موت درويش مرة أخرى لدوره وأثره المتجدد
تجدد الأزهار والبساتين:

ليس للموت محمودنا

إنه للحياة

¹ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود درويش، ص 120، 122

² المصدر نفسه، ص 123

³ القاسم، سميح: كولا ج 2، ص 145

للزهور. لعيد البساتين. للدمع والأغنيات

للقوافي التي قهرت نثر سجانها

وهراء البغاة الجناة¹

ويصور موته على أنه شائعة يتناقلها الناس بينهما، والشائعات تحتمل التصديق والتكذيب، مؤكدا مرارا وتكرارا حياة درويش وعدم موته:

ويقولون.. مات

وأخي ليس للموت.. محمودنا.. للحياة..²

هكذا بقيت شخصية الغائب محمود درويش في حياة القاسم وفي شعره تنقز إلى الحضور وتعلن عن ذاتها فالحضور يكون أكثر حضورا كل ما كان الغائب متجذرا في أرض الصديق الحي³

وقد شكل نفي الموت عن الآخر ظاهرة عند سميح القاسم فهو كما نفى الموت عن محمود وأنكره عليه، فقد نفاه من قبل أيضا عن آخرين، فهاهو يحاول نفي الموت عن عبد الرحيم محمود بالتكرار (لم يقتلك.. لا)، فيقول:

لم يقتلك.. لا

شبه للقاتل

لم يقتلك لا

لن يقتل الصبار في لحمي

والريحان في لحمك

لن يقتل صوتك

¹ القاسم، سميح: غوانتنامو وقصائد أخرى. ص 74

² المصدر نفسه، ص 74

³ رفقة، فؤاد: الشعر والموت. ص 47

صبيحة الميلاد

موتك !¹

فالقائل لم يقتله بل شبه له و يؤكد ذلك بربطه بين عبد الرحيم محمود والمسيح، فيقول مستوحيا قوله تعالى " وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا "2

وهاهو يفتقد فدوى بأسلوب الاستفهام، ويحذر الآخرين من إخباره برحيلها، فيقول:

أين "فدوى".. احذروا

لا تقولوا انتهت شبعا في ضباب الغيوب

لم تزل نسغ دالية

لم تزل روح زيتونة

لم تزل بيننا

ملء رائحة الفل والبن في بيتنا

لم تزل ههنا

في القلوب

في جميع القلوب

شمعة تحضن النار.. لكنها

رفضت أن تذوب !³

وقد وصف موتها بأنه (ضباب الغيوب) بحيث توحى اللفظتان ضباب وغيوب بعدم
الوضوح وقلة المعرفة عن ماهية المكان الذي اتجهت إليه فدوى على هيئة شبح، فيسارع

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 311، 312

² سورة النساء، آية 157

³ القاسم، سميح: غوانتنامو وقصائد أخرى. ص 71، 72

الشاعر لنفي خبر غيابها، وتأكيد استمرارية بقائها في صور مختلفة في هذه الحياة فهي السائل الذي يغذي الدالية ويضمن لها البقاء، وهي روح الزيتون، كما يؤكد انتشارها في الوجود من خلال أشعارها ومواقفها ويصوره بانتشار رائحة الفل والبن لقوة انتشارهما، كما يؤكد مكانتها في جميع القلوب ويختتم رثاءها بتشبيهها بالشمعة التي طالما احتضنت النار لكنها على عكس هذه الشمعة لم تحترق ولم تذب بل بقيت مضيئة تضيء طريق الآخرين.

وقد مال القاسم إلى نفي الموت عن الآخر بطرق عدة، فصوره بلعبة اختباء يلعبها معه معين بسيسو، يقول الشاعر في (مرثاة من برج الثور):

إنما.. يا " معين "

أيها الشاعر الثائر الفوضوي الجميل اللعين

يا معين

لا تقل لي رحلت بلا رجعة،

لعبة تلك تلعبها من سنين

يا صديقي أراك اختبات

في ظلام العيون

من جنون الجنون¹

فبعد ذكره صفات "معين"، يرفض فكرة رحيله، ويصوره بلعبة الاختباء التي برع بها منذ زمن طويل وأنه مختبئ في (ظلام العيون)، وقد اختار القاسم هذا المكان دلالة على مكان معين الحقيقي وهو ذاكرتنا، ثم يبين دورة في النضال والمقاومة بقوله: (حيث أنت ابتدأت تحت رايتنا القرمزية)، ليصل أخيرا إلى السلام عليه والإقرار بأخوتهما في شعر المقاومة (يا أخي في دم الأبجدية).

وليست لعبة الاختباء فقط ما برع فيها معين بل لعبة التماوت أيضا، ففي قصيدة (أنت تدري كم نحبك) وهي قصيدة في رثاء معين، صدر الشاعر القصيدة بقوله: (إلى المتماوت معين

¹ القاسم، سميح: غوانتانامو وقصائد أخرى. ص 70، 71

بسيسو) حيث تأتي بنية لفظة (المتماوت) التي تفيد التظاهر لتدل على إنكار سميح موت معين، وكان قد توفي وحيدا في الثالث والعشرين من كانون الثاني عام 1984 في فندق ببريطانيا إثر نوبة قلبية، ولم يدر أحد بموته إلا بعد ثلاث أيام لأنه وضع على باب غرفته عبارة "الرجاء عدم الإزعاج" عندما فتح باب الغرفة، وجد الشاعر نائماً، ويده ممدودة إلي الهاتف في مشهد جامد يوحي بالتماوت

وقد تدرج سميح في موقفه من موت معين في قصيدة (أنت تدري كم نحبك)، ففي البداية قدمها نصيحة له (مت)، ثم غير رأيه وخاطبه فيما بعد (ارحل أو لا ترحل)، ثم عاتبه لأنه لم ينتظره للحاق به، ولما علم أن اللحاق به ليس مقدراً له، عاد من جديد ليخبره (انهض أو لا تنهض)، لكن سميح لا ينتظر معيناً ليختار، فينعته (بالمتماوت) في رغبة منه لعدم تصديق خبر موته أصلاً، فهو لا يسمح بموت الشعراء وعندما عاد القاسم إلى وعيه طالبه بالعيش (عش)، وبالنهوض من الموت فقد دقت ساعة مياعده للحياة فالشعب ينتظر عودته خلف أبواب الموت لمشاركتهم طريق النضال، لينهي القاسم قصيدته بالاعتراف بحب بسيسو وضرورة النهوض من جديد:

خلف باب الموت صحبتك

ما زال ملء الشمس

والإنسان

والتاريخ

شعبك

فانهض إلينا

يا رفيقي

أنت تدري كم نحبك¹

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 193

كما صور الموت تخفيا من الأوضاع العربية البائسة تجاه القضية الفلسطينية، كما قال مخاطبا محمود درويش:

تخفيت بالموت،

تكتينا لم يطع إستراتيجيا انتظار العجائب

وما من جيوش. وما من زخوف. وما من حشود.

وما من صفوف. وما من سرايا. وما من كتائب¹

وما موت ياسر عرفات إلا نوم في سرير النعش الذي طالما رحب به ياسر مستهزئا:

إذن تنام. ويخبو الشمع والشرر وكان دأبك لفح النار والسهل

إذن تنام. وكم من يقظة يسرت بما رغبت إلى أن أعسر القدر

فلا سرير سوى نعش هزئت به والآن يهزأ: عندي تنتهي السرر²

يأتي الحرف (إذن) ليدلّ على أن ما يليه نتيجة منطقية للقضايا المقدّرة قبلها، فبعد مسيرة ياسر عرفات الطويلة والحافلة يأتي النوم ليكون فرصة لراحة القائد بعد أن كان يستعصي عليه في حياته أمام كبر المهمات الملقاة على عاتقه.

وهو نوم أيضا بالنسبة لبتريس لومومبا، الذي يهدد القاسم له لينام في بداية قصيدة (مرثية لبتريس لومومبا)، قائلا:

نم يا حبيبي بالهنا حتى م تسهر في الضنى

عيناك عالقتان بالضوء المشع على الدنى³

ينبع ربط القاسم بين الموت والنوم -وقد تكرر مرارا- من الثقافة الإسلامية التي ربطت بينهما فقد قال تعالى: "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"⁴.

¹ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود درويش. ص 75

² القاسم، سميح: بغداد. ص 89

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج.1. ص 61

⁴ سورة الزمر، آية 42

ففي المنام يخرج الإنسان من إطار الزمان، أو - على الأقل - من إطار الزمان العادي، وكذلك من العالم الذي يعرفه، فلا يعود يحس به، ولذلك لا يخضع - في نومه - لقوانين العقل - ولا لمنطق عالم الشهادة والدنيا. وهذا يقدم فكرة عن انتقاله بالموت من حال إلى حال.¹

1

وإضافة إلى كون الموت نوما وسباتا مؤقتا سينتهي، هو أيضا عودة من الشتات، يقول القاسم نافيا الموت عن توفيق زياد:

قيل ما قيل. في ما تقول اللغات

قيل.. مات

قلت لا. تلك سرنمة تنتهي

بانتها السبات

عودة شتات²

ويرى الشاعر أن إغماض حافظ الأسد لعينيه في وقت الموت ما هو إلا حالة تأمل للقائد واستنباط الأفكار، لذا يطلب منه الشاعر في قصيدة (ما الموت؟)، أن يغمض عينيه ليتعمق في حال الأمة لعله يجد لها الحل، يقول:

إغمضة العينين منك تأمل يسعى إليه السائل المسؤول

إغمضة العينين مولد فكرة وعقيدة خلف الجبين تجول

أغمض إذن عينيك. واسبر غورنا وافتح لنا أفقا إليه تؤول³

وعلى الرغم من كل هذا الوصف التجميلي للموت في محاولة منه لتقبله واستساغته، يبقى معناه الحقيقي: الفقد والرحيل مصحوبا بألم الغياب في نفوس الباقين، لذا يكثر الشاعر - في قصائد الرثاء - من الراحلين طلب البقاء وعدم المغادرة، فعلى مثل هؤلاء الرجال الشرفاء ألا يغادروا كي لا يتركوا القضية الفلسطينية لزمان تكاثر فيه الأعداء والتجار.

¹ انظر، إبراهيم، زكريا: دراسات في الفلسفة المعاصرة. ط1. القاهرة: مكتبة مصر. 1968. ص 227

² القاسم، سميح: غوانتنامو وقصائد أخرى. ص 73، 74

³ القاسم، سميح: بغداد. ص 56، 57

ففي قصيدة (حفلة البرق والرعد في أوجها!) جاء العنوان ليربط بين رجال فلسطينيين ثلاثة، وهم كمال ناصر وغسان كنفاني وكمال عدوان، وقد جمع هؤلاء الثلاثة حب الوطن والاستبسال في الدفاع عنه، إضافة إلى الطريقة التي قتلوا بها، على يد الموساد الإسرائيلي.

إن الاغتيالات الإسرائيلية العنيفة مستمرة ولا تتوقف عند حد للشخصيات المهمة والفاعلة في المنظمات والساحات الفلسطينية التي لا تحيد عن طريق المقاومة والنضال، وهذا ما يعبر عنه العنوان (حفلة البرق والرعد في أوجها) بطريقة الاغتيال لا تخلو من العنف والغلو في القسوة بعيدة عن كل القيم والمشاعر الإنسانية. فوجه لهم الخطاب بصيغة المفرد المخاطب طالبا منهم عدم المغادرة قائلًا:

لا تغادر اذن هذه الدائرة

أنت محورها اللولبي

صاعدا من رماد التقاويم و الاغنيات

من ظلل الذاكره

جائسا ليلها الربع قرن ولكنها وحدها الآصرة¹

وفي ظلام هذا الاحتلال كان لابد من استمرار حفلة البرق والرعد التي تحتاج إلى المناضلين الشرفاء الذين لم يغادرونا أبدا، فهم وإن غابوا حاضرون في تفاصيل حياتنا:

لا تغادر اذن يا رفيق

حفلة البرق والرعد في اوجها لم تزل

والرصاص الذي خاط للارض جسمك

قلم يكتب اسمك

كل يوم من الساعة الثامنة

كل يوم إلى الساعة الثامنة

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 2. ص 303، 304

قلم يكتب اسمك

في كراريس أطفالنا

يكتب اسمك

فوق أبوابنا

يكتب اسمك

بين أسمائنا !¹

ولا يقتصر طلبه بعدم المغادرة على أصدقائه، فههو يرجو والده مرارا ألا يتركه و
يرحل عنه مخلفا وراءه حزنا كبير، فهو وإن كبر يبقى الطفل الصغير أمام والده حيا كان أم
ميتا، فيظهر شوقه ومدى حاجته إليه وإلى حنانه، إضافة إلى حاجته إلى الكلام معه في شؤونه
الخاصة، ، فيقول:

أبي لا تدعني

لدي كلام كثير إليك

وشوق كبير

إلى لمسة من يديك

فلا ترحل الآن²

ثم يظهر إيمانه العميق بعودة هؤلاء الراحلين ذات صباح مفعم بالحرية، يقول القاسم:

وأعلم.سوف تعودون.ذات صباح جديد تعودون

للدار والجار والقدس والشمس.سوف تعودون.

حيا تعود.وميتا تعود.وسوف تعودون.ما من كفن

يليق بنا غير دمعة أم تبل تراب الوطن³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 305، 306

² المصدر نفسه. مج3. ص 173

³ القاسم، سميح: مكالمة شخصية جدا مع محمود درويش. ص111

فإن اهترأت القمصان وماتت الأجساد فالأرواح خالدة وستعود، يقول:

واسألوا أين راشد

لترد القصائد

القميص اهترأ

وصدى الروح خالد

إنه خبر المبتدأ

"ومع الفجر ..عائد

لا تقولوا إذا..مات راشد!¹

ثم يستجمع الشاعر قواه ويبين أنه لا يبكي صديقه لأنه حي، وأنه ينتظر عودته صائحا
في كل جهات الأرض بأنه عائد، يقول الشاعر في نهاية قصيدة (الخبر الأخير عن عبد الخالق
محبوب):

يا رفيقي الميت الحي، كموتي وحياتي

لست ابكيك..وأبكي..

رافعا وجهي الى كل الجهات

وأنا اسمع من كل الجهات

صوتك الهادر:

آت: يا رفيقي..

أنا آت !!²

وفي مواضع أخرى من قصائد الرثاء يؤكد الشاعر وجود الآخر وعدم غيابه بآثاره
وأعماله الباقية، فالفقيد حي موجود بين الناس بأعماله، ويبين أن عزاء الشعوب إحسان
الراجلين، يقول:

¹ القاسم، سميح: غوانتانامو وقصائد أخرى. ص 72

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 302

وعزاء الشعوب في راحليها ما أدامت مآثر الإحسان¹

فالشاعر في قصيدة (مرثاة...من برج الثور)، يؤكد وجود راشد حسين بين الحضور المستمعين وفي الاجتماعات والمسيرات والمقررات الدراسية، وما هذه الأماكن إلا إشارات تذكر المتلقي بدور الفقيد المقاوم الملتزم بقضيته حيا، وأثره المستمر فيها ميتا:

احذروا ما تقول الجرائد

واسألوني أنا..أين "راشد"؟

إنه هنا

بيننا

في اجتماعات حاراتنا

في مسيراتنا

إنه في صفوف الدارس

في دروس أحيانا الوفي الجميل "شكيب"

هوذا.مفعما بالندى.ألقا. في المجالس²

يبين الشاعر أن أثر الآخر و تضحياته وكتاباتة في الثورة هو سر خلوده، وهو ما يحرص على أن يختتم به قصائده، يقول في قصيدة (حفلة البرق والرعد في أوجها):

لم تغادر إذن

لم يزل دما يا رفيق

مشتعلا في الطريق

لم يزل دما المز ماوية الوطن!³

¹ القاسم، سميح: بغداد. ص 115

² القاسم، سميح: غوانتانامو وقصائد أخرى. ص 72

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 308

فرحيل ياسر عرفات كحياته مثمر محمل بالإلهام والحوافز، ما يجعله خالد حاضر في نفوس أبناء شعبه:

وفي رحيلك أغراس مؤملة ومن مكوثك فينا يرتجى الثمر
وأنت باق إلى ما شاء هاجسنا وفي بقائك ما يبقي وما يذر¹

كان موت أبي عمار على الصعيد الفلسطيني، عميق الأثر في نفس القاسم، فقد جمعت به علاقة مميزة، تحدث عنها القاسم في سيرته الذاتية قائلاً: "وللحقيقة، فقد كانت بينك وبين قادة شعبك صداقة وألفة ومحبة، طالما سمحت لك بالمشاكسة، لإدراكك بأن الحلم المشترك والموقف المشترك والعذاب الوطني والسياسي والاجتماعي، كانت النار التي صهرت وظهرت وبلورت نضالاً مشتركاً ورؤياً مشتركة ليس فيها إلا كل ما هو جميل وطيب وصادق لأجل هذا الشعب ولأجل الوطن"².

وفي لحظات الضعف الإنساني الذي لا يستطيع الشاعر مهما أوتي من قوة شعرية تجاوزها، تسيطر عليه مشاعر الحزن والألم فيبكي الفقيد الراحل راثياً نادباً.

وقد صادف أن توفي زايد آل نهيان أمير رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة قبل موت ياسر عرفات بعدة أيام، وكان لهذا الأمر وقع خاص وتأثير كبير على نفس سميح القاسم، فجمع بين الفقيدين في قصيدة رثاء واحدة هي قصيدة (رحيل الفرسان)، فيبدأ فيها بإيقاع هادئ حزين، أمام عظم خبري الوفاة، فيقول:

طأطئ القلب للردى والهوان يا شفيح الحياة والعنفوان
طأطئ القلب يا وريث المآسي ومغيث الرمد بالنيران
طأطئ القلب بين موت وموت وتقلب على لظى فقدان
لم تكف على ابن نهيان حزناً يوم نادى بياسر نعيان
نعي شعب غالت عليه شعوب وبلاد غابت عن الأوطان³

¹ القاسم، سميح: بغداد. ص 96

² القاسم، سميح: إنها مجرد منفضة. ص 333

³ القاسم، سميح: بغداد. ص 101

تكاثرت المآسي والمصائب التي ألمت بالشاعر من مرضه إلى فقد أصحابه واحدا تلو الآخر ولم يكد يخرج من الحزن على زايد حتى جاء خبر موت ياسر، فأضحى كالمقلب على جمر الحزن، ويرى الشاعر أن بموت ياسر عرفات مات الشعب وغيببت الأوطان فهو القائد الرمز و قد كان يعني لها الكثير، كما كان لنبا موت زايد وقع مدو في فلسطين وشعبها المسلم والمسيحي بلا استثناء:

يا الإمارات في فلسطين دوت فجأة النعي بين قاص ودان
أنواقيس رنمت بـوداع وتتادات أوجاعه بالأذان
وإمام الجراح في القدس صلى لغياب المقيم في الوجدان¹
يواسي القاسم نفسه ويشجعها على الصبر والجلد في مواجهة الأحزان وفقد الأحباب
حتى بات لا يقوى على الرثاء الذي لا ينتهي برحيل الأحياء تباعا:

طأطئ القلب يا شموخ القوافي وتجميل بالصبر قيل البيان
وتحمل ما لا تطيق احتمالا وتأمل من محتني ما دهاني
بين أيدي الأحزان أودعت تاجي والمآسي منحتها صولجاني
من تراني حتى أطيق رثاء ورثاء لا ينتهي. من تراني؟
من شهيد يزفه شهدي لشهيد من ناره غلياني
والأحياء يرحلون تباعا وسراعا.. تمهلوا إخواني!²

وقد ابتدأ الشاعر قصيدته "الخبر الأخير عن عبد الخالق محجوب" بوقع خبر إعدام عبد الخالق على غابات إفريقيا. وعبد الخالق محجوب³، حيث يقول:

شهقت غابة "مانجا" ناضجه

يا حبيبي

¹ القاسم، سميح: بغداد. ص 102

² المصدر نفسه. ص 105، 106

³ قيادي بارز في الحركة الشيوعية العربية والسودانية أعدمه النميري بعد انقلاب فاشل عام ألف وتسعمائة واثنين وسبعين.

خض أسراب العصافير حجر

شهقت أفريقيا الأخرى وصاحت

يا حبيبي

ونعاك الضوء للضوء

نداء.. لا خير!¹

فالأفعال (شهقت، خض، صاحت) توحى بشدة تأثير الخبر على محبيه، ويأتي النداء (يا حبيبي) للتحسر، ولشدة حزنه تغيرت في نظره المشاهد الطبيعية من حوله فباتت أقل جمالا، فيتساءل متعجبا عن السبب:

وإني لأسأل نفسي وأسأل

و أسأل نفسي وأشقى وأضجر

ألم يكن العشب أنقى وأنضر؟

هل الصبح اصفر؟

هل الورد أغبر؟

ألم يكن الأفق أعلى وأرحب؟

ألم تكن الشمس أزهى وأقرب؟²

وبين حزن البلاد العربية الكبير على حافظ الأسد، فلبنان وفلسطين تبكي عليه، و تتحسر عليه الأردن، كما عم الأسى العراق ومصر، يقول القاسم:

حلت عليك جديلتيها أرزة وبكاك زيتون. وأن نخيل

وطفت على اليرموك حسرة خالد وذوى الفرات أسى. وغص النيل³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج2. ص 297

² المصدر نفسه. مج3. ص 169

³ القاسم، سميح: بغداد، ص 55

وقد عبر في قصيدة بعنوان (أبي) فيها عن ألمه وعميق حزنه لفقده، فموت الوالد زاده
فوق عمره عمرا، فهرم وترهل صوته، يقول:

كبرت

وصرت

من الأهل في منزل الحزن

قلبي تمهل

وصوتي ترهل

وضاقت خطاي

هرمت¹

أتعب الموت سميح القاسم وأرهقه الحزن على فقد الأحباب المتوالي، في الوقت الذي
أرهقته فيه هموم الحياة التي لا تتوقف عند هم شعبه وهم بلاده بل تتعدها لتشمل هموم الوجود
بأسره فيتوجه بالخطاب للموت في قصيدة (رحيل الفرسان)، راجيا إياه أن يريحه قليلا:

أيها الموت لو تريح قليلا فكفاني يا مرهقي ما كفاني
أيها الموت منك أعاني وأعاني من الحياة أعاني
هم شعبي همي وهم بلادي وشجون الوجود من أشجاني²

ويشكو له من جديد في القصيدة ذاتها شدة تعاقب الأيام والليل والنهار بمصائبها، لذلك
يطلب منه التمهّل، لأنه وعلى الرغم من ذلك لن يستكين لهذه المصائب:

أيها الموت فأتد. ليس فينا من يداري ضراوة الحدثان
أيها الموت وأتد ليس منا مستكين لسطوة الطوفان³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 168

² القاسم، سميح: بغداد. ص 106، 107

³ المصدر نفسه. ص 108

ثم يقرر أن يتحدى الموت فيشرع له صدره، وذلك لإيمانه بأن العمر في يد الله تعالى طال أم قصر له فيه حكمة، والأحزان الطاغية على حياتنا لا تضيف ولا تنقص منه شيئاً:

أيها الموت فاحتشم أو فداهم مهلة العمر في يد الديان
لم تؤخر ولم تقدم منايًا حكمة الله سورة الأحزان¹

قصة موت الآخر مع سميح قديمة جديدة ومعاناته بسببه مستمر، فعندما توفي الزعيم المصري جمال عبد الناصر في الثامن من أيلول في عام 1970، حزن عليه القاسم كالشعب العربي حزنا كبيرا ورثاه في قصيدة بعنوان (ما تيسر من سورة الموت)، وقد قسمها إلى قسمين الأول تحت "عنوان تهليلية لأجل الجياد"، والثاني تحت عنوان "مصارع الرجال"، يفتتح القسم الأول "بمفارقة فنية فيها رؤيا فلسطينية نابغة من واقع المأساة الفلسطينية فالرقص وعرس الموت ضدان لا يجتمعان إلا في حالة كالحالة الفلسطينية، والفلسطيني مرهق من تكرار هذه الحالة، إنه يعيش الحياة رغما عن الموت الذي يحاول أن يصبغ التفاصيل الكثيرة، ويصير الرقص موحيا بتحد غير مسبوق للموت الذي يمتد الآن أعواما على أعوام عندما يستشهد عبد الناصر ولما يتحقق الحلم، فعبد الناصر سيد لا يشبهه السادة إنه قادم من الأحلام، وهذا تصريح واضح أن الحلم الذي ارتبط بعبد الناصر هو حلم الشعب الفلسطيني والأمة كلها"²، فيقول:

أرهقتي الرقص.. وعرس الموت

يمتد أعواماً على أعوام،

خوفي، يمر الوقت

ولم أعانق سيدي الآتي من الأحلام

دمرتني يا موت

جددتني يا موت³

¹ القاسم، سميح: بغداد. ص 114، 115

² <http://www.alfikralarabi.org/modules.php?> رثاء جمال عبد الناصر في الشعر الفلسطيني، د. زاهر محمد

الجوهر حنني 22-8

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 2. ص 9

أما في القسم الثاني وهو (مصارع الرجال)، يبين الشاعر أنه وعلى الرغم من كونه متفائلاً داعياً إلى الحياة وتجديدها إلا أنه في تلك اللحظة لا يملك إلا أن يبكي عبد الناصر واقفاً وصامداً وزاحفاً يبكيه بالنيابة عن أحبه من المحيط إلى الخليج.

في خضم أحزان الشاعر وأساه يتمنى لو أن ينعم بلحظة جمال وبرهة للتهاني لا للثرثاء، فقد أتعبت كثرة الموت روحه وزلزلت كيانه، يقول:

أشتهي لي في العمر لحظة زهو أشتهي لي.. وبرهة للتهاني
أرهقتني عواصف الموت روحاً وجموحاً وصدعت أركاناً¹

قلب الشاعر المرهف يمضي وراء أحبته في قبورهم ليسألهم عن أحوالهم هناك في الموت، فيقول مسائلاً معين بسيسو في قصيدة (أنت تدري كم نحبك):

يا عريس اللوز والليمون

كيف مدارك الجوفي؟

كيف عروسك البيضاء،

في المنفى الهلامي البعيد؟

كيف الطقوس لديك؟²

فقد صور الموت منفى هلامياً، فيه مدار جوفي وعروس استوحاها من الفكر الإسلامي حيث الحور العين في جنان المتقين ليوحي للمتلقى براحة معين في قبره، وقد كانت سلطات الاحتلال منعت جثمان الشاعر معين بسيسو من الدخول إلى فلسطين ليدفن في تراب غزة الذي درجت عليه أقدامه وكان الشاهد الأول على تفجر موهبته رغم الكثير من المحاولات، وبناء على ذلك دفن في مصر وعلى عكس قصيدة (أنت تدري كم نحبك)، لم يسأل القاسم توفيق زياد في قصيدة (رسالة من توفيق زياد) مثلاً سأل معيناً عن أحواله في المنفى الهلامي، فقد كان الراحل توفيق من بادر بإرسال رسالة من مكانه القصي توضح حاله داخل القبر، حيث يكون

¹ القاسم، سميح: بغداد. ص 106

² القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج3. ص 182

تراب الوطن العزيز هناك ثقيلًا على فمه الذي لطالما كان ينشد للوطن وللحرية والمقاومة في سبيلها، وعلى يديه اللتين اعتادت الدافع والبناء، يقول القاسم على لسان توفيق زياد:

ألتراب العزيز، عزيز كثيرًا علي

وثقيل قليلًا على جبهتي وفمي ويدي

وأنا، مثلما تعلمون، أنا لا أحب الظلام الثقيل

والهدوء الممل الرتيب الطويل

إنما، أتدبر أمر الحنين الشقي

عن مقامي القصي

عن زهور بلادي

وأهل بلادي

وشمس بلادي¹

ويصور الظلام والهدوء المخيمين هناك، ليطفو شعور الحنين الملازم له لبلاده بأهلها وشمسها وزهورها وطيورها، كما يبين أنه ما زال منهما في محاوراة الظالمين حتى في موته، فيقول:

وما زلت منهما بالحوار الممض

مع الطغمة الظالمة

وكوابيس تاريخها الغاشمة..²

وينتهي القاسم قصيدته بمخاطبة ضريح ياسر عرفات، بأنه نظم هذه القصيدة في رثائه من قلب محب مرهف بالمحبة والحزن، فإن غاب جسد الراحل فروحه حاضرة، ليبقى السؤال قائمًا في ذهن الشاعر: موت ذاك؟ أم خدر؟!، يقول القاسم:

¹ القاسم، سميح: أرض مراوغة، حرير كاسد، لا بأس !. ص41

² المصدر نفسه، ص42

ويا ضريح أخي. أزمعت أغنية والعود أنت. وشرياتي لك الوتر
ويا ضريح أخي. قلبي على شفتي وإنني بنواهي القلب مؤتمر
أضمته جسدا. والروح ماثلة ويضم الشك: موت ذاك؟ أم خدر؟¹

بينما كانت مشاعر الأمل والحزن تتصارعان في شعر موت الذات، كان شعور الحزن يخيم على شعر موت الآخر، يكبر بموت الأصدقاء تباعا وبقاء الشاعر وحيدا، وإن كان بعض الأمل يحدوه أحيانا، فذلك حين يعزي نفسه بآثارهم الخالدة من بعدهم.

وبينما كان يرى موته محققا، فموت الأصدقاء مستبعد يميل إلى نفيه بطرق عدة وباستمرار، على الرغم من واقعيته، وحين تغلبه مشاعر الحزن هذه يضح أمرا بعودتهم مرارا وتكرارا، ولكن رغبة الشاعر هذه - عودة الأصدقاء - ورؤيته الرمزية بعودة الشهداء، هي ما لا يجده الدارس في شعر موت الذات على الرغم من وجود عقيدة النقمص في مذهب الشاعر الدرزي، فهل هذا من منطلق خوف الشاعر من أن يبعث شخصا آخر غير سميح الشاعر؟ بينما نجدها في شعر موت الشعب ليؤكد استمراريته ويضمن بقائه.

¹ القاسم، سميح: بغداد. ص 98

المبحث الثاني

موت الآخر العدو

كما أن هناك نكبة ومجازر ارتكبت في دير ياسين وهناك ضحايا فلسطينيون، هناك (هولوكست) وضحايا يهود، الضحايا الذين تحولوا إلى جلاّد، ضحايا النازية الذين يعاقبون الفلسطيني ويطردونه ويحتلون بيته¹، هذه الصورة هي التي غلبت على موت الآخر العدو (موت العدو الضحية للقائد النازي).

ففي مواضع شعرية قليلة في دواوينه العديدة، يأتي الشاعر على واقعة مأساوية في تاريخ المحتل تعرض فيها للموت بطرق بشعة، وهي الإبادة الجماعية النازية (المحرقة النازية) (الهولوكوست)، التي عاشها اليهودي في ألمانيا، ومن خلالها يحاول الشاعر أن يستنتج سبب عدوانية الاحتلال الوحشية، فيرى أن تجربة القائد السابقة مع الموت تركت آثاراً دامية في نفسه، مما جعله يتصرف بأسلوب انتقامي دموي تجاه من حوله، وهي تجربة لم تكن بسيطة وعابرة، بل كانت عنيفة ودموية تركت آثارها العميقة في نفسه، لذلك حاول الشاعر أن يسلط الضوء عليها، فيقول في (كولاج 2):

هل تنسى عارك في بوخنفالد²

هل تذكر نارك في بوخنفالد

هل تنسى حبك في قاموس الصمت

هل تذكر رعبك من ناموس الموت

في كابوس الوقت

أن يصبح كل العالم بوخنفالد؟³

¹ انظر، الأسطة، عادل أدب العائدين: الزائرين ربعي المهون "مصادر"، جريدة الأيام. 27-12-2015، http://www.al-ayyam.ps/ar_page.php

² بوخنفالد معتقل نازي في ألمانيا

³ القاسم، سميح: كولاج 2. ص 97، 98

يستدرج الشاعر بداية المحتل إلى ذاكرته القديمة بهدوء باستخدامه لأسلوب الاستفهام، وبتسليط الضوء على المكان، فيحفزه على التذكر بتكرار (بوخنفالد) الذي قد يشكل له صدمة، فالأماكن تحمل الكثير من الذكريات السعيدة والمؤلمة، كما يدعم القاسم الذكريات المرة باستخدامه لألفاظ ذات دلالات سلبية (نارك، رعبك، كابوس)، ثم تملو وتيرة الذكريات وتتحفز بتصوير مشاهد الموت الصادمة، فيقول:

تنسى. لا تنسى. تبقى صور الموتى

بين أكاليل الورد

ومن الأشلاء البشرية

تطلع يد

مسمار في الكف ووشم في الزند

لافتة للكرة الأرضية

تذكر؟ لا تذكر؟

بوخنفالد تنس؟ لا تنسى؟

تبقى صور القتلى.. بين أكاليل الورد..¹

عرض الشاعر المحتل في المقطع الشعري لصدمة من الذكريات ليسترجع معها مرارتها وآلامها، لعل استرجاعه لها والتفكير من جديد في آلامها يكفه عن إخضاع غيره لمثلها.

وفي سربية (أنا متأسف) - وهو الموضع الثاني الذي تعرض فيه الشاعر لموت المحتل الإسرائيلي - يمارس الشاعر دور الطبيب النفسي من جديد، ليحاول مساعدة الاحتلال على تخطي هذه الأزمة النفسية، لعله بالتالي يتوقف عن ظلم الشعب الفلسطيني، فمن المفروض أن من عاش تجربة الظلم لا يمارسها مع من حوله، يقول القاسم في:

¹ القاسم، سميح: كولا ج 2. ص 97، 98

سألتك حاول. وحاول ولادتك الثانيه

وجرب خروجك منك

إلى الرؤية الصافيه

سألتك خذ عبرة الدمع القاسيه

ومارس عذابي قليلا

لتهجر أوهامك الداميه

وبؤس كوابيسك الطاغيه

لذكرى الرماد الرصاصي في نعش محرقة قانيه..¹

في بداية هذا المقطع الشعري يحاول الشاعر مساعدة الآخر العدو في الولادة (حاول. وحاول ولادتك الثانيه)، ليخرج من دور القاتل ومن ضغط الهواجس وتأثير الكوابيس الناجمة عن تجربته السابقة مع الموت، ويتأمل ولو قليلا ما يمارسه في حق الفلسطيني من عذاب وقتل.

تعرض الإنسان للتجارب السيئة في حياته يدفعه إلى أن يسلك طريقا من اثنتين في تعامله مع الآخرين، فإما أن يجنب الآخرين ما قد مر به، وإما أن يخضعهم ليعيشوا تجربته فيشعروا آلامه وحزنه انتقاما لذاته، وهذا ما كان من أمر القاتل الإسرائيلي الذي خاض تجربة المحرقة وعانى آلامها، ومع ذلك يخضع الآخرين لتجارب مماثلة لها، مرتديا قلبا وقالبا قبيحين للموت كردة فعل عكسية منه:

ودأبك أن تستفز وأن تتماذى وأن تستبيحا

وأن تلبس الموت وجها قبيحا وقلبا قبيحا²

ويقول:

وأسأل. أسأل. أسأل: هل كنت بالمحرقة؟

¹ القاسم، سميح: سريية أن متأسف. ص 29-30

² المصدر نفسه ص 74

أما كنت عندك

أعالج قيدي وقيدك¹

لم يتعلم الإسرائيلي شيئاً من تجربته، بل أمعن في الكراهية والرغبة في القتل، فيحاول القاسم تهدئته من جديد، بأن يوضح له أنه شريكه في تلك التجربة، حيث أن العرب لم يكونوا بأفضل حال من اليهود في سلم النازية، لذلك هم أكثر من يشعر بمعنى الظلم والقسوة، وقد أدركوا أن الموت واحد تحت كل الظروف، وله نفس الهوية لدى جميع البشر، كما حاول الشاعر امتصاص غضبه بتذكر أمه الإسرائيلية القتيلة وقراءة الفاتحة لها:

على قبر أمك.تحت جليد أوروبا. وقفت طويلا

وضعت زهوري القليلة حزنا كثيرا

وذكرني وجعي "الفاتحة"

ولقنتني موت أمك درسا

وعلمني اللغة الجارحة

وتشبه ليلتنا البارحة

فماذا تعلمت من قبر أمك.قل لي

سوى كره حلمي، وشهوة قتلي²

أما موت الآخر العدو ضحية المقاوم الفلسطيني، فلم يظهر بشكل مباشر وصريح بقدر ظهور الصورة الأولى (ضحية النازية) على قتلها، فقد كان القاسم في معظم قصائده يدعو الشعب للمقاومة والقضاء على العدو دون أن يستخدم عبارات وألفاظا صريحة تحض على قتله مباشرة في الوقت الذي كان يستخدمها بكثرة لافتة عند حديثه عن الفلسطيني الضحية، بل اعتمد على الرمز والأساطير والبعث في حياة جديدة بدلا من ذلك وهذا ما يدفع الدارس للتساؤل عن السبب، هل كان ذلك من باب الحرص على إظهار الشعب الفلسطيني البسيط ضحية للاحتلال

¹ القاسم، سميح: سرية أن متأسف، ص 95

² المصدر نفسه، ص 15

الإسرائيلي لكسب تعاطف العالم معه وتأبيده؟ فشعر سميح القاسم يظهر الفلسطيني مقتولا لا قاتلا، مظلوما لا ظالما، أم هو من باب الإقرار بواقع الشعب الضعيف بمعزل عن القوة العربية؟ وإن ظهرت هذه الصورة - صورة القاتل الفلسطيني - تكون بسيطة تتجلى نتيجة لسلوك الاحتلال الدموي، وشهوته القاتلة، وإحقاقا للعدل والحق، فهاهو يبشر الآخر العدو بالموت قتلا:

أبشّر قاتلي بالموت قتلا وأنقض جسمه ليلا فليلا
أنا الحكم الذي لا بد منه أجوب رحاب وادي الموت عدلا¹
وقد نصب الشاعر نفسه إله وحكم عليه حكم قضاء لا مرد له بالموت، فيقول:

قاتلنا يا أبي سيموت بعزلة شهوته القاسية

يموت بحكم القضاء،

ولكن..بضربتنا القاضية!²

وهو يتوعده بأن يوم الحساب قد حان، ولا مهلة لديهم لإصلاح ما أفسدوه بالهدم والذبح وقتل فرص السلام:

لا.لا تعدوا العشرة..

يوم الحساب فاتكم

وبعثت أوقاتكم

أرقامها المبعثره

فلا تعدوا العشرة...³

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 2، ص 312

² القاسم، سميح: عجائب قانا الجديدة. ص 31

³ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 3، ص 504

لكن ظلم المحتل الإسرائيلي للفلسطيني هو ما سيقنتله:

بظلفك أنت، سنحفر نحن، سنحفر قبرك¹

الآخر العدو ضحية نسيت تجربتها القاتلة أو حاولت أن تنسى، وباتت جلادا يمارس بوعيه ولا وعيه ما مورس عليه ولو جزئيا على الشعب الفلسطيني.

هكذا ظهر موت الآخر العدو في شعر سميح القاسم، وهي مقطوعات قليلة وقف فيها الشاعر على موت العدو لكن في المعسكرات النازية وليس في الأراضي الفلسطينية، وهي صور أقل عمقا مما جاء في مشاهد قتل الفلسطيني. ولكن هل وقف عليها الشاعر ليبحث عن سر همجية الاحتلال القاتلة؟ أم أنه أراد أن يضدد بالحجة ممارساتهم الدموية؟ و لم تجد الباحثة في شعر سميح القاسم أي مشهد شعري يصور موت العدو ضحية المقاوم الفلسطيني، ولو من باب الوعيد والتهديد، في مقابل مشاهد كثيرة صورت موت الفلسطيني ضحية الاحتلال وممارساته التعسفية.

¹ القاسم، سميح: الأعمال الكاملة. مج 2. ص 321

الخاتمة

حاولت الباحثة في هذه الدراسة تتبع الموت في شعر سميح القاسم، وقد توصل إلى النتائج الآتية:

1- كان للموت حضور قوي في شعر سميح القاسم في مراحل مختلفة، وذلك نتيجة الظروف العامة والخاصة التي مر بها.

2- كان لانضمام الشاعر كغيره من شعراء المقاومة واعتناقه الفكر الماركسي اللينيني والمنهج الواقعي في نظريته للعام، أثر دفع الشاعر إلى الإيجابية في النظرة للموت، فهو برزخ الحياة الجديدة السعيدة.

3- موت الإنسان في فلسفة الشاعر لا يعني غيابه، فالجسد يموت ويبقى الفكر نابضا في الحياة، وهو حافز لإشعال نار القصيدة.

4- انتشار الموت بشكل لافت في الأراضي الفلسطينية أدى بالشاعر إلى التعامل معه ببساطة أدت بالشاعر إلى تصويره بصور عدة تفوح سخرية.

5- كان الموت حبا في المرأة حاضرا في شعره، يتأرجح ما بين الشغف والسعادة، والخوف من فقد الحبيبة.

6- ارتكزت فلسفة الشاعر في الموت على ثلاث ركائز أساسية وهي الأسطورة وقد وظفها توظيفا ينم عن دراية وخبرة ووجد بها معادلا موضوعيا ليكشف تجربته العامة والخاصة، والتناص حيث استحضر محطات مهمة من التراث معتمدا على مخزونه الثقافي والمعرفي لإنتاج دلالات جديدة أو تأويلها تأولا جديدا، وأخيرا التقمص وقد عمد الشاعر إلى توظيفه لأنه خدم قضيته ووافق فلسفته في تأكيد البقاء الفلسطيني واستمراريته.

7- ظهرت الهزائم والانكسارات العربية التي ساهمت في نكبة الفلسطيني في شعر سميح كموت بطيء يقتل نفس الفلسطيني يأسا وإحباطا، وغدت دافعا رئيسا لتمني الموت.

8- انتشرت لوحات المجازر والمشاهد الدموية في شعر سميح القاسم حيث ركز فيها على موت النحن -الشعب- وأبرز مأساويتها وعناصرها، وسلط فيها الضوء على أشهر ضحاياها الأطفال والنساء.

9- الأطفال والنساء فئتان متلازمتان من الفئات التي استأثرت وجدان الشاعر في مشاهد المجازر، فسلط الضوء على مشاهد قتلها وصورها ودوافع قتلها في مقطوعات تبعث في النفس كوامن الألم والحسرة.

10- عد الشاعر الغربية موتاً يمتص روح الإنسان الفلسطيني المغترب، وأكد ضرورة العودة إلى فلسطين ولو كان الموت هو الثمن.

11- مرت فلسفة الشاعر في الموت بمرحلتين هامتين في حياته، المرحلة الأولى حيث كان الموت جماعياً ومدخلاً أساساً لاسترجاع الأرض والهوية وقد ظهرت في الدواوين الأولى للشاعر، والمرحلة الثانية حيث كان الموت ذاتياً محضاً وخصماً عنيداً في ضوء تجربة مرضه وفيها ظل رافضاً لليأس متحدياً ساخراً للموت مصراً على متابعة الدرب ووصول الهدف.

12- بين موت الجماعة الشعائري وموت الأنا الذاتي ظهر موت الآخر الصديق، وكان فيه الشاعر رافضاً لفكرة موته مستبعداً له، يلجأ فيه إلى المراوغة في تسمياته وصور نفية. كما ظهر موت الآخر العدو ظهوراً خجولاً متمركزاً حول موته كضحية للنازية في سبيل ضد الفكر الإسرائيلي.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر

القاسم، سميح: أرض مراوغة، حرير كاسد، لا بأس!.الناصرية:مؤسسة إبداع للنشر.1995.

الأعمال الكاملة.6مج.الكويت:دار سعاد الصباح.1993.

أنا متأسف. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر، و منشورات إضاءات.2009.

إنها مجرد منفضة.ط1.حيفا:دار راية لنشر.2011.

بغداد وقصائد أخرى. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر.2008.

بغض النظر. منشورات إضاءات.2012.

حزام الورد الناسف. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر.2009.

رماد الوردية دخان الأغنية.حيفا:مكتبة كل شيء.1990.

سأخرج من صورتي ذات يوم.ط1.عكا: منشورات مؤسسة أسوار. 2000.

عجائب قانا الجديدة.الناصرية: الحكيم للطباعة والنشر.2006.

العنقاء وقصائد أخرى. منشورات إضاءات.2012.

غوانتانامو وقصائد أخرى.منشورات إضاءات.2012.

الكتب السبعة.ط1.لبنان-بيروت:دار الجديد 1994.

كتاب القدس.ط1.فلسطين- رام الله:بيت الشعر.2009.

كولاج.ط2.سورية:دار الحوار.1984.

كولاج 2. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2009. (أكثر من ناشر، ما في طبعه)

كولاج 3. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2012.

كولاج 4. فلسطين: دار الرعاة للدراسات والنشر. 2014.

مكالمة شخصية جدا مع محمود. الناصرة: الحكيم للطباعة والنشر. 2009.

ملك أتلانتس وسريبات أخرى. ط1. الدار العربية للعلوم. 2005.

الممثل وقصائد أخرى. ط1. عكا: منشورات مؤسسة أسوار. 2000.

هواجس لطقوس الأحفاد. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2012.

مقالة قوس قزح في لوحة سريالية. مجلة الشعراء. تحرير المتوكل طه.

كلمة الفقيده في مهرجان تأبينه. مجلة الشعراء. 2. 1998.

المراجع

إبراهيم، زكريا: مشكلة الإنسان. مكتبة مصر

إبراهيم، سميح: مشكلة الحياة. ط1. مكتبة مصر. 1971.

أ. س. ميغوليفسكي: أسرار الآلهة والديانات. ترجمة حسان ميخائيل اسحق. ط2. سورية: دار

علاء الدين. 2006.

بارندر جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. ط2. مكتبة

مدبولي. 1996.

باقر طه، مقدمة في تاريخ الحضارات. 2. ج. ط2. الكرخ: دار العلمين العالية. 1955.

باقر، طه: ملحمة جلجامش أوديسة العراق الخالدة. بغداد: دار الشؤون الثقافية. 1975.

بدوي، عبد الرحمن: الموت والعبقريّة. القاهرة: مكتبة النهضة. 1945.

توما، إميل: بعد المراثي تأتي نبوءة سميح القاسم. سميح القاسم من الغضب الثوري إلى النبوءة الشعرية. تحرير أنطوان شلحت. عكا: الأسوار

تلك جمجمة الشنفرى قيمة الجمال وجمال القيمة في شعر سميح القاسم. تحرير إبراهيم طه: دار الهدى. ط1. 2001

أبو ججوح، خضر محمد: التشكيل الجمالي في شعر سميح القاسم. ط1. حيفا: مكتبة كل شي. 2012.

جهامي، جيرار: موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب. ط1. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون. 1998.
حسنين، نبيل علي: التناص دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقائص جريير والفرزدق والأخطل. ط1، كنوز المعرفة. 2010

الحفني، عبد المنعم: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية. ط2. مكتبة مدبولي. 1999

حلاوة، حديوي: الشهيد المصلوب عبد الله بن الزبير. القاهرة: الدار العربية للكتاب. 1995

الحمداني، أبو فراس: ديوان. تحقيق إبراهيم السامرائي. ط1. عمان: دار الفكر. 1983.

أبو خزام، أنور فؤاد: إسلام الموحدين المذهب الدرزي في واقعه الإسلامي والفلسفي والتشريعي. ط1. لبنان: دار الفارابي 1995

الخطيب، محمد أحمد: أصول العقيدة الإسلامية ومذاهبها. ط1. عمان: دار المسيرة. 2011.

الخطيب، محمد أحمد: عقيدة الدروز عرض ونقض. ط1. الأردن: مكتبة الأقصى 1980

الخطيب، محمد، أحمد: مقارنة الأديان. ط1. عمان: دار المسيرة. 2008

الديك، إحسان ونادر القاسم، جامعة النجاح الوطنية. شهادات في الشاعر الكبير المرحوم سميح القاسم. جامعة النجاح: نابلس. 2014.

الديك، إحسان: القناع والرمز في سربية القاسم كلمة الفقيـد في مهرجان تأبينه: تلك جمجمة
الشنفرى قيمة الجمال وجمال القيمة في شعر سميح القاسم. إبراهيم طه: دار الهدى.
ط1. 2001

الديك، إحسان: صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي. مجمع القاسمي للغة العربية.
2013

ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. 20 م. الإدارة الثقافية في جامعة الدول
العربية

راك، ي، ف: أساطير مصر القديمة. ترجمة محمد العلامي. ط1. عمان: دار الفكر. 2010

الربيعو، تركي علي: الإسلام وملحمة الخلق. ط1. بيروت: المركز الثقافي العربي 1992

أبو رحمة، محمد: الإسلام والديانة المصرية القديمة. ط1. القاهرة: مكتبة مدبولي. 2005

رستم، سعد: الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات. ط1. سورية: الأوائل 2004

رفقة، فؤاد: الشعر والموت. بيروت: دار النهار. 1973

زكار، سهيل، وفايزة محمد كلاس: تاريخ الأندلس. منشورات جامعة دمشق كلية الآداب
والعلوم. 2016

زكريا، إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة. ط1. القاهرة: مكتبة مصر. 1968

زيدان، رقية: أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني. ط1. حيفا: دار الهدى م.ض. 2009

ساكنز، هاري و. ف: الحياة اليومية في العراق والقديم (بلاد بابل وأشور) ترجمة كاظم سعد
الدين. ط1. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ودار المأمون للترجمة والنشر. 2000

ساكنز، هاري: عظمة بابل "موجز حضارة وادي دجلة والفرات القديمة" ترجمة وتعليق عامر
سليمان. ط1. لندن. 1962. ط2. لندن. 1966. الترجمة العربية 1979

- السواح، فراس: **نغز الألوهة الموثقة وأصل الدين والأسطور**. دمشق: دار علاء الدين. 1996.
- السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**. دمشق: دار علاء الدين. 1996
- سوسة، أحمد: **مفصل العرب واليهود في التاريخ**. ط5. العراق: منشورات وزارة الثقافة والإعلام.
- السويدان، طارق محمد: **فلسطين التاريخ المصور**. ط3. الكويت: مطابع الخط. 2004
- السيد، محسن لطفي: **كتاب الموتى للمصريين القدماء**. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر. 2009
- شابيرو، ماكس ورودا هندريكس: **معجم الأساطير**. ترجمة حنا عبود. دمشق: دار علاء الدين. 1999
- شلحت، أنطوان: **سميح القاسم من الغضب الثوري إلى النبوءة الثورية**. عكا: منشورات الأسوار.
- الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير**. 4مج. ط1. لبنان-بيروت: دار الساقى. 2001
- شورون، جاك، **الموت في الفكر الغربي** ترجمة كامل يوسف حسين. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1978.
- الصكر، حاتم، واميل توما: **مراثي سميح القاسم**. ط1. بيروت: دار الآداب. 1978
- الصوفي، ماهر، أحمد: **موسوعة الآخرة الموت وعالم البرزخ**. ط10. بيروت-صيدا: المكتبة العصرية. 2004
- عبد الخالق، أحمد محمد: **قلق الموت**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1987
- عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: **تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة**. القاهرة: الجريسي
- العربي، محمد: **موسوعة الأديان السماوية والوضعية (الديانة اليهودية)**. بيروت: دار الفكر اللبناني.

- العموش، بسام علي سلامة: *مذاهب وفرق دراسات نقدية*. ط1 الأردن: الأكاديميون 2009
- العودات، حسين: *الموت في الديانات الشرقية*. دمشق: الأهالي. 1995
- عوض، ريتا: *أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث*. المؤسسة العربية للدراسات. بيروت. 1978
- غويربر، ه.أ.: *أساطير الإغريق والرومان*. ترجمة حسني فريز. عمان: دائرة الثقافة والفنون. 1976.
- القاسم، نبيه: *سميح القاسم مبدع لا يستأذن أحدا*. ط1. دار الهدى للطباعة والنشر كريم. 2013.
- القرطبي: *التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة*. تحقيق عصام الدين الصبايطي. القاهرة: دار الحديث. 2003
- اللوحي، نيقولا حنا واللوحي، جانيت اندريه: *السلم إلى السماء*. ط1. القدس: مطبعة عارف. 1889
- لؤلؤة، عبد الواحد: *المفارقة الساخرة في شعر يميح القاسم كلمة الفقيد مثالا*. تلك جمجمة الشنفرى
- الماجدي، خزعل: *المعتقدات الإغريقية*. عمان: دار الشروق. 2004
- الماجدي، خزعل: *المعتقدات الكنعانية*. ط1. الأردن، عمان: دار الشروق. 2001
- مازيل، جان: *تاريخ الحضارة الفينيقية*. ترجمة ربا الخشن. ط1. سورية- اللاذقية: دار الحوار. 1998.
- محمود، عبد الرحمن عبد السلام: *فلسفة الموت والميلاد دراسة في شعر السياب*. أبو ظبي: المجمع الثقافي. 2003
- المساوي، عبد السلام: *جماليات الموت في شعر محمود درويش*. ط1. لبنان: دار الساقى. 2009
- مظهر، سليمان: *قصة الديانات*. ط2. القاهرة: مكتبة مدبولي. 1998

- معدي الحسيني الحسيني: أساطير الشعوب حول خلق الكون. ط1. القاهرة: كنوز. 2012.
- م.ف. ألبديل: سحر الأساطير. ط1. ترجمة حسان ميخائيل اسحق. سورية-دمشق: منشورات دار العلاء. 2005
- مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص). ط1، بيروت: المركز الثقافي العربي. 1985،
- مندور، محمد: الأدب ومذاهبه. مصر: نهضة مصر .
- موسى، إبراهيم نمر: آفاق الرؤية الشعرية. ط1. وزارة الثقافة. 2005
- نونج، أريك هور: وادي الملوك. ترجمة محمد العزب موسى. ط1. القاهرة: مكتبة مدبولي. 1996
- هاملتون، أديث: الميثولوجيا. ترجمة حنا عبود. دمشق: دار الكتاب العرب. 1990
- اليساري، مبروك: المنزع الواعي في شعر سميح القاسم. تلك جمجمة الشنفري. تحرير إبراهيم طه. دار الهدى للطباعة والنشر كريم 2011
- اليوسف، سامي يوسف: مقالات في الشعر الجاهلي. ط3. الجزائر: دار الحقائق وديوان المطبوعات. 1983م.
- يونس، جمال: لغة الشعر عند سميح القاسم. ط1. دمشق: مؤسسة النوري. 1991.
- المجلات والدوريات**
- عبدالجليل حسن، وعبرة سلمان ثابت وحسن البنداري، التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر - مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية 2009، المجلد 11، العدد 2، حسن البنداري صرصور عبلة سلمان ثابت.
- مجلة الشعراء عدد 7 - 1999

المواقع الالكترونية

رحلة السالامون العجيبة <https://www.youtube.com/watch?v=riW0PU7UL18>

تاريخ الزيارة 10/14

زاهر محمد الجوهر حنني: رثاء جمال عبد الناصر في الشعر الفلسطيني

تاريخ الزيارة 8-22 <http://www.alfikralarabi.org/modules.php?>

عادل الأسطة: أدب العائدين / الزائرين ربعي المدهون "مصائر"، جريدة الأيام.

تاريخ الزيارة 2015-12-27 http://www.al-ayyam.ps/ar_page.php؟

عبد السلام المساوي: الموت بين الأسطورة والفلسفة.

http://www.aljabriabed.net/n61_02musawi.htm

موقع ويكبيديا: كفر قاسم <https://ar.wikipedia.org/wiki/> تاريخ الزيارة 2016-7-2

موقع ويكبيديا: مجزرة قانا <https://ar.wikipedia.org/wiki/> تاريخ الزيارة 2016-7-2

هاشم حمدان: وادي الصليب شاهد على التطهير العرقي www.arab48.com/

تاريخ الزيارة 6-28

ويكبيديا: بحر البقر <https://ar.wikipedia.org/wiki/> تاريخ الزيارة 2016-6-8

ويكبيديا: شانغري لا <https://ar.wikipedia.org/wiki/> تاريخ الزيارة 7-27

ويكبيديا: عكا <https://ar.wikipedia.org/wiki/> تاريخ الزيارة 2016-8-30

ويكبيديا: لانسوت <https://ar.wikipedia.org/wiki/> تاريخ الزيارة 7-27

ويكبيديا: محمود درويش https://ar.wikipedia.org/wiki

ويكبيديا: جبل حيدر <https://ar.wikipedia.org/wiki/> تاريخ الزيارة 2016-8-30

المقابلات:

تحفظات الشاعر الفلسطيني على مسلسل في حضرة الغياب

http://shamfm.fm/ar/article/19542 تاريخ الزيارة 8-11

حليح، علاء: سميح القاسم: أفنيتُ عمري في خدمة القصيدة، وقصيدتي أهمّ من الوطن! 17-

www.qadita.net/featured/sameeh-alqasem 2015-11

زبيدات، ابتهاج: سميح القاسم: أطالب بالعودة إلى الخلافة الفاطمية شرط أن تتم مبايعتي خليفة

للعرب حديث «شيطنة» بعد شفائه من مضاعفات حادث السيارة المروع. 11-17-

2015

http://archive.aawsat.com/details.asp?issueno=9532&article=330206

عواوده، وديع: سميح القاسم أقول للمرض: أنا لا أحبك يا موت لكني لا أخافك

www.alquds.com تاريخ الزيارة 2015-11-20

http://www.aljazeera.net/programs/privatevisit/2008/12/2332\12 كليب، سامي

زيارة خاصة 8-27

مكريم، مريّة، سميح القاسم: طيف درويش لا يفارقني وأقول للمرض أنا لا أحبك ولكني لا أخاف

الموت http://www.febrayer.com/70394.html 8-16، تاريخ الزيارة 20،

يوليو 2014

ملحم، ابراهيم برنامج خارج النص - سميح القاسم الجزء الثاني تاريخ الزيارة 15 - 11-

2016

**Al-najah National Universit
Faculty of Graduate Studies**

Phenomenon of Death in the Poetry of Samih-Al-qasm

**By
Amal Abdul Lateef Dawood Hassan**

**Supervised by
Prof. Ihsan Al-Deek**

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the
Requirements for the Degree of Master of Arabic Language
Faculty of Graduate Studies, An-najah National University,
nabulus, Palestine.**

2017

Phenomenon of Death in the Poetry of Samih-Al-qasm

By

Amal Abdul Lateef Dawood Hassan

Supervised by

Prof. Ihsan Al-Deek

Abstract

This study is intended to examine the phenomenon of death and its manifestations in the poetry of Samih al-Qasim. It has been divided into four chapters. The first chapter of the study sheds light on the poet's philosophy of death and the pillars of his extended image in his poetry.

In the second chapter it focused on the death and killing of biological and moral groups of the Palestinian people and alienation and Arab defeat.

In the third chapter, the poet's self-experience with death was identified as the turning point in his vision. After he was in the early stages in a symbolic group, in later stages he became a biological individual.

The fourth and final chapter it showed the death of the other friend and his influence in himself, and the other enemy and the impact of the Nazi Holocaust in the formation of his character as a murderer and executioner.

The conclusion included the most important results reached by the researcher through the research, the most prominent of which: The significance of death affected by the stages experienced by the poet and the events interspersed as death has gained specialty from Samih's own experience, in addition to his culture and wide readings in history and thought and philosophy and ancient myths that The poet inspired rejection, challenge and resistance to the power of death by the free word and the eternal poem